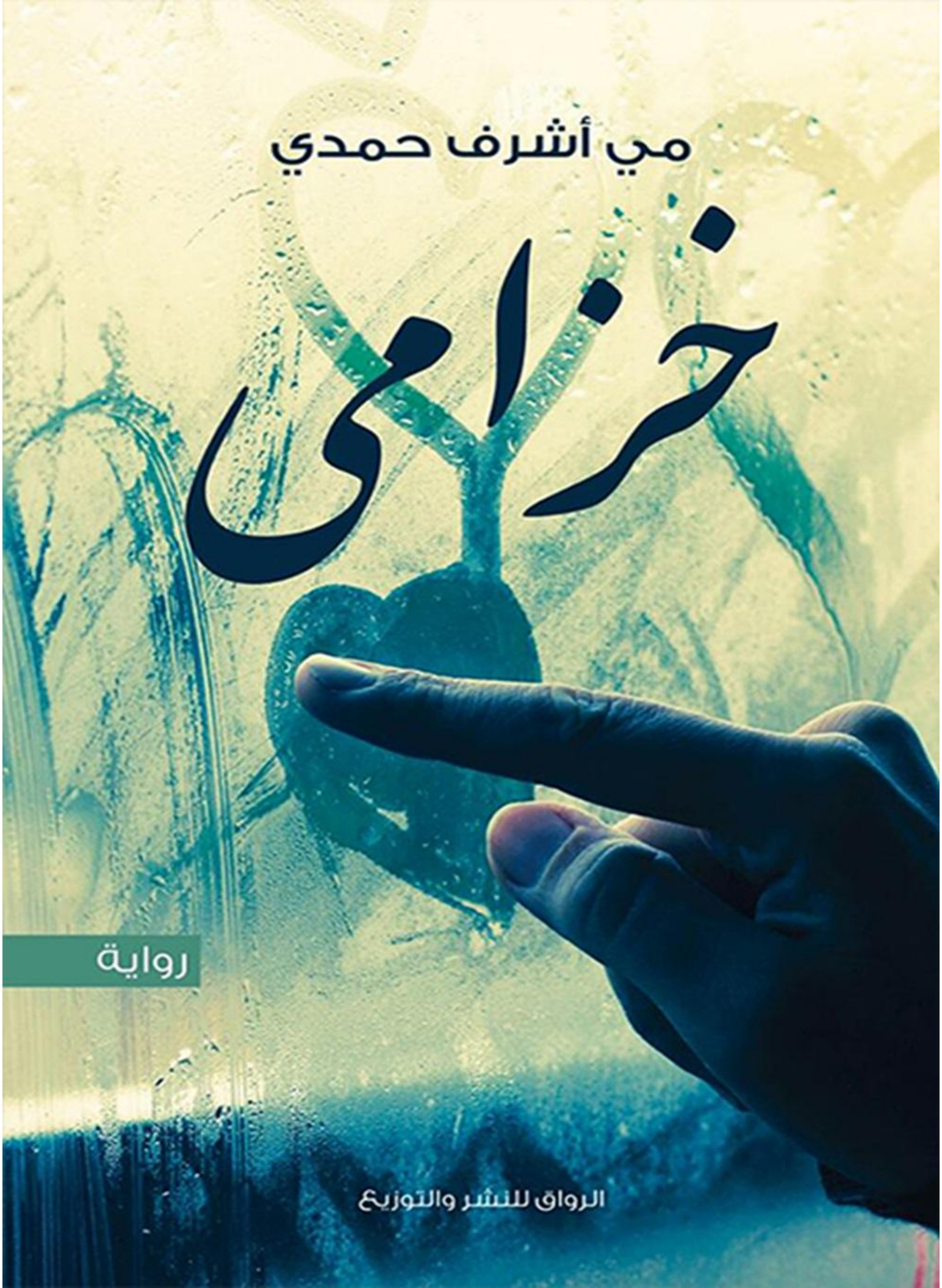
مي أشرف حمدي
خزامى
رواية
الرواق للنشر والتوزيع

خُزَامى (رواية)

مي أشرف حمدي

نسخة الكترونية خاصة بكندل أمازون

الغلاف: أحمد مراد

التصحيح اللغوي: محمد حمدي أبوالسعود

رقم الإيداع: ٢٣٥٦٢ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي: ٠ - ٧٦ - ٥١٥٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر

هاتف: ٠٢٢٠٨١٢٠٠٦

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

إهداء

إلى المتباكين على الأقدار المحتومة

ومن يصنعون أقدارهم..

إلى الهاربين للزيف

والباحثين عن الحقيقة..

إلى المتبرئين من الماضي

ومن يصلونه بالمستقبل..

إلى سارقي الأحلام

وصانعيها..

.....

لستم سواء

(١)

١٦ إبريل ٢٠٣٣

في مقْهَى صغيرٍ وراقٍ غير مكتظ بالزبائن، جلست (هبة) في رُكنٍ بجوار حائط زُجاجيّ، تنبعث منه أضواء تتغيَّر تلقائيًا كلَّ دقيقتين، ويعطي مظهرًا خادعًا أن ثمَّة شلاّل مياه يسري بداخله. أخذت تطالع صور أجساد المارة المتعرجة في مللٍ وهي تنقر الطاولة الزجاجية بأظفارٍ مطليَّة بعناية بالوردي الفاتح.

هوَ أمرٌ مُحبِط..

أن تتأمّل انعكاسًا مُشَوهًا لحقيقةٍ ما ولا يترك لديك أيَّ انطباعٍ.. بينما تجهل أنت كيف يراك من على الجهة الأخرى..

هذا.. إن كان يراك!

في تتابعٍ آليّ أخذت تُكرر تلك الجملة الجسدية...

تطالع المارّة..

تَنقِر بأظفارها...

تتأمل الدبلة الذهبية في الخنصر الأيمن...

ثم تنظر لساعتها وتزفر زفرة طويلة محمومة كأن تنينًا على وشك أن ينفث غضبه على أول مار به.

أضاءت الطاولة الذكية بالبرتقاليّ، وصدرت عنها نغمة قصيرة فتحولت لشاشة كبيرة يظهر عليها شكل نادل، يسألها إن كانت تريد أي خدمة.. ثم ظهر على يمينه قائمة الطعام والمشروبات..

لمست مربع «شكرًا.. أعد تذكيري بعد ١٥ دقيقة» وهي تتنهد..

نظرت للساعة مرة أخرى مفكرة...

نصف ساعة تأخير! نصف ساعة! منذ متى اختل ميزان الحياة لتلك الدرجة! أيترك الذكر أنثاه وحيدة تنتظره.. تعترضها كل العيون المتسائلة والأنوف المقتحمة لخصوصيتها!.. أين رحل ذاك الزمن الجميل حين كان الرجل يستميت للحصول على شبه ابتسامة من حبيبته.. ويستجمع شجاعة كل الجنود ليسألها موعدًا! وآهٍ إن وافقت! يجافيه النوم حتى موعد اللقاء الذي يحضر قبله بساعة! يظل هو منتظرًا أن تتعطف ـ هي ـ وتأتي.. وفي اللحظة التي يبدأ اليأس في التسرب لقلبه.. يراها قادمة.. فينسى تأخرها ولا يعاتبها.. بل تتهلل أساريره كأن العيد قد حل فجأة!

لكن الحق معه! هي التي فعلت ذلك بنفسها! هي من أخذت كل المبادرات على عاتقها.. هي من لمَّحت له أولاً بحبها.. فاقتنصت منه اعترافًا بحبه.. ثم أظهرت له ضجرها من العلاقة التي لا تتحرك للأمام.. وبعد سنوات سفره التي تحملتها على مضض رجعت تُلمِّح له إلى أنها ستخرج من حياته إن لم يتقدم لخطبتها.. ففعل!

وهل يعني ذلك أنه يحبها بالفعل؟؟!..

«غبية أنا!.. لماذا لم أفعل كسائر بنات جنسي؟.. أتمنع.. وأترفع.. وأغيب عن ناظريه حتى يأتيني راكعًا مستسلمًا!..

لمَ لعبت معه دور الأم الحنون المستعدة لفعل كل شيء من أجل قرة عينها؟!»

أشاحت بوجهها تنفض تلك الأفكار عن عقلها. بداخلها كانت تعلم لماذا قامت بذلك..

إنه الخوف..!

تلك الغريزة التي تدفعنا لفعل كل ما تعترض عليه عقولنا!

الخوف من ألّا يأتي أبدًا راكعًا مستسلمًا..

الخوف من أن تفقد الشخص الوحيد الذي خفق له قلبها..

الخوف أن يرحل عصفور الحب بعد أن حط أخيرًا بين يديها..

ربما حاول كبرياؤها أكثر من مرة أن يقنعها، أن الحياة من دون حب تظل أفضل من حياة مع شخص لا يبادلك الحب بنفس القوة.. لكن الخوف تحالف مع قلبها وأبيا إلا أن تسير وراءهما لتنال مرادها.

في تلك اللحظة لمحت في زجاج النافذة انعكاسًا باهتًا لابتسامته مقبلة عليها فسرت تلك الكهرباء التي ألفتها منذ وقعت عيناها عليه أول مرة في جسدها. وكأنما بذلك تمت إعادة برمجتها لتنسى كل ما كانت تفكر فيه منذ دقائق، فيتلاشى مللها وغضبها وانتظارها وتملأ ابتسامة عذبة صفحة وجهها.

التفتت نحوه وقد اقترب من طاولتها، يسبقه موكب من رائحة عطر جذابة حيَّت أنفها فتسارعت نبضات قلبها، ومدت له يدها في خوف مسبق من موجة كهرباء جديدة تخشى أن تصعقها!

جلس (يوسف) بعد أن أفلت يد خطيبته (هبة) من دون أن يبدو عليه أنه قد لاحظ ما طرأ عليها من تغيير، ولم يلفت نظره أنه قد فجر براكين وحرك جبالاً وأتى بالشمس والقمر والنجوم في مشهد واحد داخل قلبها.

اللامبالاة في عينيه مع ابتسامته الخلابة منحاه جاذبية لا تقاوم.. تشبه جاذبية الأطفال حين ترغمك براءتهم، أن تمتد يدك لشعورهم أو خدودهم لتداعبهم وتمطرهم بالقبلات.
بادرها (يوسف) في لطف:

ـ تأخرت عليكِ؟؟

نظر للساعة يتأكد من إجابة يعلمها مسبقًا إلا أنه ما سأل إلا ليحصل على إجابتها هي.. لا الحقيقة.. فإجابتها ستكون دومًا مشفوعة بحبها له..

أما الحقيقة..

فباردة كالثلج!

ـ لا أبدًا! أنتظر منذ قليل فقط... أنا أيضًا تأخرت.. آسـ...

كادت تند عنها كلمة اعتذار! ثم أدركت أنها تكذب! ففي كذبها بعض المهدئ لكرامتها الثائرة، وخافض لحرارة مشاعرها من دون المجازفة بإفساد اللحظة التي انتظرت لأجلها..

تذكرت الآن!.. أنه هو من تأخر!.. وكان عليه أن يبادر بالاعتذار بدلاً من السؤال! كان الوقت قد فات على أن تبدأ معاتبته.. ابتلعت اعتذارها وابتسمت له في صمت. وحين طال الصمت بادرته:

ـ كيف حالك؟ مستعد؟؟

رفع حاجبيه في دهشة!

ـ مستعد لماذا؟!

ـ الزواج طبعًا!

ـ آه.. طبعًا.. مستعد.. أفزعتني! لوهلة ظننتني نسيت شيئًا ما كان يجب أن أنساه!

ـ وهل هناك أهم من أننا سنتزوج لأذكرك به! أهم من أننا نتخذ قرارًا مصيريًا نربط فيه مستقبلنا وأيامنا وأحلامنا للأبد!

ـ على رسلك! إنه زواج! وليس حربًا عالمية أخرى!

ـ كيف تستطيع أن تأخذ أمرًا كهذا بتلك البساطة!! الزواج أعقد وأهم من علاقات الدول! علاقات الدول تحكمها المصالح أما الزواج يحكمه الحب والتفاهم... ولا يحتمل الخسائر أو عدم الانحياز!

فالحب هو الانحياز ذاته!

ـ الأمر بسيط يا (هبة).. لا تعقدي الأمور بنظرياتك.. أنا أحبك.. وأنت تحبينني.. أفهمك وتفهمينني.. ارتضينا أن نكمل حياتنا معًا.. الباقي مجرد طقوس... مجرد إجراءات لا أكثر! منذ تقدمت لخطبتك اعتبرتك زوجتي وانتهى الأمر بالنسبة لي.. أنا لا تراودني الشكوك إن كان هذا ما تودين معرفته.. أحبك وأريد أن أكمل ما تبقى من العمر معك..

ابتسمت رغمًا عنها بعد أن دغدغت كلمة «أحبك» قلبها..

ـ دائمًا تهزمني! لذلك أحبك!

ـ إذن أرجوكِ... كفي عن إفساد علاقتنا بهواجسك!

رجع الغضب يلوح لها ألا تسمح بكلمة «هواجسك» وما تنطوي عليه من.. من..

ـ هواجسي! تقول هواجسي!!! من الذي بقيَ مترددًا في التقدم للخطبة طيلة خمس سنوات؟! خمس سنوات يا (يوسف)! كيف تزعم أن مخاوفي لا أساس لها في عالم الواقع! كيف أعلم أنك ستحبني في كل أحوالي؟ ستحبني في السراء والضراء؟ في الصحة

والمرض؟ ستحبني حتى لو لم أكن أحبك كل هذا الحب!؟ كيف أعلم أنك تحبني فعلاً وليس رد فعل أمام حبي لك؟! أجبني يا (يوسف)!

ـ لا أستطيع التفكير بمنطق الفرضيات هذا! لا أحد يعلم أي شيء عن المستقبل! ولا أحد يعلم ماذا سيحدث غدًا ولا أستطيع أن أعطيك صكًا بسيناريوهات حياتنا معًا في الظروف المختلفة..

يا (هبة).. لم أعد أملك الماضي.. ولا أملك المستقبل..

كل ما بحوزتي هو الآن..

الآن أنا أحبك وأريدك ولا يخالجني في ذلك شك... أرى أنني سأكون سعيدًا معك.. وستكونين سعيدة معي.. أرى ذلك يا (هبة) لكني لا أضمنه! هل تفهمين؟؟

ـ أفهم ماذا؟ أنك تحبني الآن؟! لكنك قد تصحو غدًا أو بعد غد لتكتشف فجأة أنك لا تحبني؟ لم تعد تريديني؟ هذا هو ما تريدني الإقدام عليه.. أربط مصيري برجل لا يستطيع أن يعدني بالغد؟! كلا! لن أترك نفسي لألقى نفس مصير أمك!

الطلاق!

شرارة غضب تطايرت من عينيه وكادت تفتك بها، فتراجعت وندمت على ما تفوهت به للتو! ما كان يجب أن تدخل نفسها في مقارنة مع أحب المخلوقات لقلبه.. وبخاصة أنها لا تعلم الكثير عن حقيقة ما جرى.. كل ما عرفته هو أن زوجها طلقها.. بسبب استحالة الحياة بينهما... نعم.. ما كان يجب أن تقول ما قالت..

بعض الكلام يندفع من أفواهنا كطلقات رصاص طائشة لا ندري إن كانت تجرح أو تقتل..

الشيء الوحيد الأكيد أنك إن ضغطت الزناد بالفعل..

فلا تأمل أن تظل الرصاصة في مستقرها!

محاولاً تمالك أعصابه أجابها (يوسف)..

ـ قلت لك مرارًا لم يحدث طلاق! فقط انفصلا عن بعضهما وهذا أمر يخصهما! كان قرارًا مشتركًا ولم يكن أبي هو من قرر ذلك الوضع! ومن غير العدل أن تصميني بفعل شخص آخر حتى لو كان أبي!.. أرجو يا (هبة) أن تفهمي كلامي ذلك جيدًا.. دعيهم وشأنهم.. ليس لك أن تحكمي على قصة لا تعرفينها من الأصل!

ـ أنا آسفة... بحق.. لم أقصد.. أنا أعتذر منك.. لكن...

ـ لكن ماذا؟.. ماذا بعد يا (هبة)!؟

ـ لمَ كل تلك السرية؟؟ لمَ لا تحكين لي ما حدث بالفعل... ربما يبعث ذلك بالاطمئنان إلى قلبي.. كل البيوت وارد أن يقع فيها الطـــــــــــ... آسفة أقصد الانفصال.. لا يوجد ما تخجل منه.. وبالأخص أمامي أنا..

لمَ لا تريد أن تحكي لي ما حدث؟.. لأنني بصراحة.. دومًا أتخيل أن والدك ـ سامحني ـ لا بد كان مترددًا ملولاً.. مثلك أنت!..

لا بد أنه استيقظ يومًا، ليكتشف أن حياة الزواج والقيود لم تكن الحياة التي أرادها... استيقظ يومًا ليجد نفسه غير سعيد.. وغير قادر على اسعاد من حوله فانسحب من حياة والدتك وحياتك بهدوء وسافر ليحسم أمره من دون أن يدع التردد يعيده للحياة التي لم يطقها.. تاركًا والدتك هنا تعاني آلام الهجر وتحمل مسؤولية طفل بمفردها.. تماسكت لأجلك فترة لكن حزنها فتك بها في النهاية تاركًا لها المرض زائرًا مقيمًا..

هل هذا هو ما حدث بالفعل؟ وهل تعدني ألا يحدث معي؟؟

أرجوك يا (يوسف).. إن كانت تلك هواجس.. إدها في المهد..

لا تتركها تنمو لتقتل حبنا.. أرجوك!

ـ صدقيني يا (هبة).. كل تساؤلاتك دارت بخلدي عددًا طويلاً من السنوات.. أسئلة كثيرة لا نهاية لها.. تتمشى في متاهة داخل عقلي من دون أن تصل إلى غايتها.. لا يوجد لدي إجابات لأنني أنا شخصيًا لا أعلم ماذا حدث...

وتحديدًا.. «ماذا حدث؟».. هو السؤال الذي ظل يطرق بعنف أبواب عقلي..

يطرق ويطرق ويطرق..

كل يوم.. نفس النغمة الرتيبة للطرق..

كأنما هي إحدى طرق تعذيب الأسير..

ثم تعبت من السؤال.. وتعب السؤال مني..

وأخذ الطرق يخفت.. يومًا بعد يوم.. يخفت أكثر فأكثر حتى تلاشى..

أو بالأحرى اعتدت أنا على صوت طرقه الواهن كل مدة.. أصبح جزءًا مني ومن تكويني...

أطرقت (هبة) برأسها.. لم يعد هناك ما يقال... كل تساؤلاتها صارت كأمواج تتكسر على صخرة المجهول!

نظر لها (يوسف) محاولاً لمح رايات الاستسلام ترفع على شطآن عينيها السوداوين..

وقد كان له ما أراد..

لكنه لم يع تمامًا أنها قبل إعلان استسلامها ذاك، قد ألقت بجذوة نار داخل عقله الغارق في أفكار قابلة للاشتعال.

كعادتها دومًا.. عندما تحاصرها الهزيمة ـ وهو أمر شائع لمن يحوي رأسه العديد من علامات الاستفهام وقلبه الكثير من علامات التعجب ـ استخدمت سلاحها الأقوى..

النقطة.

تضعها بعد آخر حرف من آخر إجابة غير شافية أو غير مقنعة...

تلم شتات عقلها وتنتقل لسطر جديد في فقرة جديدة وتبدأ مرة أخرى.

باغتته..

ـ ما أخبار «كليب» الفرح؟

دُهش (يوسف) من سرعة تغير اهتماماتها..

ـ «كليب»؟؟! بحسب ما أذكر، آخر مرة تحدثنا اتفقنا أنها عادة قديمة جدًا، ولم يعد أحد يعرض ذلك في الأفراح في أيامنا!

ـ اتفقنا؟!.. حبيبي لا بد من علاج لذاكرتك الضعيفة!.. اتفقت أنت! وظللت أنا على موقفي.. غير أنه كالعادة انتصرت بوضع جملة المقصلة..

تلك التي تأتي في نهاية كلامك وتفصل رأس السؤال عن جسده وتموت المناقشة!

ـ مقصلة؟! وتموت المناقشة! حقًا يا (هبة)... لم لا تفكرين بالعمل في فن التمثيل المسرحي!! أنت بارعة في «الميلودراما»!

امتعضت (هبة) وقد جرحتها سخريته منها..

ـ لا تغير الموضوع أرجوك! قلت إنني أريد «كليب» على الطريقة القديمة... مثل والدتي في فرحها.

ـ مثل والدتك؟؟ هذا هو السبب؟؟ لم تصرين على ربط حاضرك بالماضي؟؟! ما معنى أن نحتفل بمستقبلنا كزوجين بعرض صور من ماضينا كطفلين ومراهقين؟! تلك كانت حقبة أخرى لها أحلام مختلفة وشخوص مختلفون ومشاعر مختلفة! لم أرغب في تذكرها في اليوم الذي أدشن فيه توديعي لها؟! فلترقد في سلام حيث ذهبت في مقابر الذاكرة!

ـ أنت لا تعي قيمة الماضي!

الماضي هو ما صنع الحاضر وأرسى احتمالات المستقبل!

سلسلة من الأحداث المتصلة ـ لا المنفصلة ـ جعلتنا هنا اليوم! حتى القدر ـ أحيانًا ـ تكتبه اختياراتنا في الماضي الذي كان وقتها حاضرًا!

أنا لن أودع ماضيَّ.. أبدًا!... سأحمله معي لبيتنا لأنه صار جزءًا مني!

ـ ما زلت أراه سخفًا لا داعي له! لكن أنتن معشر النساء تهدرن عددًا لا بأس به من سنوات عمركن في التفكير بهذا اليوم.. لكِ ما شئت.. لكني لن أشارك.. سـ...

قاطعته بسرعة..

ـ لا تفعل شيئًا.. سأقوم أنا بالمجهود.. فقط أحضر لي بضع صورٍ من طفولتك وسأقوم بالباقي.. هذا كل ما أطلبه منك..

لدغته كلمة «طفولتك» بشكل غير متوقع وأصابه ذلك على الفور ببعض الدوار.. شيء ما بداخله حجب عنه أي صور داخل ذاكرته عن تلك المرحلة، كما لو أن ثمة ستائر سوداء أسدلت فجأة من كل ناحية، معلنة بدء فقرة الساحر!

للنساء تلك الحاسة المبهمة لاستشعار تردد الرجل.

في الحقيقة هي حاسة مرتبطة بغريزة الأمومة. عندما يطفو ذلك الطفل بداخل كل رجل للسطح، يطلق ذبذبات ما إيذانًا بظهوره، وهو ما تلتقطه أغلب النساء ويسعين لاستغلاله للنفاذ داخل عقول الرجال، التي تكون في تلك اللحظة في حالتها الأضعف.

وبنفس الطريقة استشعرت (هبة) التغير الذي طرأ على (يوسف) فطرقت على الحديد وهو ساخن. مدت يدها تلتمس يد (يوسف) المستلقية على الطاولة في سلام... برفق شديد استقرت أناملها واحدة تلو الأخرى فوق يده كأنما تعزف البيانو ما عدا إبهامها الذي تسلل إلى حضن راحة يده.

هذه المرة سرت الكهرباء في الاتجاه العكسي..

انتبه ليدها..

شعر ببرودة تتبعها حرارة شديدة في كل خلاياه..

التقت عيناه بعينيها..

أرسلت رسالة صامتة مفادها «أنا معك.. لا تخف»...

ابتسمت له تطمئنه... ضغطت برفق مرتين على يده..

فابتسم لها معلنًا لها نجاحها في اقتحام حصونه..

وحينئذ انسحبت أناملها في بطء تنزلق من فوق يده لتعود إلى ثكناتها غانمة.

تلاشت ابتسامة (يوسف) حين لمح تقطيبة جبين (هبة) وتسمر عينيها على يده..

ـ ماذا هناك؟ ما الذي حدث؟؟ أنتِ بخير؟

ـ أين «دبلتك»؟

ـ ظننته أمرًا جللاً!!!!

ـ هو كذلك! أين هي؟

ـ لمَ تتعلقين بالأشياء هكذا؟؟ قطعة الجماد تلك ليست ما ينسبني إليك... لا أستطيع تحملها في إصبعي.. لست معتادًا عليها ولا يوجد مبرر قوي يوجب عليّ أن أغير هذا! لا تعطي الأمر أكثر مما يستحق من الاهتمام..

ـ أتعتبرها قيدًا؟؟ كالزواج ربما؟

ـ لا تنصبي لي الفخاخ يا امرأة! قلت فقط إني غير معتاد على المعادن حول أصابعي! ماذا تثبت لك على أي حال! أرجوك يا (هبة) لا تبحثي عن الأمان في قطعة معدن..

ابحثي عنه في تصرفاتي.. في حبي لك... وستجدينه... أعدك بذلك!

تنهدت (هبة) وابتسمت في استسلام..

ـ ... جملة المقصلة!

ضحك (يوسف)..

ـ نعم..

ـ لا تنس إحضار الصور..

ـ لن أنسى.. سأبحث عنها.

قالها بعدم ثقة، وهو يشعر من جديد أن أحدًا قد دفعه من ظهره، ليلقي به داخل بئر عميقة مظلمة لا قاع لها..

يظل في رحلة هبوط لا تنتهي..

لكنه مع ذلك يظل يسمع صوتًا واحدًا...

صوت ارتطامه بالأرض!

(٢)

٢٠ سبتمبر ٢٠٢٨

جالت (أميرة) بعينين مرهقتين في أنحاء الغرفة البيضاء...

كل شيء في بياض الثلج، لدرجة أنها شعرت بالبرودة تسري في جسدها..

الأثاث مكعبات بيضاء مسمطة.. حتى أدراجها وتقسيماتها غير واضحة.. كلها تلتصق بالحائط كأنهم مجندين في الخدمة.

هذا إذن ما يسمونه اليوم بالوحدات الطبية!... لم يعد هناك وجود للمستشفيات ولا دور المسنين.. أصبحت تدعى الوحدات الطبية المتخصصة.. لكل وحدة مجالها المحدد في عالم الطب.. وحدة العيون.. وحدة العظام.. وحدة القلب.. وحدة لكل عضو، وأحيانًا وحدة لكل مرض.. وملحق بكل وحدة غرف فندقية، تقدم الإقامة الكاملة مع الخدمة الطبية وكلها تتبع القطاع الخاص. حدث هذا التطور بعد انتشار عدة أوبئة أتت على أعداد كبيرة من المصريين، فرجع التعداد السكاني مئات السنين للوراء. فصار الطب رفاهية يقدر عليها أغلب العامة.. أما من لا يقدر.. حسنًا.. توصلت الدولة لفلسفة جديدة مقتضاها أن من يحكم عليه القدر بالفقر والمرض معًا، فلا طائل من محاولة تحدي القدر لمد عمره عدة سنوات من العذاب له ولمن حوله...

الأفضل دومًا يحدث إذا قلصنا من تدخل البشر..

حتى وإن كان هذا الأفضل هو الموت للبعض!

دخل (يوسف) إلى الغرفة ووضع الحقائب على الأرض. مغتصبًا شبه ابتسامة من بين عضلات وجهه. ساعد والدته المستندة إلى العكاز في الجلوس على السرير. جلس بجانبها

وألقى ببضع كلمات في الصمت الراكد.

ـ حالاً ستأتي الممرضة لتساعدك على توضيب حاجياتك. هل تعجبك الغرفة؟

تنظر (أميرة) إلى الفراغ متجنبة لقاءً مؤلمًا بين عينيها وعيني ولدها الوحيد (يوسف).

ـ لا بأس بها..

أحاط (يوسف) كتفيها المحنيّين بذراعه الفتية..

ـ إن كانت لا تعجبك أستطيع تغييرها لك.. أو حتى نذهب لوحدة عظام أخرى..

ـ كل الأماكن سواء ما عدا تلك التي نصنع فيها الذكريات.. تدعى المنزل.. الوطن..

ـ أمي! أرجوك! ليس مرة أخرى.. انتهينا من مناقشة الأمر..

ـ أعلم.. لست أناقشك.. لكن..

ـ لكن ماذا؟! لا أستطيع تركك بمفردك من دون أحد يعتني بك..

ـ مضحك أن تقول «لا أستطيع تركك» بينما أنت تتركني بالفعل مسافرًا لبلاد غريبة.. أعلم أني صرت عبئًا.. ليس الأمر سهلاً أن تعتني بعجوز مشلولة..

ـ أماه.. أرجوك لا تتحدثي هكذا.. تعلمين جيدًا أني راحل لأسباب مختلفة.. تخصني أنا.. لا أنت.. أبحث عن نفسي يا أمي.. أبحث عن روح الشخص الذي تصافحني ملامحه كل صباح في المرآة..

ـ أيجب أن ترحل لأرض غير الأرض لتجده؟

ـ نعم.. حين نعجز أن نهتدي لأنفسنا وسط كل ما ألفناه يكون التغيير هو الحل.. معطيات جديدة تجعلنا نرى الأمور بشكل مختلف..

ـ مختلف؟ أم مضلل؟!

ـ مخـ...

قاطع حوارهما دلوف الممرضة إلى الغرفة تسبقها ابتسامة مرحبة. كانت شابة قصيرة القامة.. ممتلئة قليلاً.. بشرتها بلون الغرفة بيضاء.. متوسطة الجمال.. ليس هناك ما يميز هيئتها إلا بياضها الشديد وابتسامتها الصادقة.

ـ مرحبًا.. اسمي (سعيدة) وأنا هنا في خدمتك دومًا خلال «شيفت» النهار

أجابها (يوسف) في حماس..

ـ أهلاً (سعيدة). أرجو أ...

قاطعته (أميرة) بإشارة من يدها..

لحظات من الصمت المريب مرت كأنها دهرٌ على (سعيدة) تفحصتها خلالها (أميرة) من دون أن يبدو على ملامحها أيَّ انفعال..

وبهدوء شديد كسرت (أميرة) الصمت..

ـ لديكم مشغل موسيقى؟

ـ آ.. نعم.. طبعًا يوجد.. كل ما يلزم لراحتك و..

قاطعتها أميرة بإشارة من يدها، ثم أشارت لها لتحضر حقيبة يدها الملقاة فوق أحد المكعبات البيضاء، ففعلت من دون أن تنظر، أدخلت يدها وأخرجتها في مهارة ساحر يخرج

الأرنب من القبعة. ناولت (سعيدة) كبسولة تشبه الدواء لكنها أكبر قليلاً نصفها أبيض والنصف الآخر وردي.. وضعت (سعيدة) كبسولة الذاكرة داخل أسطوانة زجاجية، وما أن فعلت حتى ظهرت دائرة ضوء زرقاء ترتفع وتنخفض داخل الأسطوانة، كما لو كانت ترقص على الأنغام المنبعثة.. يأتي الصوت العميق كأنه من مكان بعيد..

«.....

حيرت قلبي معاك..

وأنا بداري واخبي..»

في دهشة ممتزجة بالبهجة دوى صوت (سعيدة)...

ـ السِّت!!

لكن (أميرة) لم تعد معهم..

لم تسمع نبرة الدهشة في صوت (سعيدة)..

رحلت إلى عالمها الخاص.. كوكب غير مأهول إلا بالأفكار والمشاعر.. لا يشاطرها أحد الحياة هناك إلا صوت «السِّت» فقط.. تعتقد هي أن قوة كونية ما نجحت في أن تحول مواقف حياتها وأحاسيسها، إلى كلمات أغانٍ تشدو بها «السِّت».. لذا أصبح لتلك الكلمات قوة سحرية ما تربط بين أيامها، فيصبح لكل ما يحدث معنى ومغزى.

هكذا، أصبحت عادتها اليومية منذ أمد بعيد، أن تستيقظ على صوت أم كلثوم وفنجان القهوة.. تشغل أغانيها من حيث توقفت آخر مرة، وتعتبر أول جملة «للست» فأل يومها.

«بدي أحكي لك ع اللي ف قلبي..

وأقول لك ع اللي سهرني..

وأقول لك ع اللي بكاني..

وأصور لك ضنا روحي...

وعزة نفسي منعاني..

.....»

ـ الله!

انتبهت (أميرة) على تصفيقة إعجاب ندت عن (سعيدة) فالتفتت لها تتفحصها من جديد بينما (يوسف) يجلس صامتًا مترقبًا.. يرقب التفاعل بين أمه والممرضة في قلق ألّا تنتهي الأمور على خير.. هو يعلم كم يمكن لأمه أن تكون صعبة!

في تشكك بادرتها (أميرة)..

ـ تعرفينها إذن؟!

ـ ومن ذا الذي لا يعرفها!

ـ في جيلكم؟ الكثيرون أعتقد!

ـ هناك أشياء لا تتهالك بمرور الزمن بل تزداد قيمتها.. و«السِّت» كلما استمعت لها.. أحببتها.. كان جدي ـ رحمه الله ـ يقول لي من لم يسمع أم كلثوم لم يعرف الحب يومًا!

ـ وهل عرفته يا (سعيدة)؟.. الحب؟

تصمت (سعيدة) وتنظر لنقطة بعيدة في السقف الأبيض..

ـ بشكل يفوق تصورك!

بالنسبة لـ(يوسف) لم يكن يعنيه الحوار كثيرًا، لكن بالنظر إلى وجه أمه، كانت تلك بالتأكيد النهاية المثلى للقاء الأول بينها وبين ممرضتها، واللحظة المناسبة لكي يمضي هو خارج المشهد.

ـ حسنًا أمي.. يبدو أن كل شيء على ما يرام هنا.. هل ترغبين في شيء قبل أن أ...

ـ ترحل!

أنهت له (أميرة) جملته في حسم، ثم باغتته بالنظر مباشرة إلى عينيه، فهرب منها ـ هو ـ هذه المرة.

ـ نعم أمي.. سأتأخر عن موعد طائرتي..

لا يجد منها ردة فعل غير استمرار تحديقها بعينيه فينهض ليقبّلها.. يربت على ظهرها مرتين..

تلتقي عيناهما... ولا ينجح في الفكاك منهما هذه المرة.. لقد ابتلعته دوامة الحزن داخل عيني أمه.. يشعر بأنفاسه تتخلى عنه.. يكاد يذرف دمعة مصحوبة باعتذار ويرمي بنفسه داخل الحضن الوحيد الذي آواه منذ تخلى أبوه عنهما.. لكنه يجبن عن الاستسلام.. ويؤثر نصر الهروب..

ـ سأكلمك يوميًا..

تشير (سعيدة) إلى الدائرة الزجاجية أعلى المكعب الأبيض بجوار سريرها وتختتم التعارف

ـ سأتركك لترتاحي.. المسي تلك الدائرة إن أردتني..

تهز (أميرة) رأسها بالموافقة وهي لا تزال تشيعه بنظراتها. تسبقه (سعيدة) إلى الباب وتخرج ثم يتبعها وينزلق الباب مغلقًا نفسه خلفه.

في الخارج.. يعطي (سعيدة) بعض التعليمات الخاصة بالعناية بأمه. يخبرها عن تاريخها المرضي.. إصابتها منذ عدة سنوات بجلطة في الجانب الأيمن من المخ، تسببت في شلل أطرافها اليسرى من دون أن تتأثر ذاكرتها أو قدرتها على الكلام.. تحسنت مع العلاج الطبيعي لكنها تعرضت لكسر في الساق اليسرى، لذا تحتاج دومًا لمن يساعدها في بعض المهام التي تحتاج الحركة بجانب العكاز. ينتهي من حديثه بسرعة ويلقي نظرة أخيرة على الباب المغلق ثم يعطيه ظهره ويرحل.

في الداخل..

شعرت (أميرة) بالغربة الشديدة لسفره.. نفس شعور الماضي.. تاريخها المؤلم يعيد نفسه.. رحيل يتلوه رحيل.. إلى متى ستتحمل تخلّي من تحبهم عنها؟! أسلمت ظهرها للسرير الأبيض و«السِّت» تردد

«.....

يا قاسي بص ف عنيا..

وشوف إيه انكتب فيها..

دي نظرة شوق وحنية

ودي دمعة بداريها...»

مسحت بيدها دمعة فرت إلى خدها..

البعض يهرب من مستقبله والبعض يهرب من ماضيه..

والأبواب التي نغلقها خلفنا هي ذاتها التي تغلق في وجه من نترك وراءنا.

أيقنت بداخلها أن الماضي الذي لم تنجح قط في فك أسرها منه عائد..

سيعود ليعذبها من جديد..

وستحاول الهرب..

مجددًا..

(٣)

١٨ ـ ١٩ إبريل ٢٠٣٣

جالسًا في غرفة المعيشة ذات الأثاث الخشب القديم، أخذ (يوسف) يكرر تمرير إصبعه من اليسار لليمين بشكل آلي، أمام الصورة ثلاثية الأبعاد المنبعثة من الحائط، ليغير بين المحطات المختلفة، من دون أن يستقر على مشاهدة أحدها.

ثمّة شيء عالق في رأسه ينبغي إنجازه.. لكنه أمر ثقيل للغاية.. لا يرغب في القيام به.. تمامًا مثل المذاكرة للامتحان.. يظل يهرب منها ويؤجلها.. ومع هذا.. لا يسعد بما يقوم به..

الهرب ليس حلاً إلا لو وجدنا في نهايته مخبأ أبديًا..

لكن أين المخبأ من ليلة الامتحان؟!

نهض من مكانه كأنما قرر التمرد على ذاته المراوغة. (هبة) تريد صورًا وذكريات.. حسنًا.. لأي مدى قد يكون هذا صعبًا؟ سأمنحها ما تريد.. بالتأكيد يمكنني إيجاد صورة أو اثنتين في مكان ما هنا.. أو ربما صور لي في المدرسة الداخلية مع زملائي.. لا بد من أن أمي احتفظت بها.

مخاطبًا نفسه بصوتٍ مرتفع هذه المرة: «حسنًا.. هيا يا (يوسف).. تستطيع فعل هذا.. لأجل (هبة)..»

دلف إلى غرفة أمه.

ما أن فعل حتى باغتته تلك الرائحة التي تشعره بأنه عاد ليكون في الخامسة من عمره..

رائحة أمه..!

كم من المؤسف أنها لم تستطع الرجوع للمنزل.. أخبره طبيبها حين عاد من سفره بعد عيد ميلاد أمه الستين بقليل، أن حالتها ساءت في غيابه وأن الأفضل لها أن تظل دومًا تحت المتابعة والإشراف الطبي، تحسبًا لأي مفاجآت. نفض عنه إحساسًا بالخجل من نفسه، لاستسلامه بسرعة لما قاله الطبيب، على الرغم من علمه أنها ستكون حتمًا أسعد هنا.. لكن هل كان ليتحمل أن يحدث لها شيء وهو بمفرده معها؟

جال بعينيه في أنحاء الغرفة التي شارك أمه فيها عددًا لا بأس به من الليالي، في أثناء إجازته الصيفية.

لوحة «بورتريه» كبيرة من دون إطار تملأ الحائط فوق رأس السرير..

اللوحة لشابة جميلة ينسدل شعرها البنّي بلون القهوة على وجهها الفاتن المليء بالحيوية المائل قليلاً نحو كتفها في غنج ودلال.. تبتسم بخجل وترفع ذراعاها لأعلى على شكل قلب لتلمس بأطراف أصابعها طوق ذهبي على رأسها كأنه تاج يزين وسطه حجر زجاجي وردي اللون.

أسفل اللوحة إمضاء يألفه جيدًا.. إمضاء جده.. (نبيل).. كان رسامًا ماهرًا.. لطالما تعجب كيف استطاع أن يرسم أمه بهذا الجمال.. كيف استطاع أن ينطق العينين ـ اللتين لم يعرفهما يومًا غير حزينتين ـ بكل عبارات الفرحة تلك!

تلك التي تطل عليه من الحائط هي «أميرة» بكل ما في الكلمة من معنى.. ربما هكذا رآها جده.. وهي تشبه أمه شكلاً.. غير أنها لا تشبهها روحًا!

لا توجد أي صور أخرى معلقة، لكن على الطاولة الجانبية بجوار السرير كانت صورة جده... شعر فضي خصلاته الطويلة ممشطة للخلف.. وجهه العجوز ممتلئ بمنحنيات الزمن ومع هذا يسطع بوهج الشباب.. نظارته الفضية الأنيقة ومن خلفها عيناه الزرقاوان تعطيانه

مظهرًا رومانسيًا آسرًا.. كانت صورة فوتوغرافية.. لا يذكر أنها كانت هنا قبلاً.. بل إن جده كان يكره هذا النوع من الصور..

كان يخبره أن الحقيقة المجردة كما تراها عدسة الكاميرا هي وهم! فالحقيقة الواحدة تختلف باختلاف عين من يراها..

تساءل (يوسف) كم مرّ على وفاته يا ترى؟

يبطل مفعول الزمن بانتهاء الانتظار.. سيمر الوقت بطيئًا للغاية إذا كنت في انتظار عودة شخص ما.. ستهتم بعد الأيام والليالي.. ستدرك كم مرّ من الوقت عليك..

أما حين يموت..

حين لا تنتظر له عودة..

فإن الأيام تمر تباعًا من دون أن تحمل عددًا..

حتى يعبر في ذهنك هذا التساؤل..

كم مرّ على وفاته؟..

ثم يأتيك الجواب صادمًا... سبعة عشر عامًا!

هل مرّ كل هذا الوقت فعلاً؟

استمر في البحث داخل الأدراج والدواليب عن أيٍّ من ذكرياته.. أي صور.. أي شيء.. بلا جدوى. خرج إلى الردهة وتجول في كل الشقة.. غرفته.. مرسم جده.. غرفة نومه المغلقة منذ وفاته... لا شيء! باستثناء بعض لوحات جده المعلقة في الردهة، مع صورة أخرى لأمه

مع خالته (هدى) التي تشبه جده إلى حد بعيد.. عيناها زرقاوان.. بشرتها بيضاء كحجابها الذي يعطيها مظهرًا ملائكيًا كأنها أجنبية اعتنقت الإسلام.

هل من المعقول ألا يحوي بيته أي ذكرى له؟!...

لكن..

«بيته»؟!..

لماذا تذكر الآن أن هذا البيت فعليًا.. ليس «بيته»..

الأثاث القديم المتناقض مع الأجهزة الحديثة التي ابتاعها.. وحتى الغرفة التي يسكنها الآن.. هي غرفة خالته في الأساس.. ينام في سريرها.. ملابسه معلقة في ناحية واحدة من دولابها، والأخرى مغلقة بمفاتيح لا يملكها... هذا هو منزل جده الذي انتقل إليه مع أمه بعد انفصالها عن والده..

الآن يشعر بطعنة الألم الأولى داخل صدره..

تهاوى على الأريكة ووضع رأسه بين يديه محاولاً منع قطار اللقطات التي تمر بذهنه محطمة كل المزلقانات المغلقة..

• (يوسف).. صبي في السادسة.. يراقب أمه الباكية وهي تضع أغراضه في حقيبة سفر.. يسألها في براءة هل سنسافر إلى البحر؟ يحيره أن يكون موعد الإجازة قد أتى وما زال يذهب للمدرسة.. يستغرب عدم رد أمه.. ثم.. لماذا هي حزينة هكذا؟ تجره من يده بعصبية وعنف.. يرجوها باكيًا أن يأتي بلعبته من غرفته.. يغضب لتجاهلها له... يصرخ: «أريد أبي!»... تصرخ في وجهه.. ولأول مرة.. يشعر بالخوف.

• يجلس (يوسف) على المرحاض في الحمام بمنزل جده.. تمر خالته أمام الباب المفتوح.. تنهره! عيب! أنت في الحمام.. أغلق الباب خلفك... يبكي.. لم يكن لِزامًا أن يغلق باب الحمام

في منزله.. حيث لا غرباء يصرخون في وجهه!

• وسط قرنائه في المدرسة الداخلية التي انتقل لها.. كلٌّ يتحدث عن إجازته الصيف الماضي.. يُطرِق (يوسف) برأسه كلما سمع كلمة «أبي».. «أبي أحضر لي..».. «أخذنا أبي إلى..».. «ثم فاجأنا أبي..»... يخشى التفاتتهم له.. لا يجد ما يحكي.. لقد مر عليه هذا الصيف مثل كل صيف في منزل جده.. راقبه وهو يرسم.. جاء أولاد خالته وضايقوه.. حاول الهرب لغرفة يغلق بابها دونهم.. فلم يجد.. لا يحبهم.. ولا يحبه أحد!

• آخر مرة رأى والده فيها قبل هجرته إلى إنجلترا... ملامحه لم تعد واضحة.. يقف (يوسف) بلا حراك.. يحتضنه أباه بشدة وهو يبكي... يظل (يوسف) جامدًا.. يمسكه من كتفيه.. يسأله «ألن تحضن أباك؟».. يشيح (يوسف) بوجهه الجهة الأخرى ويقاوم بداخله رغبة عارمة في أن يصرخ غاضبًا في وجهه، ويكيل له اللكمات ثم يلقي بنفسه في أحضانه باكيًا، ويرجوه أن يعود كل شيء كما كان... لكنه لم يفعل.. فقط وقف هناك متسمرًا يراقب خروج والده من الباب وانغلاقه..

ـ تبًا!

قالها بصوتٍ عالٍ وهو يضرب الطاولة أمامه بقبضة يده...

مرت العديد من السنوات.. رحل خارج البلاد.. فعل كل ما يمكنه فعله ليجد سلامًا داخليًّا، ولكن ها هو شبح الغضب القديم يطل برأسه القبيح من جديد، ليثبت له أنه ما زال على قيد الحياة.. خالدا لا يفنى.. مهما حاول!

قضى سنوات طفولته بين صمت أمه وحزنها شبه الدائم وبين غياب والده. يتذكر الآن ليال قضاها في صحبة العديد من علامات الاستفهام تحيطه من كل ناحية تطرق على رأسه وتكلمه. في البداية صادقها لكن الطرق ازداد عنفًا والكلام حدة، فأيقن أنها شريرة لأنها

كانت تجعله يشعر بالذنب.. يسأل نفسه إن كان الخطأ خطأه، أن أمه حزينة هكذا وأن والده رحل وأن بيته لم يعد موجودًا..!

يبكي ويبكي حتى ينام من التعب، فتطارده علامات الاستفهام في نومه مصحوبة بمواء قطط مخيف... ظل هكذا حتى أدرك يومًا كيف السبيل لمحاربتها...

الغضب!

نعم كان غضبه يخيفها ويبعدها..

فغضب وغضب وازداد غضبًا..

من أمه.. من أبيه.. من خالته.. من أولاد خالته.. من أصدقائه.. من كل الناس..

حتى..

نفسه.

فقد السيطرة على سلاحه.. الغضب.. فانقلب ضده.

حتى (هبة)..

تلك المخلوقة البديعة البسيطة، التي ظن حين التقاها أن ترياق غضبه معها.. حبها للحياة بأقدارها وثقتها بأن الأمور دومًا ستكون على ما يرام ـ حتى وإن تأزمت فترة ـ جعلا منها بهجة خالصة. إيمانها بأن للأحزان شمسًا تبددها مهما طال جذبها إليها. لكنه بعد فترة أيقن أن جرعة التفاؤل الزائدة تلك تزيده كآبة وغضبًا.. ومع ذلك ظل قلبه غير قادر على الفكاك من مدارها. اعترافها بحبها له أجبره على أن يواجه نفسه بالحقيقة التي بدت له مؤلمة.. نعم.. هو يحبها.. لأنه ببساطة لم يعد يستطيع تخيل نفسه في مشهد من دونها.. يقود سيارته فيتخيلها جواره.. يأكل.. فيتخيل مشاركتها له نفس الطعام.. يرتدي ملابسه

فيتساءل.. ماذا كانت لتنتقي له؟ يحبها.. ولكم يخاف هذا الحب.. هذا التعلق.. يخاف الوعد.. ويخشى «الأبد».. لأن لا شيء يدوم للأبد..

تلك الليلة زاره النوم ومعه ضيوف من الماضي.. كوابيس متتابعة تطل منها وجوه مألوفة لكنها تبدو له شريرة.. لا تزال ملامح والده مطموسة غريبة..

مواء قطط في الخلفية دائمًا.

استيقظ مرهقًا بعد أن أمضى ليلة صعبة. من غير العدل أن تطاردك حياتك ـ الصعبة نهارًا ـ في الليل أيضًا! إن لم يكن باستطاعة الإنسان أن يلجأ للنوم في محنته ليخفف عنه، فلمن إذن؟!

علمته الحياة ألّا يأمن مكر أي شيء..

حتى النوم!

ذاك الوديع الهادئ المبتسم..

سيظهر لك تعاطفه ويدعوك للجوء تحت جناحيه ليحميك.. لكن ما إن تسلم نفسك له.. تفقد السيطرة تمامًا.. لحظتها سيخونك.. سيسلمك لألد أعدائك..

أفكارك!

قرر التحدث إلى (هبة) وهو في طريقه للخارج ليستمد منها بعض الشجاعة حتى يقدم على الخطة التي استقرت في ذهنه. لمس عدة أزرار في ساعته ثم ثبت قطعة من البلاستك مخروطية الشكل داخل أذنه. بعد رنة على الأكثر جاءه صوتها حنونًا كعادته..

ـ كيف عرفت؟!

ـ عرفت ماذا؟؟

ـ أني كنت أحتاج لسماع صوتك الآن..

ـ لأني كنت أحتاج سماع صوتك أنا الآخر..

ـ أنتَ بخير؟

ـ نعم.. بخير.. ما زلت أبحث لكِ عن بعض الصور.. لم أنس..

ـ .. يوسف..

ـ نعم؟

ـ أحبك..

كانت تلك الكلمة هي إشارة بدء مهمته المستحيلة.

متقمصًا دور أبطال أفلام «الأكشن» أخرج من جيبه المفتاح الفضي الصغير الذي عثر عليه في أحد الأدراج بغرفة أمه، في أثناء رحلة بحثه عن الصور. لولا نصف القلب الصغير المتدلي منه لما ميزه عن غيره.

في مكان ما داخل ذاكرته حفرت نصف العبارة المنقوشة عليه «ليس أجمل من..». لطالما تساءل عن باقي العبارة في النصف الآخر علّها تساعده في فك لغز حياته الأكبر..

ليس أجمل من ماذا؟

ماذا يمكن أن يمنحنا السعادة؟

الرضا عن أنفسنا وعمّن حولنا؟..

ماذا يا ترى؟!

وضع الميدالية بمفتاحها داخل جيبه ونظر للورقة في يده.. أدخل العنوان المكتوب في ذاكرة السيارة، تاركًا الصوت الآلي يوجهه في رحلة لم يقم بها من قبل..

رحلة إلى منزله!

واقفًا أمام العقار الذي كان ذات يوم «بيته».. لم يدرِ ماذا يفعل إزاء لوحة التعرف ببصمة الإبهام، التي تفتح البوابة الرئيسية في زمنٍ رفض الجميع فيه لعب دور «البواب».. الكل أراد دور «البيه».. وقد استجابت التقنية الحديثة لأمنياتهم، فانتهى تقريبًا دور الخدم والمساعدين والمعاونين والبوابين ليصبحوا أزرارًا ليس إلا.

بدأت شجاعته في التخلي عنه..

هو في شارع لا يتذكره.. أمام مبنى يشعره بالغربة.. ويرفضه.. متهمًا إياه بأنه «ليس من سكانه».

بدأ يشعر بسذاجة خطته.. حتى لو استطاع الدلوف إلى المبنى والوصول لباب بيته، من أدراه أن الحداثة لم تطله هو الآخر ليجد أن مفتاحه الصغير غير ذي قيمة، وبصمة إصبعه من الغرباء؟

أنقذه من حيرته يد رجل عجوز حطت على كتفه في رفق.. يسأله من يكون وماذا يريد؟ نظر له (يوسف) في ارتباك لا يدري الجواب المناسب. من سخرية القدر أنه حقًا لا يعرف.. من يكون؟.. وماذا يريد؟ تردد في ذكر اسمه كاملاً ثم لم يجد خيارًا آخر..

ـ أنا.. (يوسف)... (يوسف مصطفى نائل).. والدي.. يسكن هنا.. كان يسكن هنا..

لحسن حظه أن الرجل العجوز كان من السكان القدامى الذين يولون أسماء جيرانهم اهتمامًا، لذا سمح له بالدخول بعد أن تحقق من شخصيته.

مخالفًا ظنه وشكوكه، استسلم باب شقته للمفتاح من دون مقاومة تذكر.

سنة الحياة التغير..

وكذلك مقاومة التغير.

على رغم الظلام في الداخل، داهمه إحساس بنور ساطع يملأه. حتى تلك اللحظة كل شيء كان يبدو غريبًا يراه لأول مرة.. لكن ما أن وقعت عيناه على تفاصيل منزله القديم، حتى بدا كل شيء مألوفًا كأنه يحفظه عن ظهر قلب.. لم يكن ما يراه جمادًا أصم وأبكم! كل قطعة أثاث.. كل ركن.. كل حائط.. كأنما كانوا كلهم أفرادًا من أسرته..

ستظنه (هبة) مجنونًا الآن لو أقسم لها إنه يراهم وقد تهللوا لمرآه.. يبتسمون في فرحة مرحبين.. ينفضون عن أنفسهم الغبار.. بل إنهم يبكون.. يشكون فراقه.. ويفتحون أذرعهم لاستقباله.

يكاد يرى نفسه طفلاً..

هنا يركض..

هنا يتعثر..

هنا يقفز..

هنا يضحك..

هنا ترك فضوله يعبث بالممنوع عليه..

قوة مغناطيسية قادته نحو غرفته.. وإذ يفتح الباب المغلق، ينهدم سدٌ من النسيان ليندفع الحنين بلا هوادة.. يسقط فوق سريره الأبيض الصغير غير مبالٍ بالتراب الذي غطى كل

شيء وينخرط في بكاء حار بلا خجل أو مواربة.

لا يعلم كم من الوقت مر عليه وهو نائم بجذعه فقط فوق سريره..

أتى عليه الليل.. لا بد من أنه نام بعمق لأنه ـ للمرة الأولى ـ لم يسمع أزيز هاتفه في أثناء نومه. يبدو أن (هبة) اتصلت به عدة مرات... أجّل معاودة الاتصال بها ريثما يباشر اتصاله بالماضي الذي بدأ توًا.

تجول قليلاً داخل غرفته.. أخذ يعبث في أشيائه القديمة وهو مبتسم.. يفتح الأدراج ويغلقها.. يتأمل مجموعة من قصص الأطفال المسندة على رف فوق مكتبه..

يغمض عينيه..

كان حديث العهد بالقراءة..

هنا كانت تجلس أمه..

سعيدة.. مبتسمة...

تقرأ له وتحرك له إصبعه الصغير فوق الحروف لتساعده على القراءة...

يفتح أبوه الباب وينزعه من بين أحضان أمه ليدغدغه ويحضنه ويقبله... على رغم اعتراضها ونهرها لهما تظل أمه مبتسمة.. يفلته أبوه ليدغدغ أمه التي تركض من أمامه محذرة إياه من أن يفعلها ثانية..

فيفعلها ثانية..

وثالثة..

ورابعة..

يركض خلفهما حتى يسقطوا جميعًا على الأرض وسط ضحكاتهم.

تنهد (يوسف) في حزن ماسحًا دمعة نكثت وعدها بعدم السقوط..

هنا..

كان يعيش أناس سعداء!

تريث ثوان قبل أن يدير مقبض باب غرفة أمه وأبيه..

شعر بغباء لرغبته التلقائية في أن يطرق الباب قبل الدخول!

فتح الباب بحذر كأنما يخشى إيقاظ النائمين...

إنها الغرفة المحظورة التي طالما انتهك حرمتها في منتصف الليل، وهو بين اليقظة والنوم، يصعد بصعوبة للسرير الكبير.. يحفر نفقًا تحت الأغطية يصل منه إلى ذلك الحيز الضيق بين والديه.. يعمل مثابرًا على توسيعه حتى يجد لنفسه مكانًا بينهما.. يرفع ذراع أمه عن أبيه ليضعها عليه.. كانت تبتسم في أثناء نومها وتضمه أكثر لصدرها كأنها استوعبت ما حدث.. يكاد يراهما.. دومًا ينامان في نفس الاتجاه.. يمينًا أو يسارًا.. كلاهما في وضع الجنين.. أحدهما يحيط بذراعه الآخر.

الآن وقد تذكر كيف كانا تعاوده صدمة ما جرى..

كيف يمكن لشخصين مثلهما أن يفترقا؟!

وكيف ضحيا هكذا بمنتهى البساطة بسعادته؟!

بحث داخل كل الأدراج.. بين طيّات الملابس.. تحت السرير.. لا صور.. فقط ذكريات حية مخبأة على كل لون وشاكلة.. قصاصات ورق.. ورود مجففة.. سوار رسغ أزرق عليه اسمه

منذ ميلاده.. كل شيء.. ما عدا الصور!

بدأ يبحث في أرجاء الشقة حتى عثر داخل المكتبة على ألبوم صور..

أخيرًا!

لكنه جاء مخيبًا لتوقعاته.. لم يكن يحوي صورًا تقليدية.. وإنما صورًا «سونارية»..

قلب الصفحات.. كلها ورقات صغيرة سوداء يظهر من داخلها نقطة بيضاء.. تكبر وتكبر صفحة تلو الأخرى حتى تتحول بأعجوبة إلى شكل جنين.. هذا هو الرأس.. اليدان.. الأصابع..

هذا هو أنا! قبل أن أولد!

من الغريب أن تحتفظ أمه بصور «السونار» ولا تحتفظ بصور له بعد الولادة!

جلس يرتاح قليلاً من عناء البحث والتنقيب... أغمض عينيه.. يرى في مخيلته تفاصيل غرفة والديه..

خاطر غريب يطرأ بذهنه..

كان دومًا يكره الأثاث القديم ذا النقوش والتعرجات والمنحنيات.. يفضل كل ما هو حديث.. الأشكال الهندسية البسيطة.. اللون الموحد..

لكن.. لمَ تبدو له غرفة والديه ـ وهي من الطراز القديم ـ غاية في الجمال؟

تبدو..

حيّة..

بكل تفاصيلها وألوانها وديكوراتها.. لكنها تخالف ذوق العصر الحالي..

ترى.. هل بالغنا في بساطة الشكل فنزعنا من أشيائنا النكهة والطعم؟!..

يتذكر (هبة) وخلافهما حول أثاث شقتهما ما بين حداثته وتقليديتها.. لا يبدو حديثها الآن عاريًا تمامًا من الصحة!

لا تزال تفاصيل نقوش الغرفة ترسم نفسها داخل عينه المغلقة...

ربما هو الإرهاق..

لكن لحظة...

كأن نقشا محددا يتكرر...

تفصيل بعينه يصر على معاودة الظهور..

فتح عينيه ونهض فجأة مسرعًا إلى داخل الغرفة مرة أخرى..

نعم كان هناك..

فوق «التسريحة»...

صورته منعكسة على المرآة..

نقوشه مميزة جدًا..

صندوق..

صندوق خشب متوسط الحجم.. مرصع ببعض الصدف.. كما صندوق الكنز في الأفلام!
فتحه برفق وندت عنه آهة انتصار..

قصاصات ورق وبعض الكروت وأسطوانة مدمجة ودفتر مذكرات وقطع من الخزف المكسور..

وأخيرًا... صورا!

مررها بين إصبعيه يتفحصها.. كان مندمجًا للغاية في معايشة ماضيه فلم ينتبه للجلبة بالخارج..

بشكل عفوي رفع عينيه للمرآة...

كاد يسقط مغشيًّا عليه..

استدار نحوه..

لم يكن حلمًا أو وهمًا...

ها هي ملامحه تتضح للمرة الأولى..

(مصطفى نائل)..

والده..

يقف أمامه..

بلا حراك!

(٤)

٤ أكتوبر ٢٠٢٩

دخلت (سعيدة) إلى الغرفة بعد أن أذنت لها (أميرة) وهي ما تزال في سريرها..

ـ صباح الخير... هل أنتِ على ما يرام؟

تثاءبت (أميرة) وهي ترفع رأسها قليلاً لأعلى..

ـ آه.. نعم.. بخير.. كم الساعة الآن؟

ـ بعد العاشرة.. شعرت بالقلق حين لم تنزلي للإفطار مع أصدقائك..

ـ أصدقائي؟..

ـ نعم.. أعني.. أظن.. ألستم كذلك؟.. لقد مرّ عام تقريبًا..

ـ صغيرتي.. رتبة «صديق» لا ينالها أحد بالتقادم! قد يمضي لك عمر بأكمله من دون أن ينالها أحد من هؤلاء الذين تعتادين وجودهم في حياتك..

ـ صدقت..

تبدأ (أميرة) في النهوض.. فتهرع (سعيدة) لمساعدتها.. تحضر لها العكاز وتمشي خلفها حتى تصل للكرسي الموضوع بجانب النافذة الكبيرة، تلمس (سعيدة) الحائط فترتفع الستائر لأعلى. تضاء الغرفة بضوء الشمس الساطع ويمتد بصر (أميرة) إلى المساحات الخضراء أمامها. تناولها (سعيدة) فنجان القهوة.. فتبتسم لها شاكرة.

أصبحت (سعيدة) في وقت قصير خبيرة بكل طباعها.. وهي تتسلى بالحديث معها أكثر مما تفعل مع سائر النزلاء.. ربما لولا (سعيدة) وهذا المنظر الخلاب الذي تطل عليه غرفتها لما استطاعت الاستمرار في هذا المكان أسبوعًا واحدًا.

الغربة ليست غربة المكان فحسب.. إنما غربة الأشخاص أيضًا!

كأنها تقرأ ما يدور بخلدها، أسرعت (سعيدة) إلى الدرج لتحضر الكبسولة وتضعها في الأسطوانة لتبدد أجواء الغربة عن الغرفة..

«.....

مش عايزة كلام..

الحب كده

يا سعد اللي عرف مرة..

حنان الحب وقساوته

ويا قلبه اللي طول عمره..

ما داق الحب وحلاوته

تشوفه يضحك وفي

قلبه الأسى والنوح

عايش بلا روح وحيد..

والحب هو الروح

.....»

قاطع أزيز عال اندماجهما الصامت مع الأغنية..

التفتت (سعيدة) إلى رسغها ولمست الشاشة، واستمعت في صمت للصوت المعلن عن وجود زائر لمدام (أميرة). تهللت أسارير (أميرة) عندما سمعت الاسم..

صديقة عمرها (نور)..

المرأة مخلوق لا ينسجم مع الوحدة..

يلزمها حبيب تتزوجه..

وطفل تدلـله..

وصديقة تشكو لها كلاهما!

(نور) كانت وما زالت هي تلك الصديقة التي قاسمتها وشاركتها كل خلجات نفسها، حتى تلك التي قد تخجل منها.. لقد لعبت الدور الذي ترشحت له أختها الحقيقية (هدى) فرفضته.

أسرعت تحث (سعيدة) على معاونتها في ارتداء ملابس تليق باللقاء وتسريح شعرها لأعلى على شكل ذيل حصان.. وأخيرًا.. لم تنس بعض أحمر الخدود لتفتعل حيوية ما عادت موجودة، ورشة عطر علّها تبدد رائحة المرض والعَجَز.

لكم تعشق المرأة أن تنظر لنفسها في عيون البشر المجاملين، عن المرآة الصادقة الصماء!

دلفت (نور) إلى الغرفة بقامتها المفرودة وقوامها الممشوق على رغم أعوامها.. شعرها الأسود القصير يسلبها عدة أعوام من عيون الناظرين... ويترك نافذة مواربة كي لا تخطئ

ماستين لامعتين تزينان أذنيها... رائحة عطرها تصرخ أنه خارج نطاق قدرة «العاديين» على اشترائه.. ملابسها غربيّة الطابع.. بسيطة من دون زهد وأنيقة من دون تكلف.. بنطال «بيج» وقميص «لبني» ويحيط خصرها حزام رفيع من الجلد البني.

كل تلك التفاصيل دونتها عيون (سعيدة) في فضول.. الآن تستوعب سر اهتمام مدام (أميرة) المفاجئ بمظهرها. الغيرة والتباري بين النساء بهارات لا غنى عنها لإعطاء فطرتهن المذاق الأنثوي.. مهما كنَّ مقربات. تخطت (سعيدة) كل ذلك لتصل لأهم تفصيلة... يدها.. وبشكل أدق أصابعها.. وتحديدًا.. الخاتم المحيط بالبنصر الأيسر.. لمعت الماسة في إصبعها فجأة كأنما ترد على تساؤل (سعيدة).. لا.. ليست متزوجة.. وهذا مجرد خاتم عادي.. من الماس!

كم مرّ من الوقت والسيدتان تحتضنان بعضهما في شوق.. لا تدري (سعيدة).. لكنها شعرت ببعض الحرج.. تريد تركهما ولا يريد فضولها إفلاتها...

ما هو كنه ذلك الرابط غير المرئي بين امرأتين، القادر على جعلهما تقفزان فوق سياج العداء الفطري بين الإناث، فتصبحان صديقتين حقًا؟!..

ليس نفاقًا أو مجاملة ما كانت تراه...

راقبتهما وهما تقطعان السلام المطول بابتعاد قريب، تنظران فيه لبعضهما في حديث خفيّ لم تقرأ منه شيئًا، ثم تحتضنان بعضهما مرة أخرى..

وأخيرًا جدًا.. تذكرت (أميرة) وجود (سعيدة) فرمقتها بابتسامة مشيرة إلى (نور)..

ـ (سعيدة).. تلك هي (نور).... صديقتي... هل أطمع في فنجاني قهوة لنا؟.... **(وجهت حديثها لـ(نور))**.. ما زالت قهوتك بلا سكر؟

ـ كما كانت دومًا... شكرًا يا (سعيدة)..

تنصرف (سعيدة) تاركة إياهما على غير رغبتها. تجلس (نور) بجوار صديقتها ولمعة حنين في عينيها تستهل حديثها..

ـ (أميرة)! أوحشتني!.. أين أنت؟

ـ أنا ما زلت عند نفس مفترق الطريق الذي تركتني عنده.. كما أنا.. وأنتِ؟.. أين أنتِ؟

ـ أنا سلكت الطريق الذي اختارته الأقدار لي وسأمشيه للنهاية..

ـ الأقدار؟؟ حسب ما أذكر كان اختيار... اختيارك..

ـ الاختيار يستلزم المفاضلة بين شيئين في يدك بالفعل.. أما مسايرة القدر في ما لم يمنح لك أصلاً.. ليس اختيارًا..

ليس اختيارًا على الإطلاق!

لكننا نوهم أنفسنا والآخرين بذلك أحيانًا، هربًا من ضعفنا..

ـ وماذا يعني ذلك؟.. النتيجة؟؟ هل أنت سعيدة.. أم لا؟

ـ **(تضحك)**.. والسعادة أيضًا ليست نتيجة نهائية يا (أميرة).. السعادة شيء متقلب يأتي في صور شتى..

هي أحيانًا حالة مزاجية لا سبب لها.. أو وضع مثالي يرضي توقعاتنا من الحياة.. أو انغماس في ما يمنحك بهجة تستنزف أي طاقة للحزن..

وفي حالتي أنا.. السعادة.. اختيار..

ـ تناقضين نفسك كالعادة! كيف تكون اختيارًا وهي ليست في يدك!؟

ـ نعم... كل إنسان لديه في يد ما قد يجعله يستشعر السعادة، ولديه أيضًا في اليد الأخرى ما يتعسه.. بيدك أن تختاري أي اليدين تبقى أمام ناظريك، وأيهما تخفيه في جيبك..

ـ **(تطيل النظر إلى داخل أعماق عيني (نور))**... لا.. ليس صحيحًا.. ليست السعادة اختيارًا أبدًا..

هناك من يوهمون أنفسهم بذلك.. يريدون بشدة أن يصدقوا أنهم سعداء.. يكذبون على أنفسهم..

وأحيانًا.. يصدقون الكذبة!

السعادة عابر سبيل.. لا يأتي بدعوة.. ليس بأيدينا أن نستبقيه داخل قلوبنا.. لكن يمكننا ألا نحسن استقباله أو نطرده خارجًا!..

وأنتِ يا (نور).. لست سعيدة..

وأنتِ تعلمين ذلك.. لكنك تكابرين..

كل ما حققته في الحياة.. عملك.. نجاحك.. أموالك.. لا يمكنها أن تعوضك عن حلمك..

حلمنا..

أن نجد الحب!

ـ لا يا (أميرة).. لم أحلم قط أن أجد الحب... حلمت أن يجدني هو! ولم يفعل.. فمنحت نفسي سعادة من نوع آخر ليست عوضًا عن شيء.. ولا بديلاً لسعادة الحب.. لكنها تبقيني في أوقات كثيرة.. سعيدة... **(ثم ضحكت)**.. رغم أنفك!

ـ **(تضحك بدورها)** هل جئت تزورينني بعد كل تلك المدة لتغيظيني! ألا تتفقين معي في رأي أبدًا!؟ حتى من باب مجاملة صديقتك المريضة؟!

ـ **(تبتسم)**.. لا.. ولو وافقتك ما صرنا صديقتين.. أنا وجهك الآخر.. عقلك الذي يحاورك... مرآتك التي قد تظهر ما لا تحبينه لكنك تثقين بها لأنها صادقة معك..

ـ حسنًا يا «عقلي».. أما آن لك أن تصمت بعد؟ لأني تعبت!

ـ حقًا.. التفكير كثيرًا سيفسد عليك حتمًا أي فرصة للسعادة... في ذلك أتفق معك..!

ـ وأخيرًا!!! يجب أن نسجل تلك اللحظة التاريخية! **(تضحك)**

ـ أتعلمين يا (أميرة)؟.. أحيانًا أتعجب منك.. وأحيانًا يعجبني إيمانك الشديد بالحب.. أبعد كل ما حدث لك.. ما زلت تتحدثين بهذا الحماس عن السعادة في الحب؟!.. أين أنتِ منها إذن؟

ـ **(تبتسم في مرارة)**.. أنا لا أدّعي السعادة يا (نور).. ولا حتى تقبل ما حدث لي.. وربما نكون بشكل أو آخر قد وصلنا لنفس النقطة.. الوحدة.. على رغم أن لي ابنًا.. و..

ألجمت (أميرة) بصمتها دمعة تهدد بالانفلات.. فأكملت لها (نور) جملتها..

ـ وزوج!.. وزوج يا (أميرة).. يا الله!.. كل تلك السنوات.. ولا يزال الألم طازجًا! ما زلت تدمعين كلما أتت سيرته!..

ـ أن تعيش حلمك لبرهة، خير من أن تظل عمرًا تراه كسراب في الأفق.. مهما بلغ الألم يا (نور)..

لست نادمة على ما اخترت ولا حاقدة على ما لم أختر..

ترمقها (نور) بكثير من الشك..

ـ أشك يا (أميرة).. أنت تظنين أني أكذب لادعائي السعادة.. وأنا كذلك أعتقد أنك تكذبين.. أنت نادمة.. وربما حاقدة أيضًا.. والأكثر.. هو تخيلك أن كل ما حدث لم يكن لكِ يد فيه.. بيد أنه يا (أميرة).. كان اختيارك..

فتحت (أميرة) فاهها تريد الحديث، لكنها لم تجد ما تقوله.. علامات الصدمة على وجهها.. تعودت صراحة صديقتها لكنها لا تزال تشعر بطعن الكلمات حين تأتي بهذا الوضوح.. وبخاصة..

حين تغلب شكوكها يقينها.

(نور) أيضًا صمتت وأطرقت رأسها في الأرض هربًا من تعبير الألم المرسوم على وجه صديقتها...

مثل كل مرة...

كلما نطقت ما تظنه الحقيقة..

تندم..

ليس للحقيقة عدة وجوه فقط لكن عدة أيادٍ أيضًا..

تصفع.. وتجرح.. وتطعن.. وتداوي.

غيرت (نور) دفة الحديث هربًا من الذكريات المؤلمة..

ـ آه.. كدت تنسيني السبب الأهم لزيارتي..

ـ ماذا؟!!!.. **(ترسم علامات صدمة مفتعلة)**.. أتعني أنك لست هنا لأنك افتقدت أعظم صديقة لك.. وربما الوحيدة القادرة على تحملك؟! أنا جد مصدومة!

ـ **(تضحك بشدة)** كفاك تهريجًا.. لن تصدقي من حدثني!.. لا أعلم حتى من أين حصل على رقمي.. احزري!

ـ من؟ عريس جديد لك؟ ألف ألف مبروك..

ـ بل شخص من ماضيك.. يريد زيارتك..

توقفت (أميرة) عن العبث وقطبت حاجبيها..

ـ أنا؟!.. من الماضي؟.. يريد زيارتي؟!!

ـ كفّي عن ترديد كلماتي كالبلهاء.. هل تذكرين... «كامل»..؟

ـ (كامل) من؟

ـ لا تدعي الغباء معي يا (أميرة).. تعرفين تمامًا عن أي (كامل) أتحدث!

ـ (نور).. هل أنت في كامل وعيك؟؟.. (كامل)؟! متأكدة؟

ـ تمامًا عزيزتي.. يقول إن أخبارك قطعت منذ فترة طويلة وأراد الاطمئنان عليك.. أخبرته أنك بخير وتعيشين هنا الآن منذ سفر (يوسف) فطلب أن أستأذنك كي يأتي لزيارتك..

ماذا؟!.. ما تلك النظرة؟!.. **(تضحك بتوتر)** تبدين كما لو كنت مراهقة تتلقى خبرًا عن صديقها! وليس امرأة في الخمسينات!

ـ جيد أنك ما زلت تذكرين عمري! وتذكرين أيضًا أن لي ولدا تخطى مراهقته منذ سنوات وصار رجلاً! أجننت يا امرأة!؟ كيف تخبرينه بمكاني! وكل أخباري هكذا ببساطة!! وماذا

يريد هو من زيارتي؟؟!! العجوز الخرف!

ـ اهدئي يا (أميرة).. لم يحدث شيء.. والرجل طلب موافقتك قبل أن يسمح لنفسه بالزيارة.. إذا عاود الاتصال سأخبره أنك لا ترغبين في الزيارة الآن.. **(تبتسم بخبث)**.. ولو أني أعتقد أنه لا ضرر من زيارته.. والرجل لم يتزوج حتى الآن.. ربما لديه عرض.. و..

تناولت (أميرة) الوسادة من جانبها بيد واحدة بصعوبة وحاولت إلقاءها صوب (نور) التي أخذت تضحك.

ـ الآن اطمأننت عليك.. ما زلت كما كنت.. فقط أبدلت الفنجان بوسادة.. حُكم العمر..

ـ **(تبتسم في حزن)** نعم أتذكرين؟

تحسست (نور) ندبة خفيفة تكاد لا ترى أعلى جبهتها..

ـ حين أحاول النسيان، تذكرني تلك الندبة من جراء فنجان القهوة الذي أصابني فداء أختك..

ـ حقًا.. أنا آسفة.. لكن هذه المرة الحق عليك! يجب عليك ممارسة الصمت أحيانًا.. رياضة مفيدة!

ـ حسنًا إذن.. **(تغمز بعينها)**.. ألا تودين إعادة التفكير في الأمر؟ قد يكون عرضًا رومانسيًّا بعد كل تلك السنوات..

ـ إذا كان يهمك أمره لتلك الدرجة فلتتزوجيه أنت!

يغيم وجه (نور) لثوانٍ ثم لا تلبث أن تبتسم وتهز كتفاها في لا مبالة وتنهض استعدادًا للرحيل مجيبة..

ـ لا شكرًا.. أنا أعشق وحدتي وحريتي..

ـ كاذبة..

ـ واهمة!

تضحكان داخل عناقهما على وعد بلقاء قريب، واستمرار التواصل عبر الأثير..

ينغلق الباب خلف (نور) بينما تخفُت ابتسامتها تدريجيًا حتى تختفي..

تقطب حاجبيها للحظة مفكرة..

دائمًا أربح كل معاركي الكلامية..

منطقي صلب.. ومقنع.. لكن..

تبًا!.. لماذا أشعر دائمًا في نهايتها أني ما خرجت منتصرة؟! أستنفد طاقتي في إقناع من أحاور بوجهة نظري فأقنعه وأخرج أنا أقل اقتناعًا به! أأكون غير سعيدة فعلاً؟! ما بال هذا الشعور الكئيب الذي يجثم على صدري إذن؟..

ألقت نظرة أخيرة على الباب المغلق..

هزت رأسها ثم عاودت الابتسام مرة أخرى بينما ترتدي نظارتها الشمسية الفخمة.

في الداخل...

جلست (أميرة) تستعيد حوارها مع (نور)..

كلامها صحيح.. نعم.. صحيح.. ربما هي واهمة فعلاً.. ربما السعادة مجرد زي تنكريّ للألم الذي يطرق أبوابنا بحثًا عن سنوات العمر..

لكن..

لماذا يبدو شيء ما غير صحيح؟.. القطعة الأخيرة من الأحجية دومًا في غير مكانها والصورة لا تكتمل أبدًا.. ترن في أذنيها ضحكات صديقتها وتتراءى لها ابتسامتها الغامضة.. على رغم أن الموسيقى توقفت منذ وقت طويل.. تدور داخل عقلها تلك الكلمات..

«.....

تشوفه يضحك وفي

قلبه الأسى والنوح

عايش بلا روح وحيد..

والحب هو الروح

.....»

فجأة قفز داخل ذهنها ما بدد كل شيء..

صورة لشاب وسيم... عيناه العسليتان.. عظام فكه الذكورية وذقنه الخفيفة.. طويل ذو بنيان رياضي.. كتفان عريضتان... وساعدان قويان يكشف عنهما أكمام قميص مثنية إلى أعلى صيفًا وشتاءً... تفاصيل طالما ألفتها في إعجاب... هكذا كان يبدو في عشرينياته..

لم يخطر ببالها أنه الآن لا بد قد تغيرت هيئته مثلما تغيرت هي.. كل ما كانت تراه هو ذاك الشاب الوسيم..

يبتسم نصف ابتسامة..

تضيق عيناه في غموض وجاذبية..

يتهادى نحوها..

تنتابها رعشة خوف من انجذابها نحوه..

ثمة شيء داخلها يوعز لها أنها تريد أن تراه..

يقاومه شعور مبهم بالخطر وضرورة الابتعاد والهرب..

تظل تتساءل..

ماذا تريد؟.. ماذا تريد يا (كامل)؟!..

(٥)

٢٣ إبريل ٢٠٣٣

ابتسم من القلب بينما أخذت رائحة الخزامي تداعب كل حواسه..

انبعث بداخله شعور بالطمأنينة والبهجة لا يعرف مصدرهما..

لحن مميز في الخلفية يعرفه جيدًا...

صوت يشبه النداء... والنداء له..

يحاول أن يتبين مصدر الصوت..

يمد يده في الهواء يتلمس طريقه وسط الضباب...

النداء يتكرر ويعلو.. «إنت عمري..»... «إنت عمري...»...

فجأة يشعر بملمس الخد الناعم تحت يده.. تتسع ابتسامته بينما تنساب الدموع على وجنتيه.. تتحرك أنامله فوق وجهها الذي يحفظه عن ظهر قلب.. وما أن يلمس الجفون حتى يراها.. العيون البنية الواسعة تحدق به.. تريد شيئًا منه.. لكنه لا يعلم ما هو..

حاول احتضانها لكن الضباب حال بينهما مرة أخرى...

وجهها يبعد..

كجنية أسطورية تغوص داخل الضباب وعيناها صوبه...

تناديه...

تطلب منه أن يتبعها ويحاول هو اللحاق بها لكن عبثًا..

كأن ساقيه قد تحولتا لجذع شجرة راسخة في الأرض..

يتبدد الشعور بالطمأنينة.. يشعر كأن قلبه قد تحول إلى حجر يسقط في هوة عميقة ويأخذه معه.. فيسقط..

ويستمر السقوط...

ويستمر... و

استيقظ (مصطفى) من نومه المضطرب الذي لازمه سنوات طويلة.. حدق في الوسادة الخالية بجواره.. حاول أن يرى بقايا من ملامحها التي فارقها في الحلم توًا لكنه عجز. دفن رأسه في وسادته واستنشق رائحة الخزامي ـ عطرها المفضل ـ التي أبت مغادرة مسام الملاءات والشراشف رغم أنف الزمن.

الزمن!..

وخزة آلمته في صدره وهو يتأمل ملامح وجهه في المرآة..

ما كان يدرك أن ثمة حقيقة خلف تعبير «غدر الزمن» إلا الآن.. هو يتأمل الأخاديد والشيب اللذين يعيثان فسادًا على وجهه كأنه يراهما للمرة الأولى.

وجه آخر يطالعه في المرآة كأنما يقف خلفه..

يتطلع إليه في ذهول ممتزج بالغضب...

يشبه وجهه الشاب كثيرًا.. لكنه ليس هو.. هو ولده.. ابنه الوحيد... ذاك الذي استحلف صديقه «الزمن» في ما مضى أن يعيده إليه.. أن يقوم بواجبه في مداواة الجروح ونسيان

الألم فيعود إليه من أحبهم.. ومن فقد بفقدانهم هويته. لكن «الزمن» صار عدوه وحكم عليه بغربة أبدية...

لم يداو..

لم يسكن الألم..

وحين زرع النسيان..

أخطأ الأرض..

فأنبت النسيان في الشوق بديلاً عن الألم!

ما تزال نظرات (يوسف) ترمقه بنفس الغضب حين ودعه آخر مرة وهو طفل.. ظل وجه وحيده الباكي الغاضب يطارده خلال سنوات غربته ويقض عليه مضجعه... لم يتغير هذا الوجه خلال السنوات.. لم يكبر... لم يهدأ.. ولم يلن بنظرة حب أو تفهم.

هل كان كل شيء خطأه فعلاً؟

في وحدته دومًا تطارده كل الأحداث وكل الذكريات.. يظل يهرب منها ليكتشف في النهاية أنه عاد للبداية.. أن طريقه قد صار دائرة تبدأ وتنتهي عند نفس السؤال..

هل كان كل شيء خطأه فعلاً؟

انتفض للوراء إثر محاولته توصيل جهاز القهوة العتيق بالكهرباء! تذكر أنه على هذه الحال منذ ابتاعه.. ليس هذا فقط ما تذكره...

الآن يطالعه انعكاس وجهها على سطح الجهاز «الاستانلس»... عيناها الواسعتان تضحكان وتتسعان أكثر فأكثر.. تقفز.. وتصفق بيديها كالأطفال.. ثم تحيط بذراعيها عنقه.. ماكينة

القهوة كانت مفاجأته لها.. هدية عيد زواجهما الـ... لا يذكر.. لكنه يذكر يوم صعقتها الكهرباء فجرى نحوها واحتضنها من الخلف.. استدارت تبتسم في خبث طفولي قائلة:

ـ ستنالك الكهرباء...

رفع يدها إلى فمه مقبلاً باطنها في رقة..

ـ قد حدث...

تنهدت..

ـ أو لعلك أهديتني إياها لتقتلني!

قال في همس..

ـ سأقتلك بالفعل إن لم تصمتي..

ـ آ..

لم تكمل ما كانت على وشك قوله لأنه أطبق بشفاهه على شفاهها في قبلة محمومة لا تشي بعمر زيجتهما.

الآن يشعر بتلك القبلة كأنها تحدث فترتجف شفاهه.. جفناه المسدلان في نشوة يستوعبان ما يحدث فينفتحان فجأة..

أشاح بوجهه عن الجهاز متمتمًا لنفسه في غضب..

ـ هذا البيت مليء بالأشباح!

تذكر أيضًا..

أنه لم يكن يحب القهوة!

لكن ثمة أمرًا هامًا كان يعتزم فعله اليوم قبل أن تداهمه ذكرياته.. ما هو يا ترى؟.. خرج إلى غرفة المعيشة محاولاً التذكر.. باب الشقة في مواجهته.. يرفع يده فإذا بها تمسك بسلسلة مفاتيحه.. نصف قلب نقشت عليه كلمة واحدة...

«.. بيتنا»..

تذكر الآن!

نعم.. بيتنا!

ليس صائبًا أن يظل (يوسف) بعيدًا عنه بعد الآن.. هذا هو بيته.. ومجيئه لم يكن سوى علامة.. لا بد من أن يسامحه... لا بد..

سيذهب إليه.

يجب أن يعلن الحرب على «الزمن» الذي غدر به... تلك هي معركته الأخيرة.. وسوف ينتصر..

حتمًا!..

* * *

لم يستطع (يوسف) النوم منذ ذلك اليوم...

ملامح والده التي قد طمسها عقله عمدًا كي لا يشتاقها ولا يشتاقه قد تشكلت من جديد...

تلك المرة الوجه عجوز نحيل.. يرغمه على تعاطف هو لا يريد أن يشعر به.. لكنه كلما أغمض عينيه وحاول نسيان تلك الملامح تاركًا موجة دمع تمحوها من فوق شاطئ ذاكرته

عاودت التشكل مرة أخرى.. أعمق وأوضح!

أمسك بالصندوق الخشبي القديم متأملاً نقوشه التي تثير بداخله الخوف...

لكأنها شفرة من عالم آخر..

أو لعنة ما..

ترفض أن تطلق سراحه..

كلما حاول البعد عن الصندوق ونسيان ما مر به الأيام القليلة الماضية، أعادته...

يظل النقش يرسم نفسه مرارًا وتكرارًا في مخيلته ويومض كالضوء..

في تردد، فتحه مرة أخرى..

مستعيدًا أسطورة صندوق «باندورا».. تساءل في نفسه..

هل يخرج الآن كل شرور البشر؟

أم أنه سيجد بداخله الأمل الذي ظل حبيس هذا الصندوق طيلة السنوات الماضية؟

أيًّا ما كان.. فتحه هو السبيل الوحيد ليوقف هذا الهذيان.. فحين يفتح الصندوق.. ينتهي الجنون.. ويبدأ كل شيء آخر!

فتح الصندوق أخيرًا فداهمته رائحة يألفها جيدًا!

الخزامي..

شعر بتوتره يزول تدريجيًا وموجة حنين تجتاحه.. نسمة هواء عبرت على وجهه فابتسم وشرع يفض محتويات الصندوق..

بدأ بالأسطوانة المدمجة... على رغم توقف إنتاجها منذ عدة سنوات، كان واثقًا من العثور على مشغل لهذا النوع في بيت جده العتيق... فض الشريط الأحمر المعقود كفراشة حول الأسطوانة... أخذ يقلب الجهاز الرمادي يمينًا ويسارًا باحثًا عن كيفية تشغيله.. وأخيرًا ضغط الزر الصغير، فاندفعت صينية صغيرة مفرغة من المنتصف..

ابتسم...

كان شكلها يحمل بعضًا من ملامح طفولته.. كم ينسى الإنسان سريعًا ما اعتاده وهو طفل!

في رفق وضع الأسطوانة ودفع بها إلى الداخل... دقيقة صمت يشوبها صوت الجهاز كأنه آلة زمن تعيده للماضي.. ثم انسابت الأنغام..

«أمل حياتى.. يا حب غالي ما ينتهيش

يا أحلى غنوة سمعها قلبي ولا تتنسيش

خد عمري كله بس النهارده خليني اعيش

خليني جنبك فى حضن قلبك

وسيبني أحلم سيبني يا ريت زماني ما يصحينيش

.....»

حسنًا.. لم تكن مفاجأة أن يسمع صوت «السِّت» وهو يعلم شغف أمه بها..

لكن الغريب في الأمر أنه لأول مرة.. كان ينصت لما تقول!..

لماذا يشعر أن أمه هي التي تتحدث؟..

«أمل حياتي».. هل تقصده؟

أم تراها تتحدث عن أبيه؟

«أمل حياتى ... عينيه.. يا أغلى منّى عليّه

.....

يا حبيب امبارح وحبيب دلوقتِ

ياحبيبى لبكره ولآخر وقتى

.....»

فكرة أخرى عبرت في ذهنه.. أن تعني شخصا آخر! لكنه طردها سريعًا...

على الرغم من فراق أمه وأبيه، لم يكن مستعدًا بعد لتدنيس قصة حبهما، التي يثق أنه شهد بعض أحداثها في سنوات عمره الأولى..

الذاكرة قد تمحو العديد من الأشياء من طفولتنا..

لكنها لا تمحو أبدًا طعم لحظات السعادة الصادقة..

وهو يعي من تلك الفترة القصيرة أنه كان ثمرة حب.. وذاك إحساس لا يخطئه أي طفل!

ترك الأغنية تنساب في الخلفية وعاد للصندوق متسائلاً.. هل تحوي أملاً حقًا؟! أم خيبة أمل؟

شريط أحمر آخر فضه.. هذه المرة من حول مجموعة بطاقات وأوراق ملونة... ما أن شرع في قراءتها حتى شعر بوخزة ألم بين ضلوعه.. تسارعت أنفاسه.. وشعر بصدره يضيق

الخناق على أنفاسه... ابتسامة متألمة علت وجهه.. لم تكن تلك البطاقات إلا عبارات عشق بين أمه وأبيه، بعضها يبدو أنهما تبادلاه في مناسبة ما، والآخر بلا سبب واضح. لفت نظره في أحدها اسمه!..

«حبيبي الوحيد.. حسنًا ليس تمامًا.. أخشى أن أخبرك أن رجلاً آخر قد اقتحم حياتي.. لا تغضب.. ما اسمه؟.. أعتقد سيكون (يوسف) كما جاءك في الحلم... سنستقبله بعد سبعة أشهر في بيتنا... نعم.. سيكون ولدًا أنا واثقة.. وسيكون شبهك شكلاً وشبهي طباعًا.. سيحمل بعضًا مني ومنك وسنعيش أطول من أعمارنا بداخله.. حبيبي الأول القاطن بفؤادي.. ستصبح أبًا لحبيبي الثاني الرابض في رحمي..»

شتان بين أن تتألم لحزن..

وأن تتألم من فرط سعادتك..

فمعاناة الأخيرة أشد وطأة.. وما شعر به (يوسف) الآن كان مزيجًا من الألمين!

مرر البطاقات والأوراق الملونة كأوراق «الكوتشينة».. قرأ أغلبها.. لكن عينيه كانتا تقفزان فوق الكلام، تريدان الهرب من مشاعر تجلده بسؤال واحد...

كيف؟!

كيف ماتت؟!

بل كيف تموت مشاعر تبعث بالحياة لأوراق فتحدثه عن سر هواها..

يكاد يرى نظرة أمه الممتلئة حبًا وهي تكتب تلك العبارات، ويكاد يشعر بخفقان قلب أبيه وهو يقرأها..

في رفق.. كأنما يخشى إزعاج أرواح العاشقين اللذين سكنا تلك الحروف.. أعاد ربط البطاقات والأوراق إلا واحدة.. ورقة وردية.. كانت بخط أمه.. أعاد قراءتها..

«حين تلتقي عيونك برسالتي تلك.. سأكون بعيدة جدًا وقريبة جدًا.. أعدها حيث وجدتها.. تجدني على بعد خفقة شوق من قلبك..»

أعاد تطبيق الورقة لمربع صغير كما كانت.. وضعها من دون تفكير داخل جيب قميصه.

أخرج الصور يتفحصها.. خمس صور.. خمس صور فقط! كيف يستطيع إنسان أن يختزل حياة كاملة في خمس صور لا غير!... تذكر وجه أمه الحزين دومًا ففكر.. ربما كانت تلك اللحظات الوحيدة التي عاشتها سعيدة... خمس لحظات من السعادة... خمس لحظات ربما تمنت أن يتوقف عندها الزمن..

ولأن الزمن قطار لا يعرف إلا محطة واحدة.. النهاية.. رضت بظل اللحظة ملقى على مستطيل صغير!

أخذ يقلب الصور الخمس محاولاً أن يفرغ من داخل شخوصها وملامحهم عنوانا لكل صورة.. عله يخبره بسر احتفاظ أمه بتلك اللحظات بالذات.

الصورة الأولى لأمه مع خالته.. طفلتان بعد.. دُهش لرؤية خالته على هذه الحال.. طفلة! عندما نبغض أشخاصًا نختار ألّا نرى داخلهم جانبًا آخر.. جيدًا.. صادقًا... بريئًا! المشاعر الأحادية أبسط دومًا وأسهل من المركبة.. أن تكره من عاملوك بقسوة أسهل بكثير من أن تكرههم تصرفًا وتتعاطف معهم شخوصًا. كانت (هدى) خالته في الصورة تحتضن أمه بقوة وتطبع قبلة على خدها.. ملامح وجه أمه تظهر أنها متألمة من فرط الضغط.. لكنها مستسلمة تماما لسيطرة أختها الكبرى، التي كانت تنظر بطرف عينيها إلى العدسة المصورة.. نصف نظرة من نشوة نصر. أبعد الصورة قليلاً للوراء.. من بعيد تبدو كعناق أخوي طفولي كله حب.. من قريب.. كاد يقول «كذبة» لكنه تردد..

هل يمكن للأطفال أيضًا اصطناع مشاعرهم؟؟..

حسنًا..

أسماها «غيرة» وانتقل للصورة التالية والتي نقلته لموجة مختلفة تمامًا من الأحاسيس والمشاعر.. ندت عنه آهة دهشة رافعًا حاجبيه مبتسمًا.. «طنط نور..!؟.. معقول؟».. كانت صورة مدرسية تقف فيها (نور) بجوار (أميرة)..

فتاتان في عمر المراهنة...

المراهنة على أن الحياة لا شك جميلة!

والرهان عمراهما!

بضع سنوات وتنكشف خسارتهن..

كل المراهقين مراهنون.. وكل الكبار خاسرون!..

كانتا ممسكتين بأيدي إحداهما الأخرى.. مستعدتان لخوض الرهان معًا.. عيونهما تنظر لملتقط الصورة لكن نظرتيهما تلتقيان بشكل ما غير مرئي.. تلتقيان فتتعاهدان.. لا تستطيع تحديد كنه هذا العهد لكن الأكيد أنه مذيل بكلمة «للأبد».. هكذا أسمى تلك الصورة!

ازدادت ابتسامته اتساعًا وهو يتأمل الصورة التالية.. صورة زفاف أمه وأبيه.. لم تكن صورة تقليدية بلهاء لوضعية معلبة يحفظها مصورو ذاك الوقت.. لم تكن يد أبيه على خصر أمه ولا ذراعاها على كتفيه ولا عيناهما مثبتتان بالأمر على وجه الآخر وابتسامة مرتبكة تفضح عدم إدراكهما لما يفعلان..

لم تكن أيًّا من ذلك..

كانا جالسين في حضن بعضهما... وجه أبيه مسترخ هادئ مبتسم.. جفونه مسدلة كأنما هو في سبات عميق، ولربما كان كذلك بالفعل! رأسه ينام في راحة على صدر (أميرة) التي تظهر في فستانها الأبيض البسيط للغاية كأنه زيّ راقصة باليه.. شعرها البني الناعم مرفوع لأعلى يزينه «تيارا» من الورود البيضاء الصغيرة.. كأنها جنية من حكايات الأطفال.. تحتضن (مصطفى) بيد وتلقي بالأخرى على صدره...

كانا يحتميان ببعضهما..

ميناء وسفينة..

غير أنه لم يكن من الممكن تحديد أيهما هذا وأيهما ذاك.

لم يستطع (يوسف) أن يحدد عنوان تلك المرة... فقط ولدت دمعة جديدة في مقلتيه، وأدها في مهدها وهو يطالع بابتسامة متهكمة الصورة الرابعة... تأمل البطن المتكور.. «ها أنا ذا أخيرًا!».. أبوه ليس في الصورة.. غائب كما اعتاده أن يكون منذ أمد بعيد.. أمه يبدو عليها التعب أكثر من السعادة.. ابتسامتها حزينة وعيناها منكسرتان لا أثر للأمل فيهما...

«نحس»!...

هو الاسم الذي جال بخاطره يرافقه سؤال اعتاد أن يزوره في الماضي..

أتراه المذنب في حق أبويه من دون أن يدري؟

هل كان شؤمًا على حبهما لبعض؟ أم العكس؟..

في لحظة وضحاها انبعث غضبه القديم الذي ظن أنه ودعه لقبره، حيث يرقد في سلام منذ سنوات..

تذكر صوره «السونارية»..

صورته تلك وهو بعد تلك الكرة الملتصقة بأمه..

كيف اهتموا به قبل أن يوجد ثم أغفلوا وجوده الحقيقي؟

من الظالم؟ من المظلوم؟؟

فجأة..

توقف كل شيء.. عند الصورة الخامسة..

تلاشت الصورة الملائكية لأمه التي رآها منذ قليل.. تلاشت ابتسامته نهائيًا.. اهتز كائن الغضب بداخله مبعثرًا قناعاته القديمة.. ارتعش من دون إرادة منه وهو يتفحص وجه أمه الهائم بوجه ذاك الرجل الغريب المألوف نوعًا ما.. كلمة واحدة أخذت تدق في عنف داخل رأسه.. فتثير جنون كائن الغضب أكثر فأكثر..

كلمة واحدة يمكنها أن تعبر عن تلك الصورة..

«خيانة»!!..

(٦)

١٠ أكتوبر ٢٠٢٩

سرت رعشة خفيفة في جسد (سعيدة) وهي تطالع ذاك الخمسينيّ ذا القميص المثنيّ لأعلى كاشفًا عن ساعدين كانا قويين يومًا ما..

ابتسم لها بعينيه العسليتين مدركًا أن صلاحية تأثيره على النساء ممتدة إلى الآن..

ـ بعد إذنك.. غرفة (أميرة).. مدام (أميرة نبيل).. أنا.. (كامل)

ابتسمت (سعيدة) في خجل وهي تفكر في نفسها.. بالطبع أنت (كامل)! رجل بمظهرك يجب أن يكون كذلك!

ـ دقيقة واحدة.. تفضل بالجلوس..

ابتسم متجاهلاً دعوتها للجلوس والتفت نحو باقة الورود الحمراء في يده يتفقد نضارتها.. تسللت نظراته إلى أصابعه المرتعشة الممسكة بباقة الورد.. تلك الطبقة الخشنة والمهترئة من الجلد.. تلك الورود الناعمة البضة... لا يليقان ببعضهما!

نفس ما قالته له (أميرة) ذات يوم..

«أنا وأنت... نشبه قطعتي ملابس غاية في الجمال والأناقة... لكن كليهما منقوش.. لا يليقان ببعضهما»..

قطعت (سعيدة) عليه الطريق لذكرياته وهي تشير له أن يتبعها:

ـ تفضل.. من هنا..

قبض على باقة الورد بشدة وحزم كما لو كان يأمر الرعشات بالتوقف من فورها!

لكنها أبت..

فأرخى قبضة يده مستسلمًا وتهدلت كتفاه تلقائيًا..

وضعت (سعيدة) إبهامها على الشكل البيضاوي أعلى رقم الغرفة فبدأ الباب في الانزلاق.. ببطء شديد.. بدا لـ(كامل) كما لو أنه دهر بأكمله.. في ما مضى كان يلقبون زمانه بـ«عصر السرعة»..

فكيف ـ إذا عشت عصرًا بعده ـ صارت الأمور أكثر تعقيدًا وبطئًا؟!.

مع انزلاق الباب تسربت كلمات «السّت» لأذنه...

«...

يـــا ظالمنـــي...

حرام تهجــر وتتجنـــى وتنسى كل ما جرى لـــي

وأقضــي العمــر أتمنــى يصادف يوم وتصفالــي

صبرت سنين على صــدك وأسيت الضنى ف بعــدك

عشان تعطف علي يـوم

وتهجرني وتنســـي وتتركنــي لأشجانـــي

ولما أشكي تخاصمنـــي وتغضب لما أقول لك يوم

.....»

أنهى كلمات الأغنية لحظة دلوفه وهو ينظر في عينيّ (أميرة) مباشرة: يا ظالمني!

ردت (أميرة) بابتسامة خجلى أرفقتها مع نظرة لوم وعتاب، وهي تشير بطرف عينيها إلى (سعيدة) التي لا تزال تقف عند باب الغرفة.

تنحنحت (سعيدة) وهي تستشعر حرج لوجودها، وفي نفس الوقت ترغب لو ينساها الجميع الآن لتراقب كيف تعمل آلة الزمن التي عادت بامرأة مريضة ورجل عجوز وسيم، سنوات للوراء، فيبدوان كمراهقين في موعدهما الأول... بادرتهما:

ـ هل أحضر قهوة..؟

ـ بلى.. واحدة فقط لي.. لكن (كامل) إن كانت ذاكرتي ما زالت على قيد الحياة، لم يشرب فنجان قهوة واحد في حياته.. ألا ترين كيف يحافظ على صحته؟.. **(ابتسمت متهكمة وهي تلكزه في قدمه بعصاها)**.. أحضري له... **(وجهت سؤالها له)**.. ماذا تشرب الآن يا (كامل)؟ لا أعتقد أن لديهم مزيج الخيار بالكرفس هنا..

ـ تغير فيك الكثير إلا لسانك!.. ما زال حادًا كما هو! **(ابتسم هو الآخر في تهكم ثم وجه كلامه لـ(سعيدة))**.. حسنًا أحضري لي كوب ماء فقط يا جميلة..

كادت (سعيدة) أن تصحح له اسمها، لكنها أدركت في اللحظة الأخيرة أن «جميلة» كانت من قبيل الغزل.. فارتبكت وغممت بكلمات غير مفهومة، وانصرفت على الفور وهي تكاد تتعثر في نفسها فتسقط.

ضحكت (أميرة) وهي تلكز (كامل) مرة أخرى:

ـ حتى (سعيدة) يا (كامل)؟! لم أر رمشًا يطرف للفتاة منذ أتيت هنا، لكنها وقعت أسيرة عينيك في ثوان!

كما أنت.. مجالك المغناطسي يشمل أي أنثى..

ـ إلا.. أنتِ.. أليس كذلك؟

اختفت ابتسامة (أميرة)...

ـ ألهذا جئت؟.. لتنبش قبورا ترقد فيها رفات القلوب في سلام؟

ـ في سلام؟! أهذا ما تعتقدينه؟! أيُّ سلام؟ السلام الذي تعيشين فيه مع وحدتك تصارعين ذكرياتك كل يوم؟

أم السلام الذي يعيش فيه ابنك فارًا من المجهول، باحثًا عن ذاته في الاتجاه المضاد؟ أم هو ذاك السلام الذي أعيشه أنا.. متسائلاً كل يوم عن شعور هؤلاء الذين يستيقظون من نومهم فيجدون جسدًا مسجى جوارهم.. روح أخرى تشاركهم الهواء.. الكلام.. الحياة وحتى الموت! هل هو ذات السلام الذي يهنأ به (مصطفى) في الغربة وقد ارتضى أن يعيش على أرض بلا جذور تمتد فيها؟.. سلام؟! عن أي سلام تتحدثين؟!

ـ كلكم الآن معذبون بسببي؟! كما لو أن الأمر بدأ عندي؟ كما لو أن بيدي شيئا؟ كلكم اتخذتم قراراتكم والآن أنا المسؤولة عنها؟!

ـ اسمعيني يا (أميرة) جيدًا، لأنها المرة الأخيرة التي سأعيد على مسامعك نفس الكلام.. لم يبدأ الأمر عندك.. لكنه بالتأكيد انتهى عندك.. والنهايات عزيزتي أهم بكثير من البدايات لأنها تحدد البداية الجديدة.. كلنا اتخذنا قرارات خاطئة.. وما زلنا نجتر آثارها التي تأكل من أرواحنا كل يوم.. لكننا على الأقل.. قررنا! بينما أنت آثرت البقاء فوق السور الفاصل بين قرار وآخر.. تظنين خطأً أنك تحمين نفسك من السقوط.. ولا تدركين أنك تسقطين كل يوم.. ومع كل سقطة تهدرين عمرًا، ومع كل عودة للسور تجلبين حيرة وعذابًا لكل من ينتظر منك قرارًا! أيّ قرار!

الندم على شيء فعلناه له توبة.. أما الندم على ما لم نفعله لا توجد راحة من عذابه!..

يا (أميرة).. أوشكت آجالنا على الانتهاء..

وأريد أن أعطيك فرصة أخيرة كي تصححي وضعًا لا راحة ولا سلام فيه لأحد.. أرجوكِ..

جاوبته (أميرة) في تهكم:

ـ بأن أفعل ماذا؟ أتزوجك مثلاً؟

قاوم غصة في حلقه من تهكمها وحاول أن يعيد المرح للحديث:

ـ مثلاً! أرأيت حين تتخلين عن عندك تخرج منك أفكارًا عبقرية!

ـ يبدو أنك نسيت أمرًا بسيطًا للغاية.. أنا متزوجة بالفعل! ولدي ابن أوشك أن يتزوج!

ـ لا يا (أميرة).. لم أنس.. أنت من تركت سلسلة طويلة من القرارات التي لم تتخذ.. فتراكم قرار على الآخر حتى صارت السلسلة قيد تمسكينه بيدك ويحيط بأعناق من حولك... ابدأي في فك القيد.. الوقت لم يفت بعد.. لكنه أوشك.. ماذا فعلتِ بعدم طلاقك؟ هل سامحت (مصطفى)؟.. كان من الممكن أن أصمت للأبد لو أنني أرى أن لديك الشجاعة الكافية لكي تدافعي عن حبك له، إن كنت ما زلت تحبينه، أو حتى الشجاعة الكافية لتفلتيه تمامًا على رغم حبك له.. لكنك لم تفعلي هذا ولا ذاك.. لم أتكلم يا (أميرة) حين تركتني.. كان قرارك واحترمته على رغم عشقي لك..

استوقفته بإشارة من يدها، رافضة أن يكمل هذا البوح الذي ينتهك عهدًا أخذته على نفسها منذ زمن، إلا أنه أشاح بيده رافضًا إلا أن يستكمل ما بدأه:

ـ كلا.. لن أتوقف.. أنت تدركين تمامًا ما أكنه لك.. تعلمين أن حبك لم يفارقني.. حتى بعد زواجك.. لم أجد هذا الزر الذي كان يفترض بي ضغطه لأنساك.. بحثت عنه.. صدقًا بحثت... وعبثًا حاولت تنفيذ كل نصائح الآخرين بأن أتخطاك.. أن أتزوج.. أن أعيش كما يعيش البشر.. لكني لم أستطع.. لم أرغب في حياة تشبه الماء الذي أشربه.. ضروري.. مفيد.. يروي

عطشًا ما بالتأكيد.. لكن لا نكهة له.. لا لون يميزه.. لم أكن لأتزوج امرأة كالماء.. ولا أنجب أطفالاً كالماء.. لا أرى فيهم ملامحك ولا أشعر بدمائك تمتزج بدمي لتسري في عروقهم.. أردتك أنت يا (أميرة) ورفضت بدائل كثيرة ربما حتى أفضل منك.. وأجمل منك.. لكنها مجرد بدائل لأصلٍ لم أرغب بغيره.. ولم أكن لأظلم إحداهن فقط كي تنال حياتي لقب «طبيعية»!.. (أميرة).. أنا..

صَمَتَ..

شعر بأنفاسه تتسارع.. وصدره يهبط ويعلو في عنف..

خشي أن تكون أنفاسه الأخيرة في السباق المحتوم تقترب من خط النهاية..

هي أيضًا خافت عليه.. كادت تنهض لتحتضنه.. تربت على يده المرتعشة.. أرادت أن تبكي على كتفه مثلما فعلت ذات يوم.. تطلق العنان لألم ظل حبيس كبريائها.. تخبره أنها أرادت بشدة أن تحظى بهواه.. أن تستأثر بتلك المكانة التي لم يمنحها أحد إلا هو.. من بعد أبيها.. مكانة الأميرة!

لكن..

ليت أقدارنا ببساطة النهايات السعيدة..

ليتها تضعنا منذ البداية في موضعنا الصحيح في أحجية الحياة..

ليتها تجمع كل نصفين ملائمين لبعضهما.. فتمنح لكل شعورٍ.. شعورًا مساويًا له وفي نفس الاتجاه..

ليت..

أفاقت من شرودها على سعال (كامل).. استبدلت الحضن والتربيتة والبكاء.. بكوب الماء الذي أحضرته (سعيدة) منذ قليل.. ناولته إياه بابتسامة حانية..

ـ الماء.. الماء يا (كامل) ينقذنا من اختناق يمكن أن يودي بنا.. فتنتهي الحياة.. الماء ليس كما تظنه أنت.. يبخسه أن لا طعم له ولا لون.. على العكس.. فإن مذاقه الطاهر من أي نكهة.. لونه الشفاف.. يجعلانه أميز أنواع الشراب وأنقاها وأصفاها..

رمقها بيأس وأشاح بيده رافضًا كوب الماء مستسلمًا لسعال متواصل من الانقضاض على صدره..

ـ كم أنت عنيد.. خذ الماء!

من بين سعاله خرج استنكاره:

ـ أنا؟!.. أنا هو العنيد؟؟!

ومن مكان خفي في الغرفة تصاعد أزيز مميز قطع عليهم الحديث..

ارتبكت (أميرة)..

والتفتت إلى (كامل) بنظرة ترجوه الانصراف..

فهم المراد لكنه رفع حاجبيه متسائلاً.. لمَ؟..

وحين لم يجد غير صمتها وعينيها القلقتين، اللتين أخذتا في الانتقال بينه وبين الحائط الأبيض أمامها مباشرة.. استجمع ما تبقى من قواه للنهوض والرحيل.. لكن..

كان أبطأ من الزمن..

وكعادته..

تأتي قراراته متأخرة..

أحيانًا بمقدار عمر بأكمله.. وأحيانًا عدة ثوان فقط!

بعد عدد محسوب من الرنات قام الرد التلقائي بفتح الخط.. أضاء مستطيل كبير على الحائط الأبيض وبرز منه وجه يراه (كامل) لأول مرة..

وبدلاً من أن يسرع في انصرافه تجمد (كامل) للحظات.. وقد انتقل خوف (أميرة) المبهم له..

ساد صمت غير مريح لثوانٍ.. حتى مزقه صوت (أميرة) المرتعش:

ـ كيف حالك حبيبي؟

لم يبادلها الرد وإنما ظلت عيونه ثلاثية الأبعاد المنبعثة من الحائط تحملق في وجه الغريب الذي كان لا يزال ممسكًا بباقة ورود حمراء في غرفة أمه..

أدركت (أميرة) أن غضب (يوسف) سيبحر به لأبعد من غربته.. ويغير وجهته عن حضنها الذي اشتاقه.. فتزداد الهوة عمقًا.. ويزداد الوطن.. غربة..

ويستمر موتها!

(٧)

٢٠ يوليو ١٩٨٥

بينما (مصطفى) جالس في غرفته منكبًا على بضع ورقات على مكتبه الخشب، جاءت من خلفه (جيهان).. أحاطت رقبة ولدها ذي السبعة عشر عامًا بذراعيها.. وقبل أن تبادره بسؤالها المتكرر، اتجهت لمسجل الصوت الأسود الضخم ذا الشريطين، الذي يحتل نصف مكتبه، وأغلقت موسيقى «البيتلز» المنبعثة منه..

ـ ماذا تفعل؟

ـ كما ترين! كنت أسمع موسيقى.. في غرفتي!

أغفلت لهجته المعترضة وتشديده على «كنت» و«غرفتي» وأردفت:

ـ أعني ماذا تكتب؟

ـ لمَ تسألين وأنت تدركين أنني أقوم بملء استمارة التنسيق بالرغبات!؟ على الأقل تدركين أنك سألتني نفس السؤال منذ عشر دقائق وأجبتك بنفس الإجابة!

ـ حسنًا.. هل انتهيت؟ أتريد مساعدة؟

ـ كلا ما زلت أفكـ...

قاطعته..

ـ تفكر؟؟ فيمَ تفكر؟! ألم نقرر؟؟

ـ **(مصححًا لها)** قررتِ.. أنت التي قررت!

ـ لأني أعرف مصلحتك أكثر منك!

ـ مصلحتي؟ ومن قال إنني أسعى نحو مصلحة! أريد أن أدرس... أدرس شيئًا أحبه.. سأقضي ما تبقى من عمري في عمل هذا «الشيء» الذي أنا بصدد اختياره الآن! ألا يعني ذلك شيئًا لكِ؟!

ارتفعت نبرة صوتها لتقترب من الصياح:

ـ بلى.. يعني أنك ما زلت غير ناضج ولا تفهم تلك الدنيا جيدًا.. عامة.. كان يجب أن أدرك أنك تسعى نحو تدمير كل خططي، منذ أن خيبت أملي بهذا المجموع البائس الذي حطم حلم كلية الطب بالنسبة لك!

ـ **(مغمغمًا بصوت خفيض)** لكِ..

ـ **(تصرخ)** ماذا تقول؟؟ ارفع صوتك حتى أسمعك.. واجهني ولا تكن جبانًا كأبيك!

حتى تلك اللحظة كان متمالكًا لأعصابه.. كان يدرك دوافع أمه في محاولتها لجعله نسخة من أبيه.. الطبيب الناجح في عمله.. والفاشل في كل شيء آخر من وجهة نظرها.. كانت تريده نسخة معدلة! ومن أجدر منها على التعديل! كل شيء تراه هي، صحيح.. كل ما عداه إما خطأ وإما يكاد.. هي الصواب الذي لا يحتمل الخطأ.. تريده مثل أبيه لكن أفضل وأرقى.. بلا تلك العيوب التي كانت كالثقوب في حقيبة حبها له..

كان يدرك دوافعها لكنه لا يفهمها.. هو متأكد أنها ما عادت تحب أباه.. بل في لحظات يرى في عينيها بريق كره له.. كيف ترغب له أن يتبع نفس خطاه؟!

وقعت كلمة «جبان» كعود كبريت مشتعل داخل نفس ملأها الغضب بالوقود الكافي للانفجار.. قام من جلسته.. استدار لها وواجهها.. نظر لعينيها مباشرة لأول مرة منذ بدآ

حديثهما.. بل وربما للمرة الأولى منذ زمن بعيد! أجابها في تحدٍ وببطء متكئًا على كل حرف:

ـ أنــا ـ لن ـ أدخل ـ طب.

ـ **(ساخرة منه)** طبعًا لن تدخلها! لأن مجموعك أقل من الحد الأدنى.. لأنك فاشل!

عقد (مصطفى) ذراعيه أمامه وابتسم.. مدركًا وقع الصدمة مما يوشك على قوله:

ـ جيد! لأني منذ فترة أحاول أن أخبرك أنني نجحت في اختبار القدرات بـفنون جميلة.. وستكون رغبتي الأولى..

مرت لحظة يراقب فيها (مصطفى) رد فعل أمه التي تجمدت تمامًا.. كأنما تعيد الكلمات التي سمعتها للتو داخليًا، بعد عزلها عن كل الأصوات الأخرى، للتأكد من أن ما سمعته صحيح..

لثانية بدأ الخوف المنسحب يتسرب ثانية لنفس (مصطفى)..

لماذا صمتت هكذا؟!

هواجس من قبيل أن يصيبها بسكتة قلبية كما يشاهد في الأفلام فيتسبب في موتها أخذت تهز الثقة التي كان عليها منذ ثوانٍ.. حاول أن يطمئن نفسه.. ربما ستستمر في صمتها هذا وتخرج من غرفته وهي تراجع نفسها.. ربما تتسبب صدمته لها في إفاقتها.. ربما ستدرك أنه على حق.. على رغم كل شيء هي أمه وتحبه يقينًا.. و..

فجأة..

ضربت صدرها بكفها بشكل لا يتناسب مع شكلها الأرستقراطي وأخذت تصرخ..

ـ آه.. آآآآآآآه... آآآآآآآه....

استمرت تعيدها وتعيدها وهي تنظر في الفراغ، بنظرات زائغة يفترسها بعض من جنون.. تحركت فجأة وخرجت للصالة ملقية نفسها على كرسي قريب.. آهاتها مستمرة.. كل آهة كانت أعنف من سابقتها وأطول وأجن!..

بهت (مصطفى).. لم يدرِ ماذا يفعل.. لم يتمكن الخوف منه فحسب بل هزمه شر هزيمة، معلنًا في سخرية أن لا فكاك منه.. سيطر على كل حواسه فتجمد في مكانه.. فقط أفكاره كانت الجندي الأخير الذي ظل يحاول الفكاك من الأسر، محاربًا الخوف حتى النهاية..

يتساءل إن كان يجب أن يتبعها الآن؟؟

ستجلب صرخاتها الجيران الذين سيظنون أن شيئًا جللًا قد حدث.. تشطح به أفكاره هربًا من اتخاذ القرار، فيرى أعينهم التي تنظر له في لوم وتأنيب وغضب!.. يتخيلهم يتحدثون عنه..

«كيف يفعل هذا بأمه؟! الولد العاق سيقتلها حزنًا وكمدًا.. أليس بكافٍ ما فعله أبوه؟ أهكذا يكافئ تعبها وبقاءها بجواره من دون التفكير في الزواج، وهي الشابة الجميلة بنت الناس..؟! عار عليه وتبًا له من ولد!»

يفيق من خيالاته على آهاتها التي تعلو فتعيد أفكاره لساحة المعركة..

ماذا يفعل؟..

هل يذهب يطلب منها أن تسامحه.. يتراجع ويعلن كذبًا أنه المخطئ بلا جدال؟..

هل يفعل كما كان يفعل دومًا في خلافات أمه وأبيه؟.. يتجاهل ما يحدث تماما كأنه يحدث لأحد الجيران... يدخل غرفته ويغلق الباب ويضع سماعات «الوكمان» على أذنه ويبدأ في

الرسم بالفحم.. كل لوحاته كانت بالفحم.. يرسم دومًا أشجارًا جافة.. عيونًا دامعة.. ورودًا تنزف.. أيادي مستغيثة.. كلها رمادية.. لا مكان للألوان في حياته..

ذات مرة رسم «خيال مآتة» في حقل.. حاول استخدام الألوان.. لم يرض عن النتيجة بتاتًا.. كان «خيال المآتة» أشبه بمهرج سيرك فقد كل وقار يليق بقش مثله.. تخيل الغربان تضحك منه وتنهال عليه بمناقيرها تنغزه في كل جسده.. شعر ساعتها بالألم الشديد في جسده هو... نحى الألوان جانبًا ومزق لوحته وأعاد رسمها بالفحم.. فإذا بـ«خيال المآتة» يقف وحيدًا مطأطئ الرأس في صحراء مقفرة.. لا يحمي شيئًا.. وتعافه حتى الغربان!

ها هي أفكاره تجنح به ثانية.. وآهات أمه وولولتها مستمرة!

تبًا.. ماذا يفعل؟! كان صوتها يمزق كل دفاعاته التي حاكها عبر السنين من اللامبالاة.. كم كانت مقطوعة الآهات النشاز التي تعزفها بصوتها في الخارج، أشبه بمزمار الساحر الذي تبعته كل فئران المدينة حتى قضى عليها جميعًا! لم يجد بُدًا في النهاية من أن يخرج لها وإن كان لا يدري.. ماذا يقول؟ بادرها بصوت خفيض مرتعش:

ـ أمي... أنا..

لم يجسر أن يعتذر.. ولم يجسر أن يبرر موقفه كذلك.. في الحقيقة لم يكن لأي كلام سيقوله معنى ولا غرض إلا أن ينهي الموقف قبل أن يطرق الجيران بابهم.

لم تتركه هي في حيرته كثيرًا..

كان الجزع البادي في صوته كافيًا لتطرق الحديد وهو ساخن..

لقد قال الكلمة السحرية..

«أمي»..

تلك الكلمة التي تعلم أنها بمقتضاها قد وكلت لتفعل ما تشاء به وبحياته.. نعم هو ولدها.. ملكها.. من حقها عليه أن يجبر خاطرها الذي كسره أبوه.. من حقها أن تراه كما حلمت به.. كما تريد له أن يكون.. كما تمنت أباه أن يكون.. هو ولدها.. ولا يستطيع تطليقها!

ـ أمك! جيد أنك ما زلت تذكر أني أمك! هنت عليك؟ هانت عليك أمك يا (مصطفى)؟! تريد أن تشمت بي أباك؟! أن يعايرني بفشلي معك مثلما كان يعايرني بفشلي معه كزوجة؟ تريد الهوان لأمك يا (مصطفى)؟! ولماذا؟ لمَ كل هذا؟! ألأني أحبك؟ ألأني أرغب في أن أراك ناجحًا؟

لكن..

هذا ليس كلامك..

متى جاءت فكرة فنون جميلة تلك؟! ألم نتحدث؟ ألم نقرر أن تكتب «صيدلة» عوضًا عن «طب»؟..

لماذا تريد أن تحرمني من أن أراك «دكتور» فأفرح بك؟.. هل تتحدث إلى والدك من دون علمي؟..

ـ **(محاولاً دحض أوهامها قبل أن تسترسل)** آ..

قاطعته قبل أن يبدأ مجيبة على تساؤلها بنفسها..

ـ لا بد من أنه من أوعز لك بتلك الفكرة.. بل إنني على يقين أنه أثناك عن فكرة دخول «الطب».. وأنت طيب يا (مصطفى).. لا تفطن إلى ما يحاول فعله.. يريد حرمانك من كل حقوقك مثلما فعل سابقًا.. لا يريدك طبيبًا كي لا تطالبه بعيادته.. كي لا تطلب مساعدته في شيء.. يريد أن يظل متنصلاً منك يا (مصطفى).. لم يكفه أنه تناسى أن له ابنًا وهو يعيش بين أحضان تلك العاهرة التي تزوجها وأنجب منها، حتى يستبدل بحياة لم يكن يحلم بها

معي، حياة زائفة.. لكن الله لا يرضى بالظلم.. لذلك أعطاه بنتًا.. وحرمه الولد الذي يكون سندًا له ويحمل اسمه بعده..

ابتسم رُغمًا عنه إزاء تجاهل أمه التام لوجوده..

أما هي..

كعادتها.. استرسلت في تذكر ما فعله أبوه.. وانتهاز كل الفرص كي تثبت كم كانت محقة.. وكم كان ظالمًا.. وكيف ما يزال سببًا في كل ما يحدث لهما من مشكلات على رغم أنه فعليًّا خارج حياتهما منذ سنوات طويلة..

لم يتصل به ولو مرة خلال تلك السنوات.. علم من أمه أنه تزوج بأخرى وأنجب منها بنتًا، ولا يعرف من أين لها بالمعلومة.. هو لم يحاول أن يبادره بالاتصال.. كان مجروحًا من داخله من تجاهل والده له بهذا الشكل.. كيف ينكر عليه مشاعر الأبوة وهو من منحه لقب «أب».. كيف يتخلى عنه ويبني حياة جديدة غير مبال بحياته هو..

كأنه غير موجود!..

كيف لا يرق قلبه له لمجرد أنه «ابنها» ـ كما كان يحلو له أن يدعوه!

أنسي أنه ابنه أيضًا؟! وأنه لم يخترها أمًّا كما لم يختره أبًا؟!

وهل لأي منّا الخيرة في مولده؟!

أفاق من أفكاره على هزة أمه له وهي تضع يديها على أكتافه.. تتطلع له بعيون تتعطش لإجابة منه على سؤال لم يسمعه.. حدق بها.. ما زال بعض من جنون يسكن حدقيتها.. لم يجازف تلك المرة بأي رد فعل.. تركها تقف وحيدة في الصالة واتجه لغرفته وأغلق بابها.. من خلف زجاج الباب رآها تتجه نحو غرفته، ظن أنها ستدخل وتعاود الصياح مرة أخرى.. لكنها ظلت واقفة هناك من دون حراك، ما جعله يستشعر الحصار أكثر فأكثر.

زفر زفرة طويلة.. نظر للأوراق على المكتب.. صارت مشاعره غير محددة.. لم يدر ماذا يفعل، والأدهى أنه لم يعد يدري ماذا يريد لكي يفكر في فعل الوصول إليه.. يبدو أنه مقدر له أن يظل ساكنًا تلك المنطقة الرمادية من كل شيء..

أحيانًا لا يدري إن كان يحب أمه أو يكرهها.. أو أنه لا يشعر بشيء تجاهها البتة..

كذلك والده..

عود نفسه على ألّا يشعر.. لكن النتيجة أحيانًا أنه يشعر بكل شيء دفعة واحدة.. الحب والكره والغضب والحزن والخوف واللامبالاة.. يدفعه ذلك لحافة الجنون.. أو الحكمة.. لا يدري!

أحقًا لم يرغب في كلية الطب بتاتًا؟ هل يقاوم فقط أي تشبه بوالده؟ هل محاولاته للفكاك من مصيره هي التي تجره جرًّا للمحتوم؟

هل وقع في الشرك؟!

نعم.. حتى تلك اللحظة كان يفلت أغلب الوقت من الشرك الدائم الذي نصبه أمه وأبوه له على مر سنوات عمره.. أن ينصب نفسه قاضيًا.. ويحكم على المتهم.. كانا يتخيلان أن عدالة السماء ستأتي على يديه.. وسينصف المجني عليه..

في الشهور القليلة التي سبقت الطلاق وبعدها كان أبوه دكتور (نائل) يزعم صداقته التي لم يشعر بها يومًا.. يمنحه وقتًا ضن به عليه كثيرًا فيما مضى.. يغدق عليه بكل ما يشتهي صبي في عمره.. «أتاري».. ملابس.. كرة قدم.. كل هذا كي يشكو له قسوة أمه وتسلطها.. كي يكسبه لصفه فيستخدمه كورقة ضغط على الأم... وعلى أقل تقدير سيكون قد منح نفسه شهادة براءة ذمة أمام ولده.. أخلى مسؤوليته للأبد وحصل على تصريح الفكاك من جحيمها اليومي..

كم مرة اضطرت أذنه لتحمل سماع سباب أبيه لأمه؟

كم مرة انهارت نفسيته تحت عبء هجومه الضاري عليها؟

يرى في عيني (مصطفى) كم يتألم مما يسمع، ولا تأخذه به هوادة أو رحمة.. يظل يسب ويلعن مستغلاً صمت (مصطفى).. حتى إذا رأى تلك الدمعات تكاد تستصرخه أن يكف عنه هذا الأذى.. صمت لوهلة مشيحًا برأسه حتى لا تتلاقى عيونهما وهو يقول في أسى «هي أم جيدة على رغم ذلك.. أنا فقط أشكوها إليك كزوجة.. أنت تفهمني أليس كذلك؟ لا أريدك أن تخلط الأمور ببعضها.. أنا أتحدث إليك في هذا الأمر لأنك رجل الآن.. وهذا حديث رجل لرجل.. أليس كذلك
يا حبيبي؟»...

ذات الصمت الذي استمع به إلى إهانات أمه، هو نفسه الذي كان يجيب به والده.. لكن هذا الصمت لم يكن إلا مظهرًا خادعا، يخفي بداخله صراخ ألف صوت داخل الصبي الذي لم يتخط عامه الحادي عشر!

كان يسأل نفسه دومًا عن معنى نعت أبيه له بـ«رجل»... ولماذا صاره الآن؟ ألم يولد رجلاً؟ هل هو لقب يناله عند سن ما؟ أم أن أباه يذكره بتبعات أن يكون رجلاً؟ ألّا يبكي.. ألّا يتألم.. أن تتلقى أذناه السباب من دون أن يجفل..

هل هذا ما كان يعني؟؟!..

وما هي تلك الأمور التي لا يريد والده أن يخلطها ببعض؟!..

أن يبجل الأم ويدين الزوجة؟

وكيف يفصل بينهما وهي ذات الشخص؟..

ثم بالنسبة له لا يعرف منها غير كونها أمًا!

تظل نفسه تحاور نفسه من دون أن يجد ملاذًا في تحاورهما ذاك، حتى إذا ما عاد للمنزل بدأت وصلة جديدة من التعذيب..

هذه المرة على يد أمه..

تحرمه من وحدته فتظل تطرق على رأسه بأسئلة..

ماذا قال لك؟..

هل كان يشكوني؟

هل صدقته؟

إياك أن تصدقه!

الكاذب المخادع!

هل أخبرك بموضوع الطلاق؟..

هل أعطاك مصاريف الشهر؟..

ماذا قال لك؟؟

كان يصمت أيضًا.. يجد غضاضة في نقل أحاديثهما لبعض.. كذلك في أن يطاوعهما على سب بعضهما بعضا..

يصمت..

لعل في صمته قوة سحرية ما، ستجلب كل قوى الصمت ليسود المنزل..

فتصمت أمه..

ويصمت أبوه..

فلينفصلا أو يتطلقا أو يظلا معًا.. صارت الأمور سواء بالنسبة له.. فقط يريد بعض الهدوء.. بعض الراحة.. لا يريد تلك الألقاب التي تزيده همًّا على همّ..

هو.. ليس بصديق.. ليس رجلاً.. ليس قاضيًا..

لن تأتي عدالة السماء على يديه.. لن ينصف المجني عليه..

لأنه هو.. هو المجني عليه..

هو الطفل..

هو الابن..

هو المسير في مجيئه لتلك الحياة..

لم يخترهما.. ولا يشعر منهما إلا بظلمهما له..

.....

ها قد قادته أفكاره مرة أخرى إلى حيث أراد الهروب..

ها قد وقع في الشرك المنصوب له منذ مولده..

نصّبَ نفسه قاضيًا..

حكم على كليهما..

مذنبان!

أخرج علبة السجائر التي يخفيها عن أمه في أحد الأدراج.. وضعها مع ولاعة صغيرة في جيب بنطال «الجينز» الواسع.. التفت نحو باب الغرفة.. من خلف زجاجه رآها.. لا تزال مكانها..

نظر للأوراق التي ما تزال تنتظر مصيرها على المكتب، لتقوم بدورها في تحديد مصيره.. تناولها وفتح باب الغرفة فوجد أمه قد ابتعدت وعادت لمقعد الصالة، كأن شيئًا لم يحدث.. بادرته بالسؤال..

ـ ستخرج؟

لم يعطها إجابة وإنما ألقى الورق على الطاولة أمامها في انهزام..

ـ اختاري ما تشائين..

ابتسمت (جيهان) في نصر وأخذت تلملم الأوراق من على الطاولة لتشرع في تنفيذ خطتها.. أو ما تبقى منها للوصول لمأربها.. تذكرت أن (مصطفى) كان يتأهب للخروج.. رفعت نظرها إليه فإذا هو بالفعل قد فتح باب الشقة.. استكملت استعادتها للسيطرة على زمام الأمور بسؤالها عن وجهته لكن صوت صفق الباب بتر السؤال في منتصفه.. فتجهمت قليلاً.. ثم ما لبثت أن استعادت ابتسامتها وهي تمسك بالقلم وتستعد لكتابة رغباته..

نزل (مصطفى) الدرج بسرعة.. يريد الهروب من شيء لا يعلمه تحديدًا..

عندما صار بعيدًا عن البيت أشعل سيجارة ونفث دخانها في بطء..

من بين حنايا الدخان لمحها..

فتاته الأرمنّية.. (جوليا)..

جدائلها الشقراء تصل لخصرها.. عيونها الواسعة تشع حبًا للحياة..

كانت كعادتها تتمايل في مشيتها، وتبتسم للجميع وتضحك بصوتٍ عالٍ لمعاكسات الآخرين لها..

جارته الجميلة التي لا تكف عن سكب المرح في كل خطوة.. نظراتها تعدك بشيء.. لكن حاجبها المرفوع في تحدٍ يهددك ألّا تصدق الوعد..

لا يعلم سر انجذابه لها وهي على النقيض منه تمامًا.. وربما كان هذا هو السبب.. انجذاب الأضداد.. لكن كيف لمن في جمال (جوليا) ـ وهو اختصار لاسمها الحقيقي (جوليتا) ـ أن ينجذب لهذا الضد الكئيب؟!

لم يفكر (مصطفى) يومًا في الحب أو يتمناه.. لم يحاول الاقتراب من زميلاته عكس أقرانه... كان يرى الحب مجموعة ألوان لا تتناسب مع رماديته. حين كان يشعر ببعض انجذاب لفتيات معه في المدرسة كان يتأملهن من بعيد.. يرسمهن أحيانًا... ينظر لما خَطّهُ.. يرى شيئًا ما في الحدقات المرسومة ربما غير موجود في الحقيقة.. يرى الرفض والتهكم! في اعتقاده أن ما رسمه لم يكن خياليًا البتة! بل هو أقرب للواقع الذي لا يراه إلا الأذكياء فقط.. وماذا لديه هو حتى تعجب به إحداهن.. ماذا يميزه؟ لا شيء.. مظهره عادي.. بل عادي جدًا.. لا تحيطه هالة الثقة والرجولة ـ وإن كانت كاذبة ـ لمن في مثل سنه.. يكره من الأشياء أكثر مما يحب... بل إنه تقريبًا لا يحب إلا موسيقى البيتلز والرسم.. وحتى تلك الموهبة لم يعلم بها أحد.. لم يحاول رسم نفسه قط، بل إنه لم يدقق في ملامحه في المرآة قط.. يكرهها.. لكنه إن أراد تخيل كيف سيرسم نفسه.. لتخيل كائنًا رماديًا بشعًا على رغم أنه بلا ملامح.. ينفر منه الجميع.. الرفض والتهكم هي حتمًا نظرتهن له.. كان تخيل تلك النظرات كفيلة بوأد أي محاولة منه للاقتراب منهن.

لكن (جوليا)..

استطاعت ـ من دون أن تقصد ـ وعلى مدى عام كامل أن تحرك لديه رغبة الاقتراب منها.. رسمها عدة مرات.. لم تطالعه عيونها المرسومة بالرفض والتهكم.. كان في عيونها وعد...

ربما ستمسح عنه أحزانه.. ربما ستضفي ورديّ شفاهها على رماديته.. كان أكثر ما يجذب انتباهه ثغرها الضاحك دومًا وجدائلها الشقراء الثائرة الطامعة في من يمنحهن الحرية.. ولسوف يفعل هو.. يومًا ما..

يدٌ قوية حطت على كتفه..

كان الصديق الوحيد الذي حظى به.. (لؤي)..

الفتى الطويل النحيل ذو الشعر الأسود الغارق في الفازلين على طريقة أنور وجدي.. يمشي في خُيلاء معتقدًا أنه يدير الرؤوس وبخاصة الإناث.. يلوك قطعة لبان أو يدخن سيجارة.. يتهكم من كل شيء وكل شخص... هو أحد أصناف المنبوذين الذين يرفضون الاعتراف بهذا..

لا يعلم إن كان ما بينهما يصلح أن يصنف «صداقة»..

كان (مصطفى) ـ المجتهد ـ يساعد (لؤي) ـ المستهتر ـ في دروسه..

وفي المقابل كان لؤي يشاركه صمته مع سيجارة، من دون أن يبدي اهتمامًا بما يجول في خاطره وكان (مصطفى) يجد في تلك المشاركة السلبية بعض الراحة.. أو ربما تستأنس رماديته برمادية شخص آخر.

لمح (لؤي) نظرات (مصطفى) التي تحاول أسر (جوليا) فتهكم منه..

ـ آ صديقي.. هل دق الحب بابك؟!

ـ ماذا تعني؟!

ـ ها.. لا تدعي عدم الاهتمام الآن.. أتكذب على صديقك الوحيد؟!

ـ لا.. لا أكذب.. كنت أطالعها فقط.. ماذا تريد مني؟ دخن في صمت ولا تضايقني بأفكارك السخيفة تلك!

ـ أنا؟! أنا سخيف؟ سامحك الله.. الحق عليّ.. كنت أود مساعدتك.. بدلا من وقوفك هكذا.. كالـكـ.... أعني القط الجائع.. أستطيع أن أنهي لك الموضوع في دقيقة.. ها؟ ماذا قلت؟؟

ـ آ.. ماذا تعني؟! ماذا ستفعل..؟!!

ـ انتظر.. وسترى..

وقبل أن يجذبه مانعًا إياه مما ينوي، كان (لؤي) قد مشى بخطوته الواسعة نحو (جوليا) التي كانت تبتاع الزهور..

أراد الهروب.. انهار إحساسه فجأة بالوعد في عيون (جوليا).. لم يرَ غير الرفض والتهكم.. قبل أن يحدثا.. أصدر أمره عدة مرات لساقيه أن تستديرا مبتعدتين.. لكنهما لم تطاوعاه.. مثلهما مثل كل شيء فقد سيطرته عليه في حياته.. حتى عيناه المصطدمتان بالكثير من ألوان الزهور في خلفية المشهد لم ترمشا.. بقيتا لتتلقيا الصفعة كأنما ارتضيتا إيلامه.. تتابعت الصور أمام عينيه..

(لؤي) يصفر ويستوقف (جوليا) قبل دخولها لمحل الزهور..

تنظر له غاضبة وتكاد تدير ظهرها لتركه..

يستوقفها مرة أخرى ويبدي لها التودد والاستعطاف لتسمعه..

تضع يديها عند خصرها وتقف مستمعة..

يتحدث وهو يشير في اتجاه (مصطفى) وفي حركاته علامات الرجاء..

فجأة..

ترفع (جوليا) يدها إلى ثغرها الذي اتسع على مصراعيه مجلجلاً بضحكات عالية.. تنظر إلى (لؤي) في استهزاء.. ثم تنظر في اتجاه (مصطفى).. لم تكن نظرة رفض فحسب.. ولا فقط تهكم.. بل أشد قسوة منهما..

احتقار!

على رغم أن وقوفه على بعد لم يجعل سمعه يلتقط الحديث بين (لؤي) و(جوليا) فإنه ميّز كلمة واحدة ختمت بها كلامها..

ابتَعَدَ.. لكنه لم يستطع الهروب..

سمع صوت (جوليا) مختلطًا بصوت أمه داخل رأسه.. ومن بين كل الكلام.. كلمة واحدة أخذت تتكرر.. وتتكرر..

«جبان».. «جبـــان»..... «جبان».....!

(٨)

٢١ سبتمبر ١٩٨١

ضمت (هدى) ركبتيها إلى صدرها كالجنين وهي تنتحب بصوت مكتوم على سريرها..

تارة ترفع رأسها للسماء.. وتارة تنظر للـ(بورتريه) المعلق على الحائط المقابل لسريرها.. تهمس بصوت غير مسموع ثم تصمت وتناجيها بعينيها.. لحظات وتعاود النحيب وهي تدفن رأسها بين ذراعيها المعقودتين فوق ركبتيها.

تململت أختها الصغرى (أميرة) بجوارها على أثر صوتها، فكتمت نحيبها أكثر وربتت على ظهر أختها ودثرتها في حنو.. انتظرت دقيقتين وهي تكتم حتى أنفاسها حتى اطمأنت إلى أن (أميرة) عادت للنوم في سلام.

على رغم أن تلك هي غرفة (هدى) الخاصة فإن (أميرة) كانت تخاف النوم بمفردها.. لذا فإن الليالي التي تبدأ بنومها في غرفتها على سريرها، تشهد في منتصفها سيرها شبه نائمة إلى غرفة أختها لتستيقظ في الصباح بين أحضانها.

خطت (هدى) ببطء إلى اللوحة المعلقة على الحائط.. صورة أمها التي رسمها والدها الفنان بريشته وذيلها بإمضائه. تطلعت للعينين العسليتين.. كانت تظن دومًا أنهما تحدثانها هي.. تخبرانها كم تحبانها.. كم تثقان فيها.. تبعثان فيها الطمأنينة.. تخبرانها أنها بخير.. حيث مقامها في دار الحق.. وأنها تريدها سعيدة.. وأحيانًا تشمل النظرة المرسومة اعتذارًا خافتًا.. لقد كبرت قبل الأوان.. عشر سنوات وهي تلعب دور الأم لأختها التي تصغرها بأربعة أعوام فقط!..

اليوم.. هو ذكرى رحيل والدتها عن عالمها.. ورحيل عالمها ذاته!..

ضحك لا يعكر صفوه ذكرى مؤلمة..

قبلة صباح تحمل سعادة العالم..

حضن يحوي بداخله عالمًا خاصًا جدًا، قد تغفو بداخله من فرط الراحة والأمان..

قرصة خد تشعرها أنها أجمل طفلة في العالم..

ربتة يد على رأسها تمنحها ثقة لا حدود لها بنفسها..

وحتى.. صرخة فزع أو غضب تظهر الخطأ على حقيقته وتحميها حتى من نفسها..

انتهى كل هذا..

صعد عالمها إلى السماء يوم صعدت أمها، فانتهى فصل قبل أوانه.. فصل قصير للغاية.. فصل يتكون فقط من أربع سنوات!

يومها.. قالوا لها إن أمها تسكن الآن في مكان بعيد في السماء.. ولن تعود..

لكنها تركت لها أختًا..

نظرت هي بخوف لأختها الرضيعة التي لم يتعد قدومها للدنيا عدة ساعات..

هل هي من تسببت في رحيل أمها للأبد؟...

كادت تبغضها.. لولا دموع في عين والدها وارتباك، وهو ممسك بتلك الضئيلة للغاية ورفسها للهواء في كل اتجاه، مع صراخها المدوي، جعلا قلبها يخفق في حنان..

استشعرت شفقة نحوهما.. أباها.. وأختها..

كانت تدرك أنهما يبكيان طلبًا لأمها.. لكن أمها ما عادت موجودة..

بأعجوبة.. استشعرت الطفلة ذات الأعوام الأربعة أنها صارت مسؤولة عنهما.. صارت رسول أمها إليهما.. هزت بنطال أبيها فركع بجوارها وهو لم يزل يجاهد دموعه.. ربتت على كتفه وابتسمت له في حنان ثم طبعت قبلة على يد أختها الرضيعة أخبرته في طفولة..

ـ لا تخف.. لا تخف يا أبي.. أنا معك..

نظرت لأختها التي تبلغ اليوم عشر سنوات.. هي ذات العشر سنوات التي مضت على رحيل أمها..

كم تشبه (أميرة) أمها ملامحًا.. وكم تشبهها هي روحًا.. بل إنها تؤمن بأن بعضًا من روح أمها سكنها يوم وفاتها، ليلهمها رعاية أبيها وأختها. أعادت النظر لصورة أمها وقد اطمأنت أن (أميرة) ما تزال مستغرقة في النوم.

ربتت بيدها اليمنى على خد أمها، ثم وضعت يدها اليسرى على خدها هي.. أغمضت عينها تتخيل أن أمها هي التي تربت عليها.. ذرفت دموعها في صمت.. ثم غمغمت من بين بكاءها..

ـ أحتاجك يا أمي..

لم تقل غير ذلك... وربما كل غمغمتها السابقة كانت تشبه تلك الجملة.. لكنها قالتها في بطء ويقين بأن أمها تسمعها..

قالتها كما لو كانت تلخص فيها كل مشاعرها وأحزانها..

قالتها بنفس الطريقة التي ترفع فيها عينيك للسماء مع أكف التضرع، وتحاول البوح لخالقك بما يعتمل في صدرك من ألم وحاجة لعونه، فلا يند عنك غير كلمة «يا رب»..

قالتها وأسقطت وراءها دمعة واحدة، حملت كل مرارة الحرمان والاحتياج... دمعة تحبس صرخة ربما توقظ الموتى إن أفلتت عند ارتطامها بالأرض.

نسمة هواء مبللة بندى الفجر داعبت خدها فشعرت براحة.. نظرت لوجه أمها في اللوحة تحاول أن تستنطقها.. تعيدها للحياة بقوة أحزانها.. لكنها لم تفلح..

إلا أنها..

كأن..

لا..

غير معقول!..

هل كان صوت أمها الذي تسمعه كما لو كان يأتي من جب عميق حقيقي؟...

«هـــــــــدى... هـــــــــدى»...

لم تسمع شيئًا إلا اسمها.. لكنه صوت أمها.. تكاد تكون متأكدة.. ذاكرة الطفلة ذات الأربعة أعوام تمارس الألاعيب عليها.. منذ لحظات كانت على يقين أن أمها معها.. موجودة حولها بشكل ما... لكنها الآن تكتشف أن يقينها قد لوثه شكها.. أتراها جنّت وصارت تسمع أصواتًا غير حقيقية؟!

نسمة أخرى داعبت خدها وتخللت شعرها الناعم.. كما لو.. كما لو كانت أصابع أمها التي اعتادت أن تمشط شعرها وهي صغيرة.. ابتسمت (هدى) هذه المرة مسلمة نفسها لخيالها الذي يقارب الحقيقة بشكل كبير.. استشعرت وجود أمها أكثر فأكثر فسقطت دمعة أخرى وهي تقول في لوعة..

ـ أوحشتني.. أمي.. أمي.. لا تتركيني.. أمي.. أمي.. أمي

ظلت تردد النداءات التي احتُجِزَت داخل عقلها، ومُنِعَت الاقتراب من لسانها طوال سنوات طفولتها.. ذلك النداء المتكرر الرتيب الذي تضيق به أغلب الأمهات ذرعًا، وتستأنس به ألسنة

الأطفال.. «أمي».. «أمي»..

أفاقت (هدى) فجأة على صوت أختها الناعس..

ـ أمي كانت هنا يا (هدى)..

نظرت (هدى) في فزع نحو أختها وهي تمسح وجهها بكفها لتمحو أثر الدموع.. لم تفهم إن كانت تخبرها حقيقة ما أو تسألها.. أعادت عليها (أميرة) الجملة..

ـ أمي كانت هنا يا هدى.. أليس كذلك؟؟ هل رأيتها أنتِ أيضًا؟؟

ـ هـ... هل رأيتها أنتِ؟

ـ **(تتثاءب وتمط ذراعيها وهي تبتسم في سعادة)** نعم! **(ثم أردفت في حماس طفولي)** جاءت يا (هدى) لم تنس... لم تنس عيد ميلادي.. ألم أخبرك؟ ها.. أرأيت! احتضنتني وقبلتني كثيرًا كثيرًا.. سألت عنك وعن أبي.. وقالت إنها لم تنس هديتي! صدقيني.. يا (هدى).. ألا تصدقيني؟!.. أمي جاءت..

ـ **(تتلفت حولها بعيون متشككة)** أين؟!

ـ في الحلم! أقول لك جاءت وقبلتني.. و..

قاطعتها (هدى) بتنهيدة مبتسمة:

ـ حسنًا.. حسنًا.. أنا أصدقك.. عيد ميلاد سعيد يا حلوة..

طارت (أميرة) بذراعيها المفرودتين لتصل في ثوان لعنق أختها وتطوقها ثم ما لبثت أن أفلتتها حين سمعت صرير الباب وهو يفتح..

ـ أبـــيـــيـــيـــيي...

ابتسم (نبيل) ابتسامة أضاءت وجهه الحزين دومًا..

ـ أميرتي!

تبادلا العناق وسط تهليل (أميرة) وفرحتها ثم انتبه لوجود (هدى).. مد يده لها من دون أن يفلت (أميرة) من ذراعه الأخرى. اندفعت (هدى) تلقائيًا لأحضان والدها مثل أختها، لكنه بدلاً من أن يطوقها اكتفى بالتربيت على رأسها فتراجعت في خجل خطوة للوراء.. طبع قبلة على جبينها في ارتباكه المعتاد كلما اقترب منها.

يشعر أن أعوامها الأربعة عشر تحول بينهما.. في تلك اللحظة كان يفكر في كم كبرت (هدى) حقًا..

منذ وفاة زوجته اعتاد على (هدى) عقلًا كبيرًا في جسد طفلة.. كانت تستوعب كل شيء من دون حاجة للشرح... على رغم كونها ابنته.. يشعر أنها لم تحتاجه قدر احتياجه هو لها..

لكن..

شيء ما صار مختلفًا في الأعوام الأخيرة.. صار لجسدها نكهة أنثوية تفصلها عن طفولتها.. تقترب في سرعة من عالم المرأة.. نفس السرعة التي يشعر بأنه ينفى بها من عالمها ذاك.. لا يملك لها إجابات الأسئلة التي لم تسأله إياها! يزداد شعوره بالغربة عنها كلما قل احتياجها له.. وهي التي لم تحتجه قط!

السنوات الأربع الأولى من حياتها كانت أمها موجودة.. نهر ارتوى منه من دون اكتفاء.. ومن دون أن يحسب أن النهر سيجف يومًا.. إلا أنه حدث!

أما (أميرة)..

ربما هي لا تكبر...

ربما لن تكبر أبدًا!

كلما أبحر في عينيها اللتين تشبهان عيني أمها، رحل ليوم مولدها... ثوانيها الأولى في الحياة.. وعده لزوجته بأن يعتني بها.. لم تخبره حتى باسمها.. لكن نظرة واحدة لها أدرك أنها لا بد أن تكون (أميرة)..

هكذا بدت.. هكذا أرادها أن تكون..

ينظر لها الآن ولا يرى الطفلة ذات الأعوام العشر.. يرى الرضيعة.. يرى كفها المنمنمة كورقة شجر تلتف حول إصبعه.. تبكي بلا دموع.. تجول بعينيها ولا ترى.. حديثها صراخ يستجديه أن يأتي بأمها.. بتلك التي عاهدتها في الرحم أن تكون في استقبالها وتلقم ثديها وتستدفئ بحضنها.. لكن.. لم يمهلها القدر فرصة الوفاء بعهدها.. ومن داخل دوامة حزنه وارتباكه كان عليه أن يهدئها..

يومها..

أدرك أن احتياجها له هو ما سينقذه.. تماسك ليحملها.. قرب إصبعه ليدها تتشبث به..

جذع الشجرة الذي ما عاد يطفو على النهر، التصق بورقة شجر يلتمس منها الحياة..

وورقة الشجر لا تكبر... مهما مرت الأيام..

قاطعت (أميرة) أفكار والدها النابضة بها في غنج طفولي..

ـ أين هداياي..؟؟ أريدها الآن.. فورًا... ماذا أحضرت لي يا أبي..؟؟

ـ ألن تنتظري للمساء؟! عندما تحضر صديقاتك وكعكة عيد الميلاد و..

هذه المرة قاطعته (هدى) في حزم:

ـ لا..

نظر لها (نبيل) في تعجب..

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لا تجعلها تنتظر.. فالفرح لا ينتظر أحدًا.. اللحظة التي نملكها الآن.. ربما لا تصبح ملكنا غدًا..

حانت منها ابتسامة شجن ذات مغزى نحو وجه أمها في اللوحة وصمتت.

مرة أخرى امتزج ذلك الخليط العجيب ـ غير المفهوم لها على الإطلاق ـ من نظرات والدها ترمقها..

أحيانًا ينتابها هاجس أنه لا يحبها.. أنه لم يرغب إلا في (أميرة) ابنة..

لكن لماذا؟ ماذا فعلت هي؟ وما معنى تلك النظرات التي تؤجج نار هواجسها..

تستطيع تمييز نظرة «كم كبرت!» لكنها مختلطة بنظرات خوف أو.. امتعاض.. أو ربما... كره!

ترحل بها تلك الهواجس إلى عالم مخيف حالك الظلام، لذلك تأبى أن تدعها تعبث بها طويلاً..

تقنع نفسها أنه لا يوجد مبرر لأن يكرهها والدها! تظل تؤكد لنفسها أنه يحبها بالطبع، فهي ابنته..

ربما فقط يهتم بـ(أميرة) أكثر لأنها حرمت من أمها..

أمهما..

أوَلم تحرم منها هي كذلك؟!

هل يدرك أن الحرمان التام أهون من حرمان غمس في الاكتفاء يومًا؟!

هي من تعاني قسوة سلب حنان أمها وعطفها لأنها خبرتها.. عرفت.. تذوقت الكأس ثم انكسرت قبل أن تروي عطشها..

وهل يصل الظمآن لذروة لهفته للماء، قبل نزول أول قطرة في جوفه؟!

ارتعشت رغمًا عنها وهربت من نظرات والدها تفتش عن هديتها لأختها..

لم تكن تعلم أن نظرات والدها قد أفلتتها منذ ثوان.. طأطأ رأسه متأملاً كلام ابنته... لكم يجب أن يشعر بالفخر والتيه.. سعيد هو بابنة تملك مثل هذا القلب.. مثل هذا العقل.. لكن من داخل بوتقة حبه لها، تنصهر مشاعر أخرى تفسد عليه سعادته تلك.. مشاعر مبعثها عدم قدرته على منح ابنة رائعة كتلك، السعادة التي تستحقها.. لم يكن يعرف كيف يملأ لها مكان أمها، وهي التي خبرت حنانها وعطفها.. لم يكن على قدر هذا التحدي وتلك المقارنة المجحفة..

كان تعويض (أميرة) أسهل وأبسط..

هي بساطة أن تضع بنفسك تعريف العطاء لمن تحب، فلا يتوقع منك غير ما علمته أن يتوقع!..

هو الذنب إذن.. والعجز.. فالخجل..

ومن انصهارهم يخرج امتعاضه من نفسه وربما..

كرهه لذاته!

تحاشت (هدى) النظر لوالدها وهي تهدي (أميرة) «كاميرا» تعلم مسبقًا اعتراض والدها الذي يرى في التصوير الفوتوغرافي تشويهًا للحقيقة.. لأن الحقيقة لم ولن تكون مطلقة أبدًا!

كانت تعلم أن في هديتها تحديًا له.. وكانت تخشى هذا التحدي وترغبه في آن واحد.. الحقيقة بالنسبة لها يجب أن تكون مطلقة مهما سولت عيون البشر لهم الكذب بشأنها..

سعادتها رحلت مع رحيل أمها.. تلك حقيقتها المطلقة..

كانت الآن تسعى لكشف الحقيقة المطلقة في نظرات أبيها المبهمة لها..

هل يحبها حقًا؟

هل يكرهها؟

هل تفضل عيونه أختها؟

أمعنت (هدى) في التحدي فخطت نحوه ومدت يدها بالـ«كاميرا» قائلة:

ـ أبي.. التقط لنا صورة.. أنا و(أميرة)..

ـ أنا؟!

ـ لا يوجد غيرك الآن يا أبي.. أرجوك.

تذهب (هدى) إلى (أميرة) ويتراجع (نبيل) في استسلام للوراء لالتقاط الصورة.. تحتضن (هدى) أختها في حنان وتبتسم لوالدها.. يراهم (نبيل) في العدسة.. يبعدها عن عينه لثوان.. يتأملهما... يود لو يرسمهما الآن عوضًا عن الصورة البكماء.. سيلون بسمتيهما بالوردي ويوسعهما قليلاً.. سيزيل نظرة الخوف والألم من عين (هدى) ويركز أكثر على

نظرة الحب البادية في عينها لأختها.. حب أمّ صغيرة... صغيرة جدًا.. ستغفل ريشته الاستدارة البسيطة عند نهدي (هدى) وستبقي على غرتها الطفولية.. سيوسع حدقتي (أميرة) قليلاً حتى تكفي كل الأحلام التي تطل منهما... سيزيد من لمعة عيونهما بالسعادة، وسيتحكم في ظلال اللوحة وضوئها حتى يظهر وجه أمهما المرسوم خلفهما.. تنظر لهما في حنان كملاك حارس..

تعيده (هدى) إلى واقعها..

ـ هيّا يا أبي! الصورة.. من فضلك.. أسرع

يبتسم..

ـ (هدى).. (أميرة)..

ـ **(البنات في صوت واحد)** نعم؟

ـ أحبكما.. أحبك أميرتي.. أحبك (هدى)..

ترتعش (هدى) مرة أخرى..

هذه المرة من فرط انفعالها بكلمة أبيها غير المعتادة لها.. «أحبك (هدى)»! هل قالها فعلاً؟! تلمع عيونها بنشوة نصر وسعادة.. تحتضن أختها بقوة أكثر في انفعال حتى تكاد تؤلمها لكن (أميرة) لا تبالي.. شيء آخر استرعى انتباهها..

يلتقط (نبيل) الصورة..

تفلت (أميرة) ذراعي أختها وتجري نحو غرفة نوم أبيها.. وقبل أن يلحقا بها تعدو خارج الغرفة تحمل صندوقًا خشبًا مزخرفا..

ـ أبي.. (هدى).. انظرا!

ـ (أميرة).. لا يمكنك دخول غرفتي هكذا من دون استئذان.. ولا العبث بأشياء لا تخصك..

ـ لكنه يخصني.. هذا الصندوق لي..

ـ هذا الصندوق كان لأمك و..

ـ **(مقاطعة أبيها)** نعم نعم.. هكذا قالت لي.. لكنها أيضًا قالت إنه لي.. منذ اليوم..

ـ قالت؟!!

أوضحت (هدى) ضاحكة وهي تلكز والدها..

ـ نعم يا أبي.. في الحلم..

وتؤكد (أميرة) قول أختها:

ـ نعم صحيح.. قالت لي إنه هدية عيد ميلادي.. وها هو.. نفس الصندوق... نفس النقوش.. هو.. هو.. لي.. لي..

مستسلمًا لفرحة (أميرة) طاوعها (نبيل)..

ـ حسنًا.. حسنًا.. يمكنك الاحتفاظ به بشرط..

ـ ما هو؟

ـ عديني بأن تحافظي عليه حتى تكبري وتعيدي إهداءه يومًا ما لابنتك.. ولا تحتفظي بداخله إلا بأغلى الأشياء إلى قلبك.. أتعدينني بذلك أميرتي؟

ـ نعم أعدك..

بينما غمرت السعادة (أميرة) لم يشعر أحد بتبدل حال (هدى)..

لم تتخيل أن يوافق أبوها على منح صندوق أمها لأختها الصغرى!

ماذا عنها؟!

هي التي تتلمس أي ذكرى لأمها حتى لو كان نفسًا أخذته في غرفة مرت بها يومًا!

كانت تلك هي المرة الأولى التي تشعر بأظفار كائن قبيح ـ أبشع من هواجسها ـ تنهش قلبها..

لم تكن تعلم أن للكائن القبيح اسما.. هو «الغيرة».

هذا المساء انطفأت عشر شمعات حمل دخانها أمنيات فتاة صغيرة..

أن تعشق يومًا ما رجلاً كوالدها تمامًا..

وأن يحبها هو مثلما يحبها والدها..

كأميرته..

وستحتفظ داخل الصندوق بكل لحظاتهما الجميلة..

فتاة أخرى على مقربة منها تمنت أيضًا من دون أن يلحظ دموعها أحد..

أن تعشق يومًا ما رجلاً يعوضها عن رحيل أمها.. وجفاء أبيها..

أن يملأ بحبه حياتها ولا يتركها لهواجسها أبدًا..

أن تنجب منه ابنة جميلة تكون لها أمًّا..

ولن تتركها أبدًا..

أبدًا!!

(٩)

٢٣ إبريل ٢٠٣٣

تحامل على نفسه ليصعد درج المنزل العتيق، الذي لم تطاله يد التكنولوجيا إلا في بعض اللمسات، للأسف لم يكن المصعد أحدها..

للخوف موسيقى تصويرية كان يسمعها بوضوح الآن.. أنفاسه المتقطعة ودقات قلبه الصاخبة لم تكن من جراء صعوبة صعود الدرج في مثل سنه فحسب.. كان الخوف يدهس كل شجاعة استجمعها لمواجهة ولده الوحيد (يوسف)..

العلاقات الفطرية أكثر تعقيدًا من علاقة الغرباء مهما توطدت. حين تصاعد الخلاف مع زوجته (أميرة) ظن وقتها أن الأمور لا يمكنها أن تصبح أكثر مأساوية.. عشقها قلبه وكرهتها كرامته. يدرك الآن أن المأساة الحقيقة هي علاقته بولده.. مثلما كانت علاقته بوالده ووالدته في ما مضى.

أن يكون لعلاقة ناموس كوني تحكمه الطبيعة والفطرة وتشوهها الظروف.. ذاك هو التعقيد بعينه!

لو أن الأمر كما يجب له أن يكون..

لكان الآن جالسًا في بيته.. يستقبل ولده بحنين لا تعكره رهبة اللقاء.. تأتيه الكلمات طوعًا ليحادثه من دون أن يشغله جفاء الرد...

فقط لو..

لكن منذ متى يشبه الواقع.. المتوقع؟؟

الآن..

هو يسابق أنفاسه المتقطعة للبحث عمّا يقول..

وماذا يفعل..

أيحتويه بين ذراعيه حتى لو أبدى مقاومة؟..

أم يكتفي بمد يده العجوز لمصافحته؟..

بل هل يمهله بضع ثوان ليفعل هذا أو ذاك من دون أن يغلق الباب؟..

قطع عليه وصوله لعتبة المنزل حبل أفكاره.. ما زال اسم حميه الذهبي يزين الباب.. ذكريات آخر مرة وقف عند تلك العتبة لعزاء (أميرة) في وفاة أبيها، احتلت مخيلته..

هل تغيرت الأمور الآن؟

حسنًا لقد تغير باب الشقة بالتأكيد.. هو أحد تلك الأبواب الفولاذ الحديثة التي لا سبيل لفتحها إلا من خلال جهاز إلكتروني يعمل ببصمة العين..

لمس سطح الجهاز بإصبعه فأضاء نور أزرق ثم ظهر اختياران..

التحقق من بصمة العين..

أو طلب الإذن بالدخول..

في تردد لمس الاختيار الثاني فطلب منه الجهاز أن يقف مواجهًا الشاشة ليتحقق منه أصحاب المنزل.. سمع أزيزًا بالداخل يشبه رنة جرس الباب القديمة..

كل شيء صار أكثر تعقيدًا وأقل حميمية.. تمامًا كعلاقته بـ(يوسف)..

ظل منتظرًا دقائق مرت كدهر يلعن فيها التقنيات الحديثة، التي ربما ستعطي (يوسف) الفرصة ألا يفتح له الباب على الإطلاق، حين تظهر صورته على الشاشة بالداخل...

تكة انفتاح الباب بدت له أشبه بمسدس يستعد للانطلاق..

هل ينفتح الباب؟

هل ينفتح له قلب ولده؟

أم ينطلق الزناد وينتهي كل شيء؟

انفرج الباب رويدًا حتى اتسع المدخل لدلوف (مصطفى) لكن (يوسف) كان يسد المدخل بجسده.

تبادلا نظرات تكافأت فيها حرارة المشاعر...

لكن شتان بين حرارة الغضب وحرارة الاشتياق!..

فالأولى تحرق جسور التلاقي..

والثانية تنطفئ عند التلاقي!

لم يقو (مصطفى) على أي فعل.. لا مصافحة.. ولا حضن.. ولا أي كلام.. فقط انتهز ابتعاد (يوسف) قليلاً عن مدخل الباب ليدخل..

سامحًا لكل ضعفه وعجزه بالطفو للسطح غاص في أول مقعد صادفه من دون أن يلتفت لـ(يوسف).. ظل مطرقًا بنظره للأرض حتى قطع عليه (يوسف) سكونه..

ـ ماذا أتى بك الآن؟

ـ ... (يوسف).. ولدي.. اسمعـ...

ـ ولدك؟؟ **(يضحك بافتعال)** آه! ولدك.. نسيت هذا الأمر.. أنا ولدك.. صحيح؟؟ **(أردف في تهكم)**.. هلا أريتني إثبات شخصية؟؟ لست واثقًا من أني أتذكر ملامحك كما يجب.. ربما الاسم سيؤكد كل شيء.. يا.. والدي!

همّ (مصطفى) بالنهوض فقطع عليه (يوسف) الطريق حاجزًا إياه بكلتا يديه على ذراعي المقعد. في غضب نهره..

ـ لا.. ليس ثانية! لن أسمح لك بالهروب.. عادتك المفضلة! ستجلس.. وستتحمل غضبي حتى النهاية وستجيب على أسئلة طاردتني طويلاً.. لن تأخذني بك شفقة لسنك الكبيرة مثلما لم ترحم سني الصغيرة برحيلك. اجلس!

تراخى (مصطفى) في مقعده مستسلمًا.. دامعًا ومبتسمًا!

ـ وأنا مستعد! بل أطلب منك أن تغضب.. أن تسأل.. أن تستعيد حقك فيّ كأب.. لأستعيد أنا حقي فيك.. كابن.. ربما هذا ما كان يلزم أمك أن تفعله! أن تغضب.. لأجل حقها فيّ.. لا حقها عندي! أن تمنعني من الهروب! ربما ما حدث أي من هذا..

ـ مهلاً.. لن نبدأ باتهامات هنا! ستحكي لي من البداية.. لا أريد غير الأحداث.. لست مهتمًا بوجهة نظرك للأمور.. ولا أسعى إلا لاستعادة الجزء المفقود من ذاكرتي!

ـ سأحكي لك كل شيء... من البداية.. لكن ربما لن تكون البداية التي تألفها أنت.. فالبداية جاءت منذ سنوات طويلة للغاية قبل ميلادك.. قبل حتى أن ألتقي أمك.. هل تستطيع معي صبرًا؟

ـ **(يهز كتفيه في لامبالاة)** نعم، لا يهمني من أين تبدأ.. المهم أن تصل للنهاية.. النهاية التي دمرتني..

ـ فلتعلم يا بني أن بعض البدايات أكثر تدميرًا من النهايات..

ـ **(في سخرية)** يا لحكمتك! ولتعلم أنت أن العيب ليس في البدايات ولا النهايات، ولكن فيمن يصنعونها!

أطرق (مصطفى) رأسه في حزن وخجل...

ـ صدقت.. حسنًا.. لنبدأ إذن بقراءة الفاتحة على روح جدّك..

ـ **(رافعًا حاجبيه في تساؤل)** جدّي (نبيل)؟!

ـ بل أقصد جدّك الذي لم تلتقه قط.. أبي.. (نائل).. الدكتور (نائل).. طبيب «النسا» الشهير..

ـ «نسا»؟! خلته طبيب أمراض نفسية... ربما أكون نسيت..

ـ **(في شرود)** نعم... معك حق.. هو كان طبيبًا نفسيًا.. الذي أقصده (نائل) آخر... خلق من عدم ورحل إلى عدم.. وما بينهما حول حياة الآخرين إلى جحيم..

ـ **(في حيرة)** أنا لا أفهم.. (نائل) جدي طبيب نفسي.. من (نائل) الآخر؟ وما علاقته بحكايتنا؟

ـ أنا..

ـ أنت؟؟!

ـ ظننت لفترة أنني (مصطفى) وحسب.. ثم اتضح أنني عدة شخوص أخرى... والدي.. جدك (نائل) أحدها... أتدري لماذا لا يفهم المرء نفسه؟ لماذا يفاجئ نفسه أحيانًا بتصرف لا يتماشى مع ما يعرفه عن ذاته؟ ألم تسأل نفسك يومًا كيف يحاسب المرء ذاته؟ ما هو كنه هذا الصوت الداخلي الذي يهمس في أذنك ويوعز إلى قلبك؟ كيف تدخل أرواحنا حروبًا

أهلية مع أشباح تسكننا؟.. تساءلت أنا كثيرًا واكتشفت في النهاية أن كلا منّا ليس ذاتًا واحدة فحسب.. بل أصداء عدة أرواح مختلطة وممتزجة تسكن الجسد الواحد.. ومثل الغابة تمامًا.. البقاء للأقوى.. ستسودك الروح المسيطرة إلى أن تهزم في أحد معاركها مع الأرواح الأخرى... الجريمة التي فعلتها في حق نفسي وحقك، هي أنني استحضرت من دون وجه حق روحا ضعيفة تسكنني، وأطلقتها في عالم الخيال ولم أكن أدري كم هو واه، ذاك الخط الفاصل بين الخيال والحقيقة..

أنا (مصطفى)..

وأنا (نائل)..

في جسدٍ واحد..

تجولت الكلمات على طرف لسان (يوسف) محاولة إيجاد صيغة سؤال مناسب لكنها لم تتفق.. للمرة الأولى يدرك كم هو عجوز أبوه.. وللمرة الأولى أيضًا يرق له قلبه..

هل أصابه الخرف؟!

سؤال ذاب داخل مزيج من شفقة وإحباط وتجرعه وحده.. ربما لن يعرف الحقيقة بعد كل شيء... هل تأخر الوقت كثيرًا فصارت الحقيقة حبيسة الجنون؟!..

أدرك (مصطفى) ما يجول بخلد ابنه.. السؤال لم يذب تمامًا.. بل كان يهدر بوضوح من بين أمواج حدقتيه الحائرة.. أشفق عليه.. ثم أشفق على نفسه.. لا بد من أنه يظن أنه مجنون..

هل ينجو من مشنقة تهمة الغدر لتقصله تهمة الجنون؟!..

مستعيدًا شجاعته مرة أخرى لمواصلة ما بدأ استأنف..

ـ أرجوك بني.. إن كنت تبحث عن الحقيقة بصدق فلا تنصب نفسك حكمًا.. دعني أكمل كل القصة من البداية للنهاية.. وعدتك أن أحاول أن أنحي وجهة نظري في الأحداث جانبًا وأرويها لك كما حدثت.. كعدسة كاميرا ترى من خلالها الماضي بقدر ما أتذكر من تفاصيله.. لكن يجب أن تعدني أنت أيضًا أن تنحي وجهة نظرك فيّ.. لا تتهمني بالجنون.. ليس بعد..

ـ حسنًا.. أعدك.. وسأصمت تمامًا وأدعك تكمل و...

تاهت عنه الكلمات مرة أخرى حين وجد أباه يلتفت يمينه ويساره على غير هدى..

ـ هل... هل تبحث عن شيء؟!

ـ بلى! أمك! أليس من الأفضل أن تحضر حديثنا هذا حتى تضمن أني لا أخلف وعدي معك؟ أين هي؟! عبيرها قريب.. الخُزامي... هل هي بغرفتها الآن؟ لا بد من أنها لا تريد أن تراني أليس كذلك؟ لابأس يا (يوسف) لا تحزن هكذا أنا أتفهم موقفها.. هو يغضبني لكني أتفهمه.. لا بأس.. لا بأس..

ـ آ.. أبي.. أنا..

لو أن بركانًا ثار وزلزالًا قام وإعصارًا ضرب الأرض في ذات اللحظة، لما وصلت قوتها مجتمعة لقوة خفقة قلب (مصطفى) الآن وهو يسمع تلك الحروف الثلاث..

أبي..!

هل قالها حقًا؟!

لم يكد يبدأ قصته بعد! القصة التي لم يكن يأمل لها غير نهاية من كلمة واحدة..

أبي..

أتسبق النهايات البدايات؟

هل انتصر على الزمن قبل أن تبدأ المعركة؟

لم يشعر بنفسه إلا وقد انفجر في بكاء مرير، يحمل قسوة كل الأيام التي عاشها بمفرده محرومًا من تلك النعمة الواحدة، التي تحمل بداخلها سر جميع النعم الأخرى..

السكن..

الروح التي تشاركك الحياة..

تلك التي أتم بها الله نعمته على أول خلقه آدم ليصبح لكل شيء طعم ولون وغاية..

أراد أن يقفز مرتميًا داخل أحضان (يوسف) يستكمل بكاءه هناك، حيث يتعانق الفرع مع الجذع فتدب فيهما الحياة، لكن شيئًا ما منعه.. نظرة الحيرة الممزوجة بشفقة في عيني (يوسف) أخبرته أن الوقت لا يزال باكرًا.. لقد أيقظ ضعفه روح الابن الطيبة الشهمة داخل (يوسف) لكنها لا تزال روحًا ضعيفة تسيطر عليها روح أخرى غاضبة للغاية وسرعان ما ستستعيد سيطرتها في أي لحظة..

ربما أخطأ حين صور له غروره أنه هزم الزمن..

ربما فتح متاريس حصن عنيد، لكن خلفه جنودا عتاة لا يموتون بسهولة.. بل ربما.. لا يموتون أبدًا!

إنهم الذكريات.. الذكريات أقوى جنود الزمن..

بلى.. أحمق هو من يظن أن يُهزم الزمن بتلك السهولة!

استجمع (مصطفى) شجاعته وتوقف عن البكاء.. على الأقل يعلم أن هناك بصيصًا من أمل لاستعادة ابنه الوحيد.. يدرك الآن كيف سيكسب معركته.. سيقلب السحر على الساحر وسيهاجم الزمن بجنوده.. زفر زفرة طويلة بينما يستعيد عقله الأحداث تباعًا فرجع إلى تلك الليلة..

الليلة التي تغير فيها كل شيء..

ليلة ظهور (نائل).. طبيب «النسا» المعروف..

وبدأ يحكي..

(١٠)

١٦نوفمبر٢٠٠٠

كم هي جميلة..

أطفأ (مصطفى) المصباح الجانبي بجواره.. ثم أضاءه مرة أخرى..

ابتسم مزيحًا خصلة شعر من على جبينها..

نعم.. جميلة بحق!

النساء كالأطفال.. ما أجملهن وهن نيام!.. حيث لا صراخ ولا انفعال ولا بكاء ولا حواجب معقودة أو مدهوشة.. لا خطوط زائدة تشوه جمالهن.. جبين أبيض صاف.. ثغر شبه باسم وجفون منسدلة تخفي خلفها وجهًا ما.. تتخيله أنت..

فتدرك مدى عشقك!

مر على زواجه بـ(أميرة) خمسة أشهر الآن وما زال لا يصدق أنه حدث!

لقد تزوجته!..

ما الذي رأته فيه ذلك اليوم حين رآها لأول مرة؟..

مجرد رجل ثلاثيني يقف أمام إحدى لوحات والدها في معرض النادي. قاده القدر يومها إلى هناك بطريقة عجيبة. أبلغهم يومها في شركة الأدوية الكبيرة التي يعمل بها مذ تخرج في كلية الصيدلة، أنه لن يأتي إلى العمل. مريض، هكذا قال. كذبة بيضاء.. ثمن بخس لساعات غالية يقضيها من دون فعل أي شيء، فقط لأنه لا يريد. لكنه ما أن فعل حتى ندم.

لم يستسغ ساعات الراحة المسروقة. لا يوجد كذب أبيض. الكذب لا لون له. هو كلمات باهتة من حروف وهمية تموت لحظة ولادتها أو..

أو تترك مسخًا مشوهًا يحاول أن يبدو كحقيقة.

لم تولد بعد كذبة غير ضارة حتى وإن لم تضر أحدًا..

ولا توجد كذبة وحيدة..

الكذبة تتكاثر بمفردها حتى تصير مستوطنًا من الكذب..

ستتقرب منك وتصادقك وتقنعك ببراءتها من الشر وأنها حقًا... بيضاء!..

وما أن تسلم لها لسانك حتى تستعمر عقلك فقلبك فروحك..

ستصير عبدًا..

وتقدم السلام بداخلك قربانا..

وسيزدريك ضميرك حتى يأتي اليوم الذي يتخلى فيه الصدق عنك للأبد..

فتصدق أنت نفسك كذبتك..

حينها تكون النهاية..

نهايتك!

تقلبت يومها تلك الكلمات داخل عقله مع تقلبه في الفراش معطيًا ظهره لأفكاره. فكر لوهلة أن يذهب للعمل مدعيًا أنه شعر بالتحسن لكنه يعلم أن تلك كذبة أخرى وبداية مستوطنة!

في حياة أمه تعلم أن يصادق وحدته لكن الآن وقد رحلت إلى بارئها رحل معها كل شيء.. كل شيء كرهه أو أحبه يومًا.. حتى وحدته رحلت معها فلم يعد يأنس بذاته!

لم يقرر يومها الذهاب إلى النادي. مكان مزدحم بأناس مبتهجين وصخب أطفال ورعونة مراهقين، وربما همسات محبين خلف الأشجار..

هو أبعد من أن يتخذ قرارًا بهذا الحمق!

كان (لؤي) هو من فعل..

نعم لم ينجح في التخلص من صداقته نهائيًا.. كان يغيب شهورا ثم يطفو فجأة إلى السطح كورقة مهملات ليعكر صفو وحدته.. فاجأه صوته حين رد على هاتف منزله..

ـ «آلو».. (مصطفى).. هذا أنا (لؤي) أنسيتني؟

أراد (مصطفى) إخباره أن نعم نسيتك! ما وجه الغرابة في ذلك؟ هل يتوقع أن يحجز له مكانًا في عقله المزدحم في أثناء غياب دام لأشهر، لم يفكر حتى في الاتصال به لتعزيته في والدته؟

ما بال البشر يسألون أسئلة لا منطق لها؟!

كأنهم شياطين تحرضك على أن تدعي وتنافق وتكذب.. هم يتركونك بين خيارين..

الكذب عليهم أو الكذب على نفسك..

تبًا لهم.. تبًا لـ(لؤي)..

ألم أقل إن الكذب يتكاثر ولا ينتهي؟!

ـ لا.. طبعًا لا.. أمعقول أن أنساك.. (أضاف بتهكم) صديق العمر لا ينسى.. أنت هو الذي اختفى..

ـ **(تهدل صوته في اكتئاب)** آسف يا صديقي.. إنها الظروف.. الطلاق وخلافه..

ـ الطلاق؟ الطلاق يكاد يكون مر عليه عام الآن.. وأعلم أنك تزوجت بأخرى..

ـ طلقتها!

ـ ماذا؟!

ـ **(في انفعال)** وما وجه الغرابة في هذا؟.. النساء يا صديقي.. إنهن أفاع.. ألم يخبر عنهن الله بأن كيدهن عظيم.. حقًا.. لا يستحققن أن نضيع أعمارنا عليهن... هكذا أفضل.. ما هن إلا مجانين مهووسات بالسرير والإنجاب.. ناقصات عقل..

ابتسم (مصطفى) بداخله في تهكم.. كان غريبًا عليه أن يسمع في حديث (لؤي) بالذات.. كلام الله! هو أبعد ما يكون عنه.. وربما يكون غير مدرك لوجوده.. ليس لأنه لم يركع قط ولم يمسك يومًا عن طعام أو غير طعام.. بل لأنه يملك نفسًا لم تحاسب ذاتها قط!

الفاصل بين طريق الإيمان وطريق الكفر، ليس كم الذنوب، وإنما حجم إدراكك أنها ذنوب.

هو يبصق يشتم يضرب يكذب من دون أن يهتز له جفن... لم ير في عينيه يومًا أي لمحة ندم أو عتاب لذاته أو حتى تساؤل عن عاقبة ما فعل ويفعل. لا يذكر الله إلا إذا كان معنيًا بجلد الآخرين على جريمتهم الشنعاء... نبذهم له!

وقد ازداد السوء في طباعه مع بداية سلسلة من العلاقات النسائية الفاشلة انتهت بفضيحة طلاقه الأول الذي أشاعت فيه امرأته أنه كان يضربها بسبب عجزه في السرير. في البداية لم يصدق (مصطفى) ومال لتصديق ادعاء (لؤي) بأنها تنتقم منه لأنه لم يطق معاشرتها بسبب انعدام إحساسها بأي متعة زوجية.. لكن.. كلما سمع عن شجار (لؤي) مع أحدهم

وتورطه في المشكلات وانفعاله الزائد غير المبرر، أيقن أن تلك التصرفات الهمجية لا تتولد إلا عن إحساس واحد فقط...

العجز!

ستهاجم الآخرين حين تعجز عن الدفاع عن نفسك..

وستكره النساء حين تعجز عن حبهن...

وستحنق على الأقدار حين تعجز عن اتخاذ قرارات صائبة بنفسك..

العجز.. هو عدو الإنسانية الأكبر...

العجز ينجب قهرًا وخوفًا وكرهًا..

تُرى..

هل أنا أيضًا مثله... عاجز؟!

ما من فضيلة في الشعور بالشفقة.. ففي الشفقة بعض من كبر.. أنت تشفق على الآخرين لأن وضعك أفضل منهم.. الفضيلة فقط في الرحمة التي تتفتح في قلوبنا إذا ما وضعنا أنفسنا محل الآخرين واقتنعنا أننا لسنا بأفضل..

لذا، وافق يومها (مصطفى) على لقاء (لؤي) في النادي لكي يتوسط له هناك عند أحد معارفه لإيجاد عمل بعد أن طرد من عمله الأخير بسبب «الظروف». وبعد أن أتم مهمته وفي طريق الخروج، استوقفته الغرفة ذات الواجهة الزجاجية شبه الخالية من البشر..

قرأ على الباب (معرض الفنان/ نبيل مراد)..

على الحائط لوحات جذبت انتباهه إليها.. دلف للداخل في حذر.. لا يريد أن يوقظ مارد الرسّام بداخله وهو الذي أغلق عليه المصباح جيدًا منذ سنين..

ولكن..

شيء ما في تلك اللوحات كان يدعوه للدخول كأنها تخاطبه.. كأن صداقة ما ربطت بينه وبين تلك اللوحات في يوم ما..

كان يتأمل كم الألوان في تلك اللوحة بالذات.. وجه امرأة بعيون منكسرة مبتسمة.. وجهها مليء بالأصباغ لكنها لا تشوهها.. تعطيك إحساسًا بأنها.. الحياة!

داهمته هي في تلك اللحظة.. لحظة تحرك حنينه القديم للرسم في حشايا قلبه..

ـ تعجبك؟..

التفت لها (مصطفى) في بلاهة وارتباك المراهق القديم..

ـ ماذا؟

ـ **(تبتسم في ارتباك هي الأخرى)** اللوحة.. أتعجبك؟

ـ نعم..

في الثواني اللاحقة على إجابته، استعاد رباط جأشه مرة أخرى، وكاد يدهس جرأتها بسؤال وقح عن ما دخلها هي إن كانت اللوحة تعجبه أو لا!

لكنه تراجع..

شيء ما في ملامحها جعله يشعر أنه أمام زهرة بيضاء صغيرة للغاية ستنسحق بالفعل إن أحرجها.. لاحظ ارتباكها على رغم جرأتها.. هي غير معتادة على مثل هذا الموقف ولربما

وقفت عدة دقائق تستجمع شجاعتها لكي تدلي بهذا السؤال المقتضب.

السؤال الحقيقي.. لمَ فعلت؟

أجابها (مصطفى) في هدوء:

ـ الألوان..

ـ نعم حقًا.. أجمل ما في تلك اللوحة ألوانها.. كثيرة للغاية لكنها لا تغضب العين بل على العكس تغازلها.. لكن أتعلم ما العبقري حقًا فيها؟

ـ الابتسامة..

ـ آ... **(عقدت ذراعيها وهي تتفحصه)**.. ممم.. ليس من اللطيف ألّا تدع فتاة تبهرك حين تأتيها الفرصة لذلك يا أستاذ...؟

ـ **(ضاحكًا)** (مصطفى) بدون أستاذ.. **(مد يده مصافحًا)**

ـ **(مدت يدها بدورها)** أميرة نبيل مراد..

ـ **(رافعًا حاجبيه)** أها! أنت إذن ابنة الفنان.. لا عجب أنك ترين اللوحة عبقرية..

ـ بل أميرته.. واللوحة عبقرية فعلاً.. بلا تحيز..

ـ عذرًا.. لم أقصد إغضابك..

ـ وأنا لم أغضب.. أردت فقط التوضيح.. لم أتحيز.. وإن كان التحيز في المطلق ليس بعيب.. إلا إذا كنت حكمًا.. إذا لم نستطع التحيز.. لن نستطيع أن نحب..

ـ معك حق.. لكن السؤال الأهم هنا في تلك القضية... **(عقد حاجبيه في جدية وصمت بضع ثوان..)**

ـ **(في تحفز)** ها..

ـ **(مرخيًا تعبيراته ومبتسمًا)** لمَ أردت إبهاري؟!

ما زال يذكر تورد وجنتيها بعد عبارته تلك، كأن الزهرة البيضاء انقلبت وردية، ولمع الندى على صفحتها.. ليست المرة الأولى التي يتأثر فيها الجنس اللطيف بإحدى عباراته، لكنها المرة الأولى التي يتأثر هو بانفعال إحداهن بها، وبخاصة أنه لم يتعمد هذه المرة.

يومها أخذا يتجولان في المعرض ويتناقشان عن كل لوحة.. لمح في عينيها انبهار بكل تعليق يسكب فيه قراءاته في عالم الفن والألوان.. الرابط الوحيد بينه وبين هذا العالم في السنوات الأخيرة.

لا يؤمن هو بالحب من النظرة الأولى..

يعتبره مراهقة وسخف أن نربط بين مشاعر بتلك القدسية، ومجرد الشكل..

لكن..

لن ينكر أن ما شعر به يومها لو لم يكن هو الحب، فقد اقترب منه كثيرًا ومهد له الطريق.

في خلال ساعة واحدة شعر أنه يعرفها منذ زمن بعيد.. كأن اسمها مسطور في أقداره من دون أن يدري.. (أميرة).. يبدو مألوفًا بشكل ما، كأن جنية همست به يومًا في أذنه ثم أسقطه النسيان. ليلتها شعر ربما لأول مرة، بإحساس غريب يدحض جموده ورماديته..

هل هذا ما يعرف بالسعادة؟!

كيف يعرف وهو الصائم قسرًا عنها عمرًا بأكمله؟

الأيام اللاحقة دب فيه نشاط عجيب.. أقبل على عمله وضبط نفسه أكثر من مرة وهو يعبر بجوار مرآة... مبتسمًا! قاوم اعترافًا لنفسه بأنه وقع في هواها.. أيام فأسابيع فشهور.. راهن على أن جذوة انبهاره ستنطفئ وكذلك انبهارها هي.. سرعان ما ستكتشف الكائن الرمادي القابع في أعماق روحه وحينئذ ستزهده.. لكن رهانه سعى بخطى واسعة نحو الخسارة.. حتى رجع ذات ليلة بعد لقائه بها وأمسك بورقة وقلم وأخذ يرسم ـ لأول مرة منذ سنين بعيدة ـ ملامحها الملكيّة.

لحظتها أدرك أن روحه تطهر بين يديها..

وأنه..

يحبها!

تأمل مرة أخرى قسماتها التي وقع في هوى كل تفصيل منها ما عدا واحد..

خطّي الجبين الغاضب!

ظهر لأول مرة في خلاف تافه بينهما أيام الخطبة.. ثم عاود الظهور بعد زواجهما مرات قليلة.. ثم أكثَر من زياراته بعد الإجهاض الأول...

لم يكن يتحمل غضبها.. كان يرتعد من مجرد فكرة أن تسقط من على عينيها غشاوة الحب، فتراه على حقيقته.. مسخ بشري لا إرادة له.. فاشل.. جبان..

ألم يكن هذا رأي أجدر النساء بتصور الكمال في صفاته.. أمه!

كم أراد أن يخفف من حدة غضبها بعد الإجهاض.. أخبرها أنه حادث عادي متكرر، يعاني منه كل المتزوجين حديثًا.. وسواء حدث أو لم يحدث حمل.. فهو لا يهتم أبدًا.. هو يريدها

هي فقط.. هي الأهم بالنسبة له. كان حديثه يثير أعصابها بشكل ما، فيجدها أكثر غضبًا مما كانت قبل أن يفتح فمه. في النهاية صمت تمامًا.. ترك للزمن أن يداويها، لكن مرارة فشله في التخفيف عنها كانت تطارده في لحظات تأمله.

لثم الجبين الهادئ الآن.. مرة.. مرتين.. ثلاثا..

تتصارع بداخله رغبة أن يترك وجهها الحالم على حاله، فلا يوقظها، ورغبته في أن يقصي عنها النوم... وقميصه!

تقلبت في نومها منزعجة وأوشكت مخاوفه على التجسد على جبينها الساكن، فآثر الابتعاد مرغمًا. لو أن نومه يضمن له أن تدخل عالم أحلامه على نفس هيئتها وهي نائمة هكذا لفعل! لكنه مَنفيٌّ من عالم الأحلام فهي لا تزوره أبدًا. ينام فقط لينفصل عن الواقع إلى تلك الكوة السوداء التي لا حياة فيها، ليعبر لليوم التالي.

أغلق باب الغرفة خلفه في هدوء، واتخذ مكانه خلف حاسوبه في غرفة المعيشة المظلمة.

«كليك».. «كليك».. «كليك».. ثلاث نقرات.. يبدأ بعدها السحر..

صوت حرارة الخط.. ثم نغمات أزرار هاتف خفي.. كأنه اتصال بعالم آخر..

لحظة صمت مهيب.. يكاد يكتم معها أنفاسه، مترقبًا استجابة كائن ما في البعد الآخر..

ثوان وتبدأ أصوات صرير مخيفة.. كأنها.. صراخ عدة شياطين استدعتها نقراته الثلاث من جحيم مجهول...

يهدأ الصرير ويتحول لصوت شوشرة معلنًا بدء البث.. أو.. محاولة العبث به..

ثم..

صمت مستمر..

لقد ولج..

عالم «الإنترنت».. بالنسبة له كان ملجأه من العالم الحقيقي بكل ظلامه وقبحه.. فرصته لكي يتبرأ من كل الظروف والأحداث التي صيرته ما هو عليه.. ليطفو جوهر روحه الحقيقي.. يتجلى في حروف مستقيمة متساوية تخلو من ارتعاشة يده في الكتابة.. من قبح خطه.. وكآبته.. وماضيه..

يصبح من يريد..

أو على الأحرى..

من كانت أمه تريده أن يكون..

(د. نائل)..

هو اسمه المستعار على برنامج المحادثة (ICQ).. وإمعانًا في التمويه استعار عمرًا آخر أكبر من عمره بعدة سنوات، كافية لتجعله شابًا متحققًا كطبيب ذا مكانة معقولة، من دون أن تجعل منه كهلاً.. كان اختلاق الأمور الأخرى سهلا.. استمتع كثيرًا بوضع هوايات واهتمامات زائفة... ماذا يحب؟.. لا.. ليس هو.. بل ماذا كان (د. نائل) ليحب؟.. الرياضة.. يبدو معقولاً لشخص ذي بنية رياضية مثله.. بالأخص السباحة.. ربما ركوب الخيل أيضًا.. سيجعله هذا يبدو أرستقراطيًا.. ربما أزيد من اللازم.. كما أنه في الحقيقة لا يحب الخيل من شدة خشيته منها..

من شروط الكذبة الناجحة ألّا تشط كثيرًا عن الحقيقة..

بل تحوم حولها..

تتمثل بها ولا تماثلها..

لذا، دس بين اهتماماته الزائفة.. النحت.. وليس الرسم.. شيء يعلم عنه الكثير بحكم قراءته، وإن لم تكن هواية مارسها قبلاً.. بقي شيء واحد يجب أن يحدده حتى لو لم يطلب منه البرنامج ذلك، لكنه سيكون أول أسئلة التعارف التي تتبادر للذهن.. تخصصه كطبيب.. كانت تلك أصعب كذبة.. توجهه الأول «نفسي» لكن ذلك التطابق في الاسم والمهنة مع والده خطر... لربما صادفه أحد ما سمع عنه وهو الطبيب الشهير فاكتشف الأمر برمته.. الاختيار الأقرب بعده كان «باطني».. لكن.. قد يغري هذا التخصص البعض في استشارته في علة ما.. وصحيح أن بحكم عمله في الصيدلة كان بمقدوره وصف بعض أدوية الضغط أو السكرى.. علاجات للبرد أو ما شابه، لكن ماذا لو كان الأمر أعقد من ذلك أو فوق مستوى خبرته؟!.. استقر في النهاية على تخصص لم يرتح له كثيرًا لكن ظنه الأكثر أمانا.. من الذي سيرغب في تشخيص من طبيب «نسا» عبر الإنترنت؟!

أخذ يراقب البتلة الخضراء تدور على سطح الزهرة الحمراء أيقونة البرنامج وهو يسترجع تلك اللحظات الأولى لنسج كذبته.. شعر بعدها بالخجل قليلاً.. أولى به ألا يتصرف هكذا كمراهق يلهو من وراء ستار شاشة وبعض الكابلات! لكنه نفض عنه هذا الشعور فشيء ما في كذبته لم يكن بنفس قبح الكذب..

أنت تكذب لتنجو من فخ ما.. وعادة تضطر لذلك.. لكنه يكذب من باب رغبته في تجربة إحساس الوقوع في فخ نصبه بنفسه لنفسه!

تمامًا كرغبته أول مرة في تدخين السجائر.. لم يعجبه قط طعمها ولا استساغ يومًا رائحتها.. لكن شهوة أن تنفث دخانها من بين شفتيك فتزفر معها كل ما يحترق بصدرك، كان مريحًا بشكل عجيب!

على أي حال كان موقنًا أن الاختلاف الأكيد في تلك الكذبة عن غيرها، هو سيطرته عليها.. مهما تمادى يستطيع التبرؤ منها في أي لحظة.. يلغي الحساب كأن شيء لم يكن.

استقرت البتلة الخضراء في مثواها الأخير داخل الزهرة، لتحيل لونها بالكامل إلى الأخضر، مع مصاحبة صوت نفير عال معلنًا بدء الرحلة..

رحلته كـ(د. نائل)..

ظهر المستطيل الرمادي خاليًا من أسماء الأصدقاء.. لم يكن قد استقر على إضافة أحد بعد... تجول قليلاً داخل غرف المحادثة بحسب مواضيع الاهتمام.. «أصدقاء جدد»... «نكره اللون الأزرق».. «الحب يملأ المكان»... «تعارف».. «للنساء فقط»...

اكتفى بالتجول من دون أن يشترك في أيٍّ من الأحاديث.. توقف قليلاً عند غرفة «الحب يملأ المكان» من قبيل الفضول.. راقب الحديث..

NeW_MaN: **مين صاحي؟؟**

IMe: **أهلاً..**

Dr. Love: **أنا.. *IMe* بنت أو ولد؟؟**

Arfan: **بتعملوا إيه؟!**

IMe: **بنت... *Arfan*.. بنتكلم... أرفان من إيه بقا؟!**

Dr. Love: **ابعتيلي صورة..**

Arfan : ***IMe* عندك كام سنة؟**

NeW_MaN: **انتِ حلوة؟**

IMe: **!!!؟؟؟**

IMe: Ba7eb_el7aram سيبك منهم.. أنا ولد محترم... ممكن نتعرف باحترام؟

شعر بقليل من الغثيان في معدته فأغلق الغرفة على من بداخلها، متمنيًا أن ينهدم سقفها عليهم جميعًا.. حسنًا ثمة زر لم يجرب استخدامه قبلاً.. لمَ لا يجرب الآن؟! اتجه برأس السهم الأبيض نحو أعلى القائمة إلى الوجه المبتسم الذي يجاور علامة الاستفهام...

..Available For Random Chat

ما الضرر؟ سيكون لمدة لحظات متاحًا بشكل عشوائي.. من دون تدخل منه.. من دون سعي خلف موضوع محدد أو أناس بعينهم.. لن يختار.. سيختاره أحدهم.. إحداهن على الأرجح..

مرت بضع دقائق من دون أن يحدث شيء...

أخذ يتجول بالسهم على شاشته من دون هدف محدد..

دقائق أخرى مرت من دون حدوث شيء، وغضب ما كان قد بدأ يعتمل في صدره..

لمَ لا يختاره أحد؟...

بدأ يراجع داخل عقله رسمه للشخصية الوهمية التي خلقها، ظنًا منه أنها جذابة بالقدر الكافي.. يكفي أنها ليست هوا! أين الخطأ يا ترى؟.. هل يبدو جادًا أزيد من اللازم لأنه طبيب؟.. دخل على اختيارات تعديل الاسم المستعار... فكر قليلاً ثم أزاح حرف الدال تاركًا اسم (نائل) مجردًا من ألقابه... تأمله لثوان ثم أضاف بعده ثلاث نقاط وعلامة تأثر.. (نائل...!).. قبل أن يضغط زر الحفظ طرق أذنه ذلك الصوت الذي يعلن وصول رسالة..

..«Oh ـ Uh»

أغلق الاختيارات سريعًا من دون حفظ فعاود اسمه المستعار الظهور بنفس الطريقة (د. نائل).

كانت الرسالة من أحد ما يدعى (٥٦٤٧٧١٨).. لا اسم.. لا معلومات.. فقط ٧ أرقام.. اسمه أو اسمها..

«الساعة الآن الرابعة فجرًا بتوقيتكم... ماذا تفعل؟»

ـ ماذا تفعل؟!

انتفض من داخله لمصادفة أن تنطق (أميرة) من خلفه نفس الكلمات التي كان يقرأها في الرسالة توًا! لكنه تماسك حتى أغلق نافذة المحادثة.. واستدار مبتسمًا لزوجته الناعسة..

ـ لا شيء حبيبتي.. آسف إن كنت أيقظتك..

ـ لا أبدًا.. استيقظت بسبب... كابوس..

ـ لا تجزعي.. كل شيء بخير.. بمَ حلمت؟

ـ بك!

ـ أها! كابوس ولا شك!

قالها مبتسمًا في مرارة.. لكنها استطردت في جدية..

ـ لم نكن وحدنا.. كان معنا.. طفل صغير.. كأنه خمس سنوات تقريبًا.. كنت تلعب معه وتقذفه في الهواء.. حتى..

ـ حتى ماذا؟

ـ حتى قذفته إلى النهر فسقط وأخذ يستغيث بك لكنك لم تنقذه!.. ألقيت بنفسي خلفه، وقبعت أنت بالأعلى تنظر لنا بخوف من دون أن تفعل شيئًا..

أخذت ترتجف ودموع تصعد إلى مقلتيها، فاحتضنها يهدئ من خوفها الذي امتزج فيه الخيال بالواقع...

كان يعلم جيدًا كم تشتاق لكي تتفتح براعم أمومتها ومدى خوفها من ألّا يحدث أبدًا.. كل كوابيسها صارت حول طفل يضيع.. طفل يغرق.. طفل يسقط.. لكن لأول مرة يصبح هو أيضًا.. جزء من كابوسها!

أفلتت نفسها من حضنه كأنها غاضبة منه هو، ليشعر مرة أخرى بأبشع شعور على الإطلاق..

العجز!

ربتت (أميرة) على كتفه من دون أن تنظر مباشرة إلى عينه..

ـ سأعاود النوم.. ألن تأتي؟.. ماذا كنت تفعل؟

تأملها قليلاً في حيرة.. لماذا ترغب في أن يأتي للنوم بجوارها وقد رفضت حضنه للتو؟!

استدار للشاشة التي لم يظهر عليها أي رسائل أخرى وأغلق الحاسوب بأكمله مفلتًا تنهيدة يائسة..

ـ لا شيء.. أنا قادم..

ابتسمت له في حنان وألقت بنفسها في حضنه لتعتصر صدره بذراعيها..

مرة ثانية يمزقه عجزه..

عجزه أن يفهمها..

أو يفهم نفسه!

(١١)

١٧نوفمبر٢٠٠٠

ـ (دنيا).. (دنيااا).. هيا يا ابنتي استيقظي.. دنيا.. الجامعة يا ابنتي..

ـ أووووووه... اتركيني أنام.. وضعت رأسي على المخدة حالاً.. كفى إزعاجًا..

ـ سامحك الله يا ابنتي... الحق عليّ.. لكن.. أوصتني أمك أن أوقظك لكي..

ـ يا داداااا الرحمة! لست طفلة ولا أحتاج وصاية لا منها ولا من أي أشخص.. أنا متعبة لن أذهب للجامعة اليوم.. من فضلك.. اتركيني لأناااام! أووووف

ـ ولكن...

صرخت (دنيا) بكل قوتها في وجه مربيتها العجوز، ثم ما لبثت أن ندمت بعدما رأت علامات الفزع والشعور بالإهانة، تفترش وجهها الطيب المنهك من وطأة الحياة. اعتدلت على سريرها الأرجواني وألجمت الخصلات الحمراء المموجة للوراء بكفها. نظرت لمربيتها في غضب يحاول التراجع..

ـ لا تنظري لي هكذا.. لم أقصد.. هيا اذهبي...

أومأت المربية العجوز برأسها لا قبولاً ولا اعتراضًا.. أومأت فقط لتجيز لنفسها الرحيل من دون رد. أدركت (دنيا) أن محاولتها للاعتذار أساءت للعجوز عوضًا عن التخفيف عنها فاستوقفتها عند الباب..

ـ دادا.. أنا..

صمتت وطال صمتها حتى رحلت عنها المرأة بعد أن أغلقت الباب خلفها في هدوء.

زحفت فوق سريرها الوثير، ملقية بعض المخدات في طريقها على «الموكيت» المخملي الوثير... وقفت أمام المرآة تتأمل الخصلات الممتدة حتى خصرها، وتحاول تمرير أصابعها بين أدغال التموجات الثائرة.. اشتبك أحد أظفارها المطلية بالأحمر بعقدة منعت مروره وكادت تكسره..

شعر مجنون.. يناسبني ولا شك!..

لماذا لم أقل لـ«دادا» آسفة..؟

لماذا أفسد كل ما أحاول إصلاحه..؟

لماذا أبدو دومًا..

.. هكذا؟؟!!!

نبشت عن علبة السجائر المدفونة بحذر في إحدى حقائب يدها.. تأكدت من غلق الباب بالمفتاح احتياطيًا على رغم أنها متأكدة من افتقار البيت لأحد سواها هي والمرأة العجوز. نفثت أول جرعة دخان في قوة، وهي تستعيد أحداث فجر اليوم التي كدرتها..

من يظن نفسه؟! كيف يتجاهل الرد عليّ؟!

طبعًا.. لأنه طبيب.. كلهم هكذا.. يظنون أنهم فوق البشر مرتبة.. ينشغلون ويتعالون ويعتزلون أقرب الناس بحجة مداواة بعض الأغراب.. ماذا عني؟.. كيف يجرؤ أن يتجاهلني؟!

هل كانت تفكر في غريب البارحة.. أم في أبيها..؟

كلاهما غريب بالنسبة لها على كل حال.. لكنها لمست بعضًا من تقارب مع غريب البارحة.. ظهر من العدم فجأة.. لمحت جملته المختصرة في التعريف.. «أنا لا أبحث عنك.. أنا أبحث عني أنا!»..

لم تعتد المحادثات العشوائية، لكن شيئًا ما جذبها بشدة للاقتراب منه.. ربما اسمه.. أو ربما تكون المفارقة بين جملته واسم برنامج المحادثة.. (ICQ).. أي (أنا أبحث عنك) حين تنطق بالإنجليزية.. قليلون من يدركون تلك المعلومة.. هل كان يقصد تلك المفارقة أم صادفته؟..

أيًا ما كان..

الأرواح الحائرة تتلاقى... كأنها مغناطيس تجذب بعضها بعضا.

أتبعت نفسا آخر من سيجارتها بزفرة حارة، وهي تلج للبرنامج لتتيقن من أن تجاهلها قد استمر حتى تلك اللحظة.. كانت تحرك ساقها اليمنى لأعلى ولأسفل في توتر...

لم يرد.. المتغطرس الأحمق.. من يظن نفسه؟!

ألقت بنفسها على السرير بعد أن أطفأت سيجارتها ووأدت الطرف المبتور في مرحاض حمامها الخاص ثم تأكدت من اختفاء أثره تمامًا. لماذا يجب أن تفعل ذلك؟! تتذكر بوضوح يوم دخلت أمها غرفتها ـ واقعة نادرة الحدوث ـ وكانت قد انتهت توًا من إفراغ نصف زجاجة معطر جو برائحة البحر في الغرفة، لتستر ذرات الدخان، فابتسمت أمها في سخرية.. «أتظنين أنني لا أعلم أنك تدخنين؟.. لمَ تحاولين التخفي؟ أتعتقدين حقًا أنني سأنهرك؟ تعلمين كم أكره الدخان لكنك صرت مسؤولة عن تصرفاتك.. إن شئت الانتحار بهذه الكيفية فهذا شأنك وحدك!»..

بعدها صارت تدخن بشراهة أكثر، لكنها واظبت على إخفاء عادتها ولا تدري لماذا.. نوع آخر من التناقضات التي تكوّنها.. تمامًا كتناقض جنون شعرها الغجريّ مع وجها الملائكي.. ونواياها الطيبة مع تصرفاتها الخبيثة.. لماذا هي هكذا؟

هل يمكن أن يكون هناك رواسب احترام فطري اتجاه أمها؟ لكنها تشك تمامًا في ذلك.. كيف يتماشى ذلك مع رغبتها المستمرة في إثارة غيظها..

السجائر..

اختيار دراسة الديكور على رغم مجموع الطب..

الأكل بيدها والحديث وفمها مملوء بالطعام..

إيقاع مضغ العلكة المسموع..

أصدقاؤها الشبان الكثر..

علاقاتها العاطفية التي دومًا ما تصادف رجالاً أكبر منها سنًا متزوجين..

حتى قطعة القماش التي تخفي تحتها جنون خصلاتها الحمراء.. لم يكن بغرض حجاب قدر ما كان لإغاظة الهانم... سيدة المجتمع الراقي.. عضوة جميع الجمعيات الخيرية.. صاحبة مبادرة «من أجل شباب أصحاء.. لا للتدخين»!..

وأخيرًا جدًا..

أمها التي لا تمانع تدخينها!

تحافظ على برودها بشكل يثير غيظها هي!

خرج العصفور الصغير من مكمنه الخشبي المعلق على الحائط، معلنًا الساعة العاشرة صباحًا..

نظرت لعصفور الساعة في غيظ وأشارت له بإصبعها..

ـ أنت أيضًا تثير غيظي..!!..

كل من في هذا المنزل حمقى! مثلك أنت.. مأمورون.. مدفوعون بترس نحو أعمالهم ومشاغلهم التافهة.. «يصوصوون» كلامًا فارغًا.. أغبياء مثلك تمامًا.. أمي المتحررة الباردة.. أبي الطبيب المشهور المشغول.. حتى «دادا» المقهورة.. طيبتها طيبة غبية.. وأنا لا أحب الأغبياء.. لا يفهمني منهم أحد.. لا أحد على الإطلاق.. إلا.. ربما أخي الأصغر ذا الثماني سنوات.. لكن اللعنة أصابته هو الآخر وانعزل في جزيرته.. أتعلم رأيته يدخن هو الآخر..

تنهدت ثم بدأت بدندنة لحن محاولة التشويش على وحدتها.. مهما حاولت الهرب منها تجدها تؤطر كل أحاسيسها وأفكارها. خرج اللحن شاذًا حزينًا على رغم أنه ليس كذلك في الأصل. صمتت.

قطع صمتها الصوت الوحيد الذي يؤنسها..

«Oh ـ Uh»..

وصلت رسالة! ربما يكون هو.. قفزت من فوق سريرها ونقرت بالسهم على الشاشة قبل أن تجلس..

صدق حدسها..

ابتسمت في دلال قطة ظفرت بفأرها أخيرًا.. أخذت وقتها وهي تجلس.. شبكت أصابع يدها ببعض ومطت ذراعيها للأمام قبل أن ترسو أصابعها على أزرار «الكيبورد»..

د. نائل:

توقيتكم؟ ماذا تعني؟ هل أنت/ أنتِ من بلد آخر؟

٥٦٤٧٧١٨:

اختر سؤالاً واحدًا لأجيب عليه..

د. نائل:

وهل سألت إلا عن بلدك؟!

٥٦٤٧٧١٨:

سألتني بلدي بطريقة «ماذا تعني؟» للإسهاب حول نفسي وضمنت سؤالك إشارة للاستفسار عن الجنس.. ذكر أم أنثى.. ثلاث أسئلة.. اختر أيها يعنيك أكثر..

د. نائل:

هههههههه... الحقيقة.. ولا واحد.. لكن يمكنني إخبارك أنا عن إجابة السؤال الأخير.. أنتِ أنثى ولا شك.. بل.. وجميلة أيضًا..

٥٦٤٧٧١٨:

لا تخيب ظني بك.. لو بدأت مغازلات الإنترنت التافهة فلن تجدي معي وستنتهي المحادثة فورًا!

د. نائل:

أعتذر منك.. أنا حقًا لم أكن أقصد ذلك..

٥٦٤٧٧١٨:

تعني أني لست جميلة؟

د. نائل:

هههههه... حسنًا.. أستسلم.. سأكتفي بما خمنته وسأترك لكِ حرية الكشف عما ترغبين حول نفسك..

٥٦٤٧٧١٨:

لمَ لا تبدأ أنت؟

د. نائل:

أنا أدليت بأقوالي على صفحة التعريف بالفعل!

٥٦٤٧٧١٨:

طبيب نسا وتهوى النحت والرياضة!!! لا عجب أنك تائه يبحث عن نفسه!!: *D*

د. نائل:

هههههه... أنتِ ذكية! ومختلفة! ولا أعني هذا من قبيل الغزل.. إنها عبارة تقريرية لا أكثر..

٥٦٤٧٧١٨:

هل أنت متزوج؟

د. نائل:

لا.. لكن اسمحي لي.. لمَ؟

٥٦٤٧٧١٨:

لأنك تجدني ذكية وتستشعر جمالاً ما في ما يعني أنك سرعان ما ستقع في غرامي لذا أحب أن أعرف إن كنت مقدمة على تجربة جديدة أو كمن سبقوك..

د. نائل:

سبقوني! أنتِ جريئة جدًا.. ومغرورة..

٥٦٤٧٧١٨:

بدأت تخميناتك تخونك.. لا تتعجل الحكم عليّ.. والأفضل ألّا تحكم.. لكنه مستحيل.. فأنت بشر.. على رغم كونك طبيبًا..

د. نائل:

وهل الأطباء غير بشريين؟؟

٥٦٤٧٧١٨:

قليلاً.. وأعنيها على نحو سلبي..

د. نائل:

يبدو أنك كنت تحبين طبيبًا ضمن من «سبقوني»

٥٦٤٧٧١٨:

ما زلت أحبه..

وأكرهه..

لا.. لا أكرهه..

أكره انشغاله عني بمهنته السامية..

د. نائل:

؟؟؟

٥٦٤٧٧١٨:

والدي.. طبيب.. ولن أخبرك من هو.. ولا تحاول ممارسة الطب النفسي عليّ لمعالجتي.. كلكم تفعلون نفس الشيء.. البشر عامة والأطباء خاصة.. تظنون أن لديكم القدرة على سبر أغوار نفوس الآخرين ومعرفة دوافعها.. ليس رغبة في مساعدتها قدر ما هي رغبة في تنقيح الحكم الأولي.. البشر كائنات مغرورة.. كلهم مرضى راغبون في لعب دور الطبيب.. أنا لا أرغب في الحكم عليك أو معرفة أي تفاصيل عن حياتك وهي لا شك بائسة.. أنا هنا لسبب واحد فقط..

د. نائل:

وهو؟

٥٦٤٧٧١٨:

لسبب ما ـ لا أعلمه أنا نفسي ـ أرغب في مساعدتك في البحث عن نفسك.. ربما حين أفعل سأشعر ببعض الرضا عن نفسي.. فهل تقبل؟

د. نائل:

لا أظنك تستطيعين.. وأعتقد أن حديثك عن البشر باستثناء نفسك منهم يجعلك الأكثر غرورًا بيننا.. لكن... سأمنحك تلك الفرصة بشرط واحد..

٥٦٤٧٧١٨:

أن تختفي الأرقام ويظهر اسمي..

د. نائل:

أنت أكثر من ذكية.. أخشى أن تكوني ممن يمارسون فنون السحر..

.....

.....

د. نائل:

أين ذهبت؟ لا تذهبي.. أعتذر إن أغضبتك... ليس ضروريًا أن تغيري اسمك... يا.. يا ٥٦٤٧٧١٨

أين أنت؟

آلووو..

دنيا:

آسفة.. كنت أغير الأرقام.. هل خفت رحيلي؟

د. نائل:

الحقيقة.. نعم.. قليلاً.. يا.. (دنيا).. خفت رحيلك وهو أمر أستغربه من نفسي ولم يمض على تعارفنا بضع ساعات..

دنيا:

الأرواح التائهة تتلاقى... بالمناسبة.. أنا لا أسكن بلدًا آخر.. كنت أنوي الكذب لأقول لك إني أعيش في كندا لكن في الحقيقة أنا هنا.. لكني أحلم بالرحيل عن هنا يومًا ما.. هل ترغب

في السفر أنت أيضًا؟

د. نائل:

ربما.. لا أدري... لكنك ستساعديني في التعرف على ما إذا كنت أرغب في السفر حقًا أو لا..

دنيا:

سترغب.. وربما سنسافر معًا... من يعلم؟!

د. نائل:

لا أحد... لا أحد يعلم ماذا يحدث غدا..

دنيا:

لكن سأراك غدا.. تعلم هذا القدر أليس كذلك؟

د. نائل:

بلى... سأراك غدا

(١٢)

٢١سبتمبر٢٠٣١

دلفت (سعيدة) إلى غرفة (أميرة) تحمل صندوقًا خشبيًا صغيرًا وعلى محيّاها علامات بشر الأخبار السارة..

ـ لك عندي مفاجأة ولي عندك الحلاوة..

أخرست دموع (أميرة) المنسابة في خشوع من بين الجفون المنسدلة (سعيدة) وأدركت أنها في حضرة ذكرياتها الخاصة، التي لم تبح بها لها على رغم الصداقة التي توطدت بين أرواحهما. أنصتت معها للكلمات المنسابة من الأسطوانة الزجاجية..

«.....

وغدًا ننسى فلا نأسى على ماضٍ تولى..

وغدًا نسهو فلا نعرف للغيب محلاً..

وغدًا للحاضر الزاهر نحيا ليس إلا..

قد يكون الغيب حلوًا..

إنما الحاضر أحلى...

أغدًا ألقاك؟....

.....»

وجدت (سعيدة) نفسها أيضًا ترحل لعالمها الخاص.. حيث ذكرياتها هي.. تسرق من الكلمات خيالاً يناسب حكايتها هي دون غيرها.. تنفلت من بين أنفاسها المتسارعة نهنهة بكاء فتلتفت (أميرة) لها لتجدها باكية تبتسم.

ـ (سعيدة)! متى دخلت؟! لم أشعر بك؟ وما بك؟ أتضحكين أم تبكين؟!

ـ معذرة.. دخلت منذ قليل لكن وجدتك مستغرقة مع (السِّت) فلم أشأ المقاطعة ثم..

ـ ثم تذكرت أمرًا يخصك..

ـ نعم..

ـ أخبريني يا (سعيدة).. لقد حدثتني قبلاً عن حب عظيم يملأ جنبات حياتك، ويدفعك دومًا للبذل والعطاء.. لطالما شغفت بابتسامتك التي لا تغيب وتساءلت.. إن كان حقًا لك نصيب من اسمك كما يقولون؟! هل أنت سعيدة يا (سعيدة)؟

تضحك من بين دموعها وتخبرها في مرح..

ـ بلى.. أنا سعيدة

تدقق (أميرة) النظر في جانبي ابتسامتها المرتعشة وتخبرها مبتسمة في مكر..

ـ كاذبة!

ـ لست كذلك.. الأمر يتوقف على مفهومك عن السعادة.. السعادة لا تعني غياب الحزن وإنما التعايش معه في سلام.. السعادة ـ مدام (أميرة) ـ لي كالمال تمامًا.. لا ألهث وراءه لكني أسعى له.. أقتصد منه القليل ولا أكتنزه.. السعادة كالرزق.. أرضى بما يقسمه لي الله منه وأنفقه على من حولي.. ويحدث ـ كما يحدث دومًا مع المال ـ أن تمر أيام أفلس فيها ولا

أجد من السعادة ما يعينني على الحياة.. حينها أتذكر من هم أفقر مني سعادة فأرضى وأسعى لسعادتي من جديد.. ليس في السعادة أمر مطلق.. تمامًا كالحب..

ـ وهل يعرف عالمكم اليوم «الحب» كما عرفناه؟!

ـ الحب كما عرفته أنا لا يعرف اختلاف العوالم أو الأزمان.. لو أنه يسكن العقول فقط لاختلف باختلاف الفكر بين جيل وآخر ولو أنه يسكن القلوب فقط لتغير ألف مرة بتقلبها، لكنه يسكن الشيء الوحيد الثابت على مدار عصور الإنسانية... الروح!

ـ كلام جميل.. أجمل بكثير من الواقع.. الواقع الذي يفرض ماديته على كل شيء حتى المشاعر.. الأرواح التي تتحدثين عنها تغيرت بالفعل.. صارت أرواحًا مريضة.. لا تبحث عن الحب ذاته بل تبحث في الحب عن ترياق دائها..

ـ وهل الحب إلا دواء للنفوس؟

ـ بالطبع.. لكن ثمة فارقًا كبيرًا بين الحب المبني على احتياج، والحب المجرد من الاحتياج..

ـ لا أظن أنه يوجد حب من دون احتياج.. نحن نحتاج للصحبة.. للأنس.. للسكن.. للحنان.. للمشاركة.. أشياء كثيرة نحتاجها فلا نجدها إلا مع الحب..

ـ وهل وجدت أنت تلك الأشياء؟

ـ أنا فتاة بسيطة للغاية، لم تسمح ظروفي بأن أعيش قصة حب نارية كتلك التي نراها في الأفلام.. والدي ووالدتي كانا حريصين للغاية على إبقائي بلا تطلعات عاطفية.. شغلا كل وقتي بشتى الأشياء.. قراءة.. أعمال منزلية.. وغيرها.. لم أعرف شيئًا عن الحب حتى تزوجت.. كان رجلاً عاديًا للغاية.. أو هكذا ظننت.. مهنته بسيطة ورزقه محدود.. لكن كما يقولون.. ليس كل الرزق نقود.. حباه الله بوفرة في الحنان والرحمة.. لقد احتواني بكل ما في الكلمة من معنى.. لم يكن يعلم من الرومانسية جانبها المرفه.. الورود والهدايا.. لكن أنا

أيضًا لم أكن أتطلع لمثل ذلك.. لكني أستطيع الآن أن أقول إنه كان أكثر الرجال رومانسية على وجه الأرض.. يكفي أنه لم يضِق يومًا بدموعي.. بل كان الوحيد الذي يكفكفها من دون أن ينهرني.. والوحيد الذي كان يجعلني أبتسم من وسط بكائي مهما بلغ حزني.. يوم وفاة والدي.. تحول لأبي.. يوم وفاة أمي.. تركني أرتمي في صدره كأنه هي.. أنجبت معه زهرة حب لا يضاهي جمالها ورقتها طفلة أخرى.. عرفت معهما كل المعاني التي لأجلها حلم الناس بالحب.. الأمان والرحمة والعطاء والخير.. وجدت السعادة الخالصة التي يشكك الجميع بوجودها.. أدركت أنني خلقت لأجلهما ولم أرغب من الحياة في أي شيء سواهما.. كانا كل شيء..

ـ كانا؟!

ارتعشت يد (سعيدة) وكادت تسقط الصندوق الخشبي فأشارت لها (أميرة) بالجلوس.. عيونها ملأى بالدموع التي لا تسقط، وابتسامتها لا تفارقها وإن ارتعشت مع كلماتها..

ـ كنت في شهري الثاني من حملي الثاني.. اشتهيت خبزًا طازجًا وأخبرته أنني أكاد أشم رائحة العجين المخبوز توًا.. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. ربت على كتفي وقام.. وجدته يستعد للنزول وأيقظت جلبته ابنتي ذات الأعوام الأربعة.. توسلت له أن يأخذها معه على «الموتوسيكل».. عارضت بشدة.. أخبرته أنني سأنتظر للصباح فأبى إلا أن يمنحني آخر قطرة في عطفه وحنانه.. أخذها معه.. و.. أخذتهما الأقدار مني للأبد..

توقفت قليلاً كأنما ترى ذكرى آخر مرة طالعت أحب الوجوه لقلبها. أمسكت (أميرة) بكفها وضغطت في رفق.. تنفست (سعيدة) على مهل وأردفت..

ـ قبلتهما ولم أعلم أنها ستكون المرة الأخيرة.. كانا عائدين بعد أن أحضر لي الخبز فإذا بشاب مخمور يقود بجنون ينهي حياتهما وحياته معهما.. لم أرهما.. لكن حين أخبروني تخيلت دماءهما تنساب فوق الخبز.. ليتني ما ودتته.. أتعلمين؟ إلى الآن كلما شممت رائحة العيش المخبوز يمتزج مع رائحة دماء في مخيلتي.. دمائهما..

ـ أنا آسفة.. لم أكن أسعى لإحياء الألم مجددًا في قلبك..

ـ الألم؟.. أي ألم؟! أنا أحببت للدرجة التي لم تترك معها فرصة للألم.. يقولون إنه لا يتألم بشدة سوى من أحب بشدة.. غير صحيح.. هؤلاء الذين يتألمون من جراء قصص حب، في الحقيقة يتألمون من شدة حبهم لذاتهم وليس لأحبائهم.. يتألمون لأجلهم.. لأنهم لا يطيقون الفراق... يرهبون العيش من دون العطايا التي منحها لهم أحباؤهم.. أما أنا.. فقد وصلت لتلك الدرجة من العشق التي تتجرد من الأنانية.. لم يكن لذاتي أي قيمة من دونهما لأتألم لأجلها.. وقتها تألمت لأجلهما ولأجل جنيني الذي فقدته بعدها بأسابيع.. لكني أدركت أنهما في معية الرحمة كلها.. فكيف أحزن لهما؟ لقد منحاني في عدة سنوات أحلام عمر بأكمله.. أيقنت حينئذ أني لم أخلق لأجلهما بل العكس.. خلقهما المولى لأجلي.. أتدركين لأي درجة كنت محظوظة! أتدركين أي نعمة تلك؟ أن يسخر الله لك ثلاثة أرواح تمنحك سعادة خالصة وقدرة لانهائية على العطاء؟.. استعنت بطاقة الشوق لهم في أن أحيا وأمنح كل ما أستطيع من مساعدة لمن يحتاجونها.. سأحقق الغرض من وجودي حتى أستحق لقاءهم في ظلال حياة النعيم..

لم تقتنع (أميرة) تمامًا.. على رغم ما تقوله (سعيدة) لا يمكنها أن تتنزه عن الشعور بالألم لمجرد أن حبها وصل منتهاه..

هؤلاء الذين يحاولون دفن آلامهم وإنكارها بغرض الهروب من براثن الأحزان، يعيشون تمثيلية..

يروجون لقوة داخلية غير موجودة بالفعل..

الأقوياء يسخرون قوتهم في المواجهة وتحمل مصائرهم، حتى لو اقتضى الأمر معاشرة الألم والحزن قليلاً.. لكن الضعفاء يسخرون قدرتهم على الاحتمال في الهروب والنسيان وادعاء أنهم بخير..

وهم ليسوا كذلك..

ليسوا كذلك أبدًا..

لكن..

ألا يضعني ذلك في زمرة الضعفاء؟! على الأقل سخرّت (سعيدة) ضعفها في إسعاد من حولها.. هربت من الألم في عزة وكرامة مذعنة للأقدار من دون انهزام..

أما أنا..

ماذا تراني فعلت بنفسي..

بـ(مصطفى)..

بولدي الوحيد..

أتراه تعلم الهروب من والده؟.. أم.. مني أنا؟!

أفاقت من أفكارها على صوت (سعيدة) يغير دفة الموضوع بعد أن اختنقت أجواء الغرفة بأشباح الماضي..

ـ أحضرت لك مفاجأة ستسعدك.. هذا الصندوق من (يوسف).. لقد أرسل لك هدية عيد ميلادك الستين.. كل سنة وأنت طيبة مدام (أميرة)..

ـ الستين؟.. هل بلغت الستين بالفعل؟؟ في أي عام نحن؟ (يوسف)؟.. هل ما زال بالخارج؟.. هذا يكفي.. (سعيدة).. اطلبيه لي حالاً بالـ«فيديو ـ كول».. يجب أن يرجع.. لم يعد هناك وقت.. فهمتِ؟.. اطلبيه حالاً..

تعجبت (سعيدة) للتغير المفاجئ الذي حل بـ(أميرة).. لم تعهدها منفعلة هكذا.. طالما ظلت هادئة.. حزنها هادئ.. فرحها هادئ.. حتى غضبتها هادئة.. حاولت طمأنتها..

ـ حسنًا.. حسنًا.. سأفعل.. وفورًا.. لا تحملي همًا مدام (أميرة).. لكن.. ألا ترغبين في فتح الهدية؟

ـ هدية؟.. آه نعم الهدية.. اطلبيه فورًا.. ما هي الهدية؟..

ـ ارتاحي.. سأحضر الطبيب للاطمئنان عليك.. وسأفتح لك الصندوق.. ها.. ها هي.. كم هي جميلة.. هل ترين تلك النبتة الصغيرة.. لا زهر لها بعد.. ذوق (يوسف) جميل.. لكنها ذبلت قليلاً.. لعلي أحضر بعض الماء لترويها.. مدام (أميرة).. مدام (أميرة).. هل تسمعيني؟..

ـ اسمعي يا (سعيدة).. لا أعلم متى تزورني (نور) مرة أخرى.. الناس مشاغل والوقت قصير.. أريد أن أعطيك ورقة بها بعض من وصيتي.. كتبتها منذ أمد ومزقتها من دفتر مذكراتي.. عديني أن تعطيها لـ(يوسف) حين يأتي.. عديني يا (سعيدة)..

ـ اهدأي مدام (أميرة).. حسنًا أعدك.. لا تخافي..

أخرجت (أميرة) زجاجة بنية صغيرة، وقلبت فوهتها الضيقة على الورقة لتسقط قطرة من عطر الخزامي عليها، وتملأ الغرفة بأريجها..

ـ ها هي.. مطوية على آخر أمانيَّ.. لا تفقديها يا (سعيدة)..

دست (سعيدة) الورقة والفضول ينهش أصابعها لفضها..

ترى ما هي تلك الأمنية الأخيرة المعطرة بالخزامي؟

وما الذي حدث فجأة لها منذ علمت ببلوغها الستين؟

كأنها تبدلت امرأة أخرى.. بل صارت عجوزا.. عجوزا جدًا ـ على غير ما عهدتها على رغم المرض والحزن ـ في بضع دقائق! الأمر ليس بخير.. لمست سعيدة أحد الأزرار لاستدعاء الطبيب المتابع لحالتها، ثم وضعت النبتة على الطاولة البيضاء بجوارها، بعد أن ساعدتها في التمدد على السرير..

ـ لا تقلقي يا (سعيدة).. أنا بخير.. فقط لا تنسي ما طلبته منك، ولا تتأخري في طلب (يوسف)..

ـ حسنًا..

ـ أمر آخر..

ـ تحت أمرك..

ـ النبتة لك.. وأغاني (السِّت) كذلك.. اروي النبتة جيدًا كل يوم صباحًا، وأنت تستمعين لأغاني (السِّت).. استمعي لها لكن لا تتركي كلماتها تنفذ لألمك.. ارعي النبتة وحافظي عليها قدر الإمكان.. ستزهر.. حتى بعد الموت.. ستزهر.. إن ظل الجذر حيًا.. تبعث الفروع من جديد.. حتى إن ماتت تمامًا.. لا تحزني.. لديك التربة.. ابذري نبتًا جديدا وارعيه من جديد.. التربة هي الأساس.. تذكري كلامي جيدًا يا (سعيدة).. التربة هي الأساس يا (سعيدة).. والحياة لا تتوقف مهما ذبلت بأرضها أزهار.. والثمر لا يذهب هباء أبدًا.. لا تنسي يا (سعيدة) كلامي..

حضر الطبيب فوضعت (سعيدة) النبتة جانبًا لمعاونته وهي بنصف عقل.. شردت في كلام (أميرة) الذي يبدو لها كالطلاسم..

هل تموت الآن؟

قبل أن ترى ولدها للمرة الأخيرة؟..

هل لما تقول مغزى؟

أم هو خرف اللحظات الأخيرة؟!..

لماذا ائتمنتها على أمنيتها الأخيرة على رغم أنها لا تعرف شيئًا عن قصتها؟ ولماذا كُتِبَ عليها أن يفارقها من تحيا لأجلهم.. بعض من ألم يتسلل الآن من بين خلاياها، مع احتمال فقد روح أخرى رفرفت في سمائها..

هل هو ألم الحزن على مدام (أميرة) فقط..

أم هي آلام العمر كله تبعث من جديد؟!..

انتبهت (سعيدة) على صوت الطبيب الذي يفحص نبض (أميرة) وضغطها، وهو يطلب منها تشغيل جهاز تخطيط القلب بالانبعاث «البوزيتروني» لأن ضربات قلبها غير منتظمة وضغطها عال للغاية وحالتها مقلقة.

امتثلت لأوامره وهي تغوص بنظرتها في أعماق عيون (أميرة) ربما للمرة الأخيرة..

وضعت يدها على جيبها الذي يحوي الورقة ثم احتضنت النبتة وابتسمت لها مطمئنة..

من دون أي حديث أومأت لها بما يفيد أنها عند وعدها..

ستسلم الرسالة..

وسترعى النبتة..

حتى تزهر..

يومًا ما..

(١٣)

١ إبريل ١٩٩٥

طرقت (أميرة) باب غرفة (هدى) في اعتياد دام عدة سنوات، منذ أن اتسعت الفجوة في علاقتهما وصار الحذر مصاحبًا لحديث (أميرة) وتصرفاتها مع أختها خشية إغضابها.. طال الصمت فطرقت بقوة أكثر لتسمع صوت أختها يهتف بها في نفاد صبر..

ـ ادخلي يا (أميرة)!

دلفت (أميرة) للداخل ترسم ابتسامة فرحة تستحي الإفصاح عن مخاوفها.. بادرت العروس في فستانها الأبيض المتواضع:

ـ ما أجملك من عروس يا (هدى).. ألف مبروك..

ظلت (هدى) تنظر للمرآة تحاول الاستقرار على الوضع الأمثل لشعرها.. وأخيرًا أجابتها:

ـ ما رأيك؟ هكذا.. أم هكذا؟؟ أم لا فارق ما دام لا يظهر منه شيء؟

ـ كلاهما جميل.. لحظة.. هل سترتدين الحجاب اليوم؟

صوبت (هدى) لها نظرة قاسية من دون أن تبرح عيناها المرآة..

ـ بالطبع! وهل يختلف اليوم عن أي يوم..

ـ لكن اليوم فرحك.. ولا يوجد أحد سوانا.. أنا وأبيك وزوجك!

ـ والمأذون؟ أنسيتِ؟ ثم إنه لم يصبح زوجي بعد.. لحظة.. ما شأنك أنت! فلتفعلي أنتِ ما تشائين يوم فرحك.. هل جئت للمساعدة أم الانتقاد..

ـ لكن.. أنا لا..

بحثت (أميرة) عن كلمات تدافع بها عن نفسها فلم تجد.. لا تعلم كيف يحدث أن تغضب منها أختها كلما فتحت فاهها.. حتى في يوم كهذا! تغيرت (هدى) كثيرًا.. لم تعهدها (أميرة) هكذا في طفولتها.. كانت بمثابة أمّ لها.. لذلك لا تغضب منها أبدًا وتسامحها دومًا مهما أغلظت لها القول.. كيف تغضب من أمها؟! لكن يعز عليها أن تجد نفسها دومًا موضع اتهام وسببًا لتعكير صفو لا يمكث طويلاً..

لماذا تغيرت (هدى) هكذا من ناحيتها؟

أي ذنب ارتكبت لتعاملها بهذا الجفاء؟

أيعقل أن تلومها على موت أمها؟ لكنها لم تفعل وهي صغيرة، فكيف وقد نضجت وصارت على أعتاب أن تصبح زوجة وأمًا!..

نفس المعاملة يلقاها منها والدهما.. لكنه على الأقل تَعَلّم أن يتجنبها تمامًا اتقاء غضبها المستمر لأمر غير معلوم لهما..

أما هي فلا تستطيع تجنبها! كيف تتجنب الروح الوحيدة التي تشاطرها قسوة الأيام التي حرمتهما الأم؟.. كيف تزهد التلاقي مع العيون التي رأتها تكبر وسجلت عنها ذكريات قبل أن تتكون لها ذاكرة! (هدى) ـ على رغم صغر سنها ـ هي أول يد أطعمتها.. أول يد ألبستها.. أول يد أمسكت برسغها تمرنها على الكتابة.. أول ضحكة تذكرها كانا معًا.. أول قصة إعجاب عاشتها أفضت لها بها..

أول كل شيء كان (هدى)!

لكن يبدو أن دوام الحال من المحال..

ما سر تغيرها؟ (هدى) الجميلة العطوف التي حلمت طويلاً بفارس أحلام تحقق معه أمانيها.. أين هي من (هدى) اليوم؟! تلك التي تثور لأتفه الأسباب وتحيا أفكارها ومشاعرها في عزلة تامة عنها.. تلك التي وافقت فورًا على الشاب الملتحي الذي تقدم لها من دون سابق معرفة، فقط لأنه «ملتزم» على حد قولها!! أيكون السبب قصة حبها التي فشلت.. شخص جبان مرواغ تلاعب بمشاعرها الوليدة أفقدها الثقة في كل من حولها فتغيرت للأبد؟! هل فشل حب واحد سبب كاف لكره الجميع؟!.. يؤلمها ويؤرقها ألاّ تجد ترياقًا لنفس أختها المسممة.. أن تلقي بحياتها هكذا في زيجة تراها (أميرة) مختلة في جميع جوانبها.. غريب لا نعلم من تدينه المزعوم غير لحية وبعض الكلمات المغلفة بعبارات رنانة، يتبعها دومًا بالحمد والتسبيح والاستغفار... هل هذا كاف لمشاركته عمرها كله؟! لكنها مع ذلك لا تستطيع نصحها.. ليس فقط لأن (هدى) لن تقبل.. (أميرة) ذاتها تخجل أن تفعل..

لا تعرف كيف يفترض أن تنصح البنت.. أمها؟!

أفلتت نظرة سريعة تجاه «بورتريه» أمها على الحائط علّها تطيب خاطرها.. «ليتك هنا يا أمي..»

تنهدت (أميرة) بعد أن بترت اعتذارها غير المجدي، واقتربت منها تحاول مساعدتها في ارتداء الطرحة

فباغتتها (هدى)..

ـ ما تلك الرائحة؟! أتضعين الخزامي؟

ـ نعم.. هل في ذلك شيء؟!

ـ إنه عطر أمي..

ـ أعلم.. ولذلك أضعه يذكرني بها ويبقيني في صحبتها..

رمقتها (هدى) في سخرية أدركت (أميرة) ما سيعقبها من إحدى عباراتها الجارحة..

ـ يذكرك بها؟ وهل رأيتها عمرك حتى تتذكريها! ماتت.. لحظة ولادتك أنت..

عادت (هدى) تنظر للمرآة من دون أن تحفل ما خلفته وراءها. أطرقت (أميرة) رأسها في الأرض تداري الدموع التي طفت على سطح مقلتيها.. ها هي (هدى) مرة أخرى تذكرها بأنها السبب في حرمانها من أمها.. بل أمهما! ألم تحرم منها كذلك؟ ألم تذهب صرخاتها وبكاؤها لحظة ولادتها هباء من دون أن تهدئها قطرات الحنان من ثدي أمها! وإن اعتبرتها المذنبة حقًا.. لمَ تغضب منها الآن بعد كل تلك السنوات؟! هل اكتشفت الأمر فجأة؟!

انطلق صوت (هدى) في برود..

ـ أخبري أبي أني جاهزة..

كادت (أميرة) أن تطلق سراح دموعها وصرختها الأسيرة في وجه أختها لتفجر في وجهها كلمة واحدة «لماذا؟!» لكنها رغم كل شيء تأبى أن تحطم فرحة اليوم إن كان ليومهما أن يفرح بدلاً عنهما.. كما أنها لن تتحمل أن يصاب أبوها بأزمة قلبية مرة أخرى.. فقدانه يعني نهايتها.. هو الخيط الوحيد الذي يربطها بالحياة. لذا ابتعلت (أميرة) سؤالها اللائم وأسرعت للخارج لكن (هدى) استوقفتها.. ظنت للحظة أنها توشك على الاعتذار.. لولا أنها لا تؤمن بالمعجزات..

ـ انتظري.. هل.. هل ما زالت أمي تزورك في منامك؟ هل زارتك البارحة؟ هل قالت شيئًا عن زواجي؟

ـ لا.. لم تعد تزورني.. أظنها اطمأنت لوجودنا معًا.. أنا وأنت..

قالتها (أميرة) بنبرة ذات مغزى.. تحاول تذكير أختها بأن ليس لهما سوى بعضهما علّها تنفض تراب أحقادها عن جوهرها العطوف الذي توقن (أميرة) بوجوده. انتظرت أن ترد عليها (هدى) لكنها بادلتها نظرة غريبة لم تفهمها.. كادت تجزم بأن قشرة القسوة التي غلفت (هدى) نفسها بها توشك أن تتشقق، لينساب من بينها ضعفها المشتاق لضمة حنان من أمها أو في تلك اللحظة.. أختها!

مرة أخرى تحبط (هدى) تكهنات (أميرة) لتعاود النظر للمرآة وهي تكرر في آلية..

ـ أنا جاهزة..

تنهدت (أميرة) وأغلقت الباب وراءها في طريقها إلى حيث والدها والزوج المنتظر..

* * *

بالداخل..

كانت (هدى) تضع لمساتها النهائية، بإعادة بعض الشعرات الهاربة إلى ثكناتها تحت الغطاء الأبيض الحريري.. كلما أدخلت واحدة غافلتها أخرى متسللة على جبينها المقطب حتى ثارت عليها جميعًا..

الغطاء والطرحة وشعرها!

ألقت بما فكته على سريرها ثم جلست إلى جوار طرحتها..

أجهشت فجأة ببكاء محموم!

لا بد من أن (أميرة) تكرهها.. ما حدث توًا في الغرفة، لا يشبه بأي حال من الأحوال ما دار بخلدها آلاف المرات.. الأضواء والفرحة وزغاريد أختها تعلو فوق صوت أغاني الأفراح المنبعثة من كل ركن في منزلهم.. ترتمي في حضن أختها وتتركها تمشط لها شعرها لترفعه

لها عاليًا كما تحبه.. تستمتع بأصابع (أميرة) الحانية تلملم خصلاتها في رفق.. رائحة الخزامي الذي دأبت (أميرة) على وضعه مؤخرًا تملأ المكان.. كأن أمها موجودة.. بل إنها ستكون موجودة بالفعل.. نسمات هواء ستحمل روحها إليهما كما حدث قبلاً.. تهيم حولهما.. تحتضنهما.. نسمة أخرى تلثم معها روح أمها جبينها معلنة مباركة زواجها..

هذا هو ما تخيلت حدوثه وأرادته بشدة!

هذا هو ما لا يشبه ـ ولو من بعيد ـ ما حدث بالفعل!!

لا تنفك تسأل نفسها لماذا؟!!

لماذا تتصرف على هذا النحو؟! على رغم ما تشهد من محاولات أختها الشتى للتقرب منها واستدرار عطفها المتحجر.. على رغم يقينها بمدى حبها لـ(أميرة) وحب (أميرة) لها..! لماذا إذن؟!

لماذا لا يشبه واقعها أيًّا من أحلامها؟!

تخيلت أمها بجوارها للأبد.. فماتت

تخيلت أخوّة أقوى من الزمن تربطها بـ(أميرة).. ففترت علاقتهما!

تخيلت أباها محور كونها فإذا به يزهدها!

تخيلت حبيبًا يعلمها ما للعشق من قوى سحرية فإذا به يعطها أول دروسها في القهر والغدر..

تخيلت فرحًا غير الفرح..

زوجًا غير الزوج..

حياةً.. غير الحياة..

نفسًا.. غير نفسها!

وقفت لتواجه لوحة أمها. حدثتها في غضب..

«لماذا؟!..

لماذا أماه؟!..

رجوتك ليالي بطول العمر..

أن تأتيني ولو مرة.. مرة واحدة..

أراكِ في منامي مثلما تأتين لـ(أميرة)..

لكنك قط لم تفعلي!

يوم عيد ميلادي.. رجوتك.. أن أراك ولو طيفًا.. ولو لآخر مرة..

يوم نجحت بالمدرسة..

يوم تخرجت..

يوم أجريت جراحة لاستئصال الزائدة..

يوم وقعت في الحب..

حتى اليوم! يوم زواجي..

تضرعت لرؤيتك ولو ثانية..

تبتسمين لي ابتسامة حية.. غير ابتسامتك المجمدة بألوان..

أي علامة.. أي شيء!

تخبرني عن حبك..

عن رعاية روحك لي...

لكن.. لا..

لم تظهري لي..

فقط (أميرة) يمكنها أن تراك..

هي فقط الأحق بروحك في مماتك

وبوجدان أبي في حياته..

هي فقط!

أليس كذلك يا أمي؟!

ردي عليّ!

ردي عليّ!

لماذا؟!.. لماذا؟!.. لماذا؟؟!!»

انهارت على سريرها تحتضن مخدتها وتدفن بين ثناياها نحيبها. طرقتان خفيفتان على الباب علمت منهما أن (أميرة) بالخارج.. مسحت وجهها الخالي من المساحيق.. جاوبت في حدة..

ـ أنا آتية.. اذهبي الآن وسآتي خلفك..

أحكمت غطاء الرأس على شعرها وثبتت الطرحة فوقه.. وخزت نفسها بدبوس وضعته في حدة فرمته بغضب واستبدلت به غيره.. فكرت في وضع بعض المساحيق لإخفاء ما أحدثه بكاؤها بعينيها، لكنها تراجعت.. مسحت بكفها وجهها مرة أخرى وهي تنظر في المرآة..

حياة جديدة تنتظرها..

يمكنها أن تسن قوانينها كيفما تشاء..

يمكنها البدء من جديد..

ستنسى كل شيء..

ستدفن رفات أحلامها القديمة في قبر الماضي..

وستسعد بمستقبل تملئه بالاستقرار والرضا والطاعة..

وربما قريبًا..

ضحكة طفل!

تهديه أمومتها طوعًا.. لا غصبًا!

(١٤)

١١ إبريل ٢٠٠٥

••••••••

كلمة السر غير صحيحة..

••••••••

كلمة السر غير صحيحة..

ـ تبًا!

كان قلبها يخفق بعنف مع كل مرة إخفاق..

هل تريد حقًا أن تعرف؟! ماذا لو أن ظنونها صحيحة؟.. لكن أي ظنون؟! لقد رأت الرسالة بأم عينها على هاتفه.. رسالة حب.. منه.. لها.. تلك الغريبة التي سجل اسمها على هاتفه أرقامًا!.. هل يعقل أن تكون الخيانة ورقة خبأتها عني الأقدار حتى اليوم..؟؟ لا.. لا يمكن.. لا أصدق... ربما.. ربما في الأمر سوء فهم من ناحيتي.. ماذا أفعل؟! هل أمضي قدمًا في فك أستار ما يخفيه عني الزوج الحبيب؟! أشك في قدرتي على تحمل الأمر.. وأشك في قدرتي على وأد الشك الذي ولد منذ أيام.. ماذا كانت تقول السِّت اليوم؟

«أكاد أشك في نفسي لأني

أكاد أشك فيك وأنت مني

يقول الناس إنك خنت عهدي

ولم تحفظ هواي ولم تصني..»

غير أن الناس لم يخبروني شيئًا! لقد رأيت ما رأيت بعيني.. كلام غزل صريح لامرأة غريبة.. دعاها حبيبتي! الخائن! دعاها بمثل ما يدعوني! المجرم.. الكاذب.. الجبان..

مهلاً.. يجب أن أتأكد أولاً.. لا يمكن أن يفعل فيّ (مصطفى) هكذا! لا يمكن أن يذبحني بسكين الخيانة الثلم هكذا.. أنا حب حياته! أمّ ولده الوحيد.. لا.. لا يمكن.. لا أصدق..

ماذا يمكن أن تكون كلمة السر؟.. بضع دوائر تخفي وراءها الدليل على حمقي وسذاجتي.. تبًا لها من دوائر.. تبًا لك من حبيب! كيف تفعل بي هذا!؟

حسنًا.. لقد جربت يوم ميلاده.. اسمه.. رقم هاتفه.. ماذا يمكن أن يكون؟!

ابتسمت في سخرية وقد خطرت لها فكرة.. أيعقل أن...؟

••••••••

نجحت!

يا لسخرية القدر.. كلمة السر هي اسمها مقرونًا بتاريخ عيد زواجهما!

أكاد أجن!..

انطلقت عيناها تقفز فوق رسائله قفزًا حتى لمحت الاسم الذي يتكرر كثيرًا.. (دنيا)..

راحت تفتح سلسلة رسائلهما من دون تردد.. إنها في خضم معركة تدافع فيها عن حياتها.. عن حبها.. وفي الحرب كل شيء مباح.. لو أن ثمة وازعًا أخلاقيًا كان يدعوها على استحياء للتراجع عمّا تفعل، فقد تحطم تمامًا أمام كرة الغضب التي تزداد حجمًا وسرعة، وهي تتدحرج الآن من أعلى قمم الشك لترسو على قاع اليقين..

الآن تبددت غيوم الشك وتكاثفت أمام عينيها دموعها، بينما كلمات الخيانة تتراقص في عهر..

يحبها.. تحبه..

يدللها.. تدلله..

يعدها بالزواج.. تقسم إنها وهبت نفسها له..

يتغامزان.. يضحكان.. يتشاطران الأحزان والأحلام!

ماذا بقي من فعل الخيانة الكاملة؟! السرير؟!

أتراه؟..

لا..

حتى لو لم يحدث.. خيانة الكلمات والوعود والأحلام أشد قسوة..

ذاك حديثه لي.. لي أنا..

عواطفه وأشجانه التي طالما شاركته إياها..

تلك الغمزات والضحكات.. ضحكنا مثلها.. في الحياة.. في الحقيقة وليس في عالم أحمق افتراضي كاذب.. تلك أحلامي.. أحلامي معه.. التي صارت أحلامنا..

كيف يحدث بها امرأة أخرى؟!.. روحًا أخرى.. كأنني..

كأنني غير موجودة..

أنا ميتة..

لا.. بل..

أنا مقتولة.. مغتصبة.. منتهكة..

هل ما بيننا كذبة كبرى اخترت تصديقها؟ أيكون هو بهذه البراعة!

من منّا كذبة؟ أنا.. أم هي.. (دنيا) اسمها.. بئس الاسم.. لو كان أيضًا اسمها الحقيقي..

آآآآه وألف آآآآه!! ماذا أفعل؟! من أحدثه بسري!؟ من يطفئ تلك النيران المشتعلة داخلي؟!

هل أواجهه؟! أم أستمر في ادعاء ما وصمني به.. الغباء! لا بد من أنه يعتقد حقًا أني غبية كي يستمر في تلك الكذبة كل تلك السنوات..

سنوات؟!

يا إلهي لا أصدق أن خداعي تم تحت أعيني كل هذا الوقت!

كل مرة كان يتركني أنام وحدي ليسهر بالساعات مع ذلك الجهاز الغبي.. كان معها هي! في بيتي أنا!

كيف لم ألحظ.. كل تلك المرات التي كان يغلق جهازه فجأة حين أحضر!

باغتها (يوسف) جاذبًا يدها معلنًا جوعه الشديد.. ليحول دفة أفكارها ويقيها مؤقتًا دوامة الأفكار التي أوشكت على ابتلاعها. دخلت المطبخ تحضر له الطعام وانسكبت دموعها لتضيف للطعام ملح الوجع..

لو أنه بيدها.. لسافرت له حالاً.. لاقتحمت جلسة العمل المنعقدة بحضوره وصفعته أمام الجميع!

أتراه سافر أصلاً في رحلة عمل كما أخبرها؟ أم هي حلقة أخرى في سلسلة أكاذيبه؟!..

إن كذبة واحدة كتلك كنقطة حبر تسقط في كوب حليب أبيض.. لا يمكنها الآن أن تميز الصدق في أي من أحاديثه وإن حدث.. لا يمكنها أن ترى جانبًا جيدًا فيه وإن وجد.. المستحيل حدث.. فأي منطق يمكن أن يروض مشاعرها أو يحكم عقلها!

تذكرت القصاصات التي أودعتها في جيوب قمصيه لتذكره بحبها وشوقها له! الأمر النابع من القلب بمنتهى التلقائية فجأة بدا تصرفًا أحمق غريبًا ملعونًا، زادها فوق الوجع حسرة وندم.. بل إن كل كلمة عشق بينهما بدت مثيرة للغثيان.. كل لمسة اشتاقتها منه بدت الآن كما لو كانت اغتصابًا..

«إنت عمري اللي ابتدى بنورك صباحه..»

قاطعت أفكارها رنة هاتفها المميزة لشخص واحد..

قاتلها!

أخذت تنظر بغضب لاسمه كما سجلته على الشاشة «حبيبي».. أمسكت الهاتف وقذفته ببعض ما آتاها الألم من قوة على الحائط المواجه لها، فتحطمت شاشته وانفتح لتنزلق منه بطاريته ويسكن صوته للأبد..

ليتها تستطيع فعل هذا به هو!..

باغتها (يوسف) مرة أخرى مناديًا إياها في قلق، كمن يشعر أن الأمور ليست على ما يرام..

(يوسف).. أيها المسكين.. لقد أنستني مرارة الغدر أنه قد طالك أنت أيضًا.. ربما تحدث معجزة لأسامحه يومًا ما، لكني أبدًا لن أسامح في حقك! كيف جرؤ أن يفعل بك هذا! كيف يدعي ولعه بك وامتداد أسباب حياته في أنفاسك! هل نسيك هو الآخر؟!

على الرغم مما يدور بخلدها من إحساس بالذنب تجاه ولدها الوحيد، خانتها قدرتها على التحكم في أعصابها، فندت عنها عصبية غير مبررة إزاء إصرار (يوسف) على سؤالها عن

الطعام.. نهرته في عنف غير مسبوق وطلبت منه الدخول لغرفته فورًا!

انتهت من تحضير الطعام على رغم ذلك.. أدخلت الصينية غرفة طفلها وتجاهلت وجهه الباكي رغمًا عنها.. لا يمكنها أن تنسى واجباتها.. بل لا يسعها ذلك.. كامرأة شرقية أدوارها في الحياة كأم وزوجة وابنة وأخت، مقدمة جميعها على كونها إنسانة! كل ما ترغبه الآن هو أن تسقط.. أن تنهار من دون أن يطلب منها أحد التماسك.. أو يذكرها بـ(يوسف).. أو يحملها وزر خيانة زوجها لها!.. كانت تعلم جيدًا أنها إن حدثت أي شخص بما حدث، ستجد أحد تلك الخناجر في الرد عليها..

دخلت مرة أخرى على بريده تطالع تفاصيل خيانته كأنها تعذب نفسها.. دُهشت أكثر وهي تجد نفسها تحاول إيجاد منطق ما.. ثغرة ما.. تتمكن من خلالها من مسامحته.. الأغرب أنها وجدت بعض تلك الثغرات.. بعض ما يعفيه من الجريمة الكاملة لكنه على الجانب الآخر يدين تلك الغريبة الحمقاء... لا بأس.. كانت المجني عليها والمحامية باقتدار في نفس اللحظة.. على رغم كل شيء.. يتحكم فيها الحب!

ظنت أنها هدأت قليلاً.. فكرت في أن ترسل له رسالة تخبره أنها تعرف كل شيء ولتنتظر ردة فعله..

ربما يركع بين قدميها طالبًا الصفح والغفران..

ربما يستجدي أمومتها تجاهه فلا تقوى على هجره..

ربما تجد بين ثنايا توسلاته واعتذارته ما تطبب به جرحها.

عادت للمطبخ لتحضر هاتفها المحمول وتحاول تجميع شتاته من جديد.. الشاشة المكسورة لا تظهر شيئا.. لكنه يعمل.. أخبرتها بذلك الرنات المتصاعدة منه..

تأهبت لاحتمال أن يكون هو..

ردت في حذر محاولة ابقاء ألمها تحت السيطرة..

لكن المتصل لم يكن (مصطفى)..

كان آخر صوت تتوقعه في تلك اللحظة بالذات..

صوت من الماضي..

حبها الأول.. أو حبها المحتمل الأول..

(كامل)..

استغل أكثر مواهبه التي شدتها نحوه آنذاك..

أنه يستطيع قراءتها.. ككتاب مفتوح.. حتى عبر الأثير..

لم تستوعب تمامًا ما الذي حدث..

انهار السد المزعوم على دقات صوته...

بكت كما لم تبك من قبل.. وحدثته بكل شيء..

شعرت خلال المكالمة أنها ألقت بنفسها في أحضانه.. وبكت على كتفه..

وربما كان هذا هو ما تحتاجه..

لكنها..

ما أن ألقت بكل ما في جعبتها حتى أسرعت بإنهاء المكالمة..

أغلقت المحمول مرة أخرى تمامًا..

هذه المرة من دون غضب.. فقط ندم.. ندم عميق..

العين بالعين.. والسن بالسن..

لكن أبدًا لن تكون الخيانة بالخيانة..

حتى لو كان البادئ..

أظلم!

(١٥)

١١ إبريل ٢٠٠٥

فض (مصطفى) القميص المكويّ استعدادًا لارتدائه..

اليوم يجب أن ينتهي كل شيء..

لقد استطالت كذبته وتفرعت وتوحشت حتى صارت تقض عليه مضجعه.. كيف تورط هكذا؟!

حتى إنه اضطر للهرب من (أميرة) بكذبة لقضاء بعض أيام في شقته القديمة يفكر على مهل كيف سيتصرف..

لا يكاد يتذكر متى بدأ كل شيء ولماذا؟!

كيف صدق كذبته وترك (دنيا) تتسرب بين ثنياه بضعفها وتمردها في آن واحد؟! هل وجد فيها ظلًا له؟! نعم.. يظن أن ما شدّه لها في البداية تعاستها.. روحها المستنجدة بروح صديقة تفهمها وتهون عليها حيرتها بين تناقضاتها المختلفة.. لم يكن يظن حتى التقاها أن هناك من هو أتعس منه أو أكثر حيرة.. لكنه وجدها.. ووجد معها دور المنقذ الطبيب.. الدور الذي لم يلعبه مع أحد سواها.. لم يستطع وجوده أن يهون على أمه فراق أبيه لها.. ولم يستطع تعويض (أميرة) حين ظنت أنها حرمت طفلًا ينمو في أحشائها..

لا.. لم يمنحه أحد تلك الهبة العظيمة سواها..

أن تشعر أنك طوق نجاة..

أن لوجودك مغزى.. هدفًا.. غاية..

لكن.. كيف وصل الأمر لتلاق في مواعيد غرامية كالمراهقين.. لا بل كاللصوص! ما زالت (دنيا) تظن أنه (د. نائل).. كيف تخيل أن تعيش تلك الكذبة للأبد.. ثم كيف وجد نفسه متورطًا بوعد زواج هو على يقين أنه لن يتم أبدًا؟! كم هو ملعون! لا ينفك يتحول لخيبة أمل لكل من ارتبطوا به.. بدءًا من أبيه ونهاية بـ(دنيا)..

بـ(دنيا)؟!.. لا بل بـ(أميرة)! يا إلهي لا يتخيل حتى حجم الكارثة إن اكتشفت الأمر! أن يصبح خيبة أملها لهو تهوين شديد لما سيكونه..

لكن..

لا يمكنها أن تعرف..

سينتهي كل شيء..

اليوم..

سينهي الأمر مع (دنيا) تحت أي مزعم وسيغلق كل حساباته المزورة التي امتدت باسم (د. نائل) مع كل وسائل التواصل «السيبرية» الحديثة.. تبًا له من عالم مزيف.. كيف تراءى له أن يبحث عن ذاته الحقيقية وسط كل هذا الزيف! كم من مرة حاول إنهاء الأمر منذ تركت له (أميرة) تلك الرسالة التي وجد في أخبارها هدفًا جديدًا لحياته.. بل امتدادًا لها.. ابنًا! سيرزق ببعض من تكوينه الأصلي في حالته النقية.. قبل أن تلوثه الأيام والظروف..

يحاول.. لكنه دومًا يفشل.. يغلق حسابًا ويترك الآخر.. يغلق بابًا ويترك نافذة أو اثنتين.. يجد نفسه مع أول تقطيبة جبين لـ(أميرة) يتحسس أخبار (دنيا).. عن بعد في البداية.. ثم لا يلبث أن يجد إرادته لقمة سائغة في فم ضعفه.. فيقترب.. رسالة قصيرة لا تضر..
أوحشتني.. لا يهم كيف ستفهمها.. نحن الآن أصدقاء فقط.. ترد عليه.. أوحشتني أكثر يا حبيبي.. حبيبها؟!.. أما زلت حبيبها؟! كيف كانت تجد تلك الكلمة كل هذا الصدى في قلبه، فتعيد نفسها مرة تلو الأخرى لتملأ جنبات تلك الغرفة القابعة في أعماق نفسه والخاوية

تمامًا.. ثقته بذاته!.. أنا حبيبها.. وهي تحتاجني.. ولا أستطيع التخلي عنها.. ويبدأ كل شيء من جديد كأن لم ينته.. وينسى في خضم ذلك كله أنه يخدعها ويخدع نفسه ويخدع (أميرة) و(يوسف).. هو ليس (د. نائل).. ولن يكون! هو.. (مصطفى).. ويحب (أميرة).. بل يعشقها! ويذوب تحت أقدام (يوسف) المنمنمة وهي تتحسس المشي بين يديه.. تلك هي الحقائق الوحيدة المجردة من أي تأويل أو تحليل أو أسباب! الكذبة الملعونة التي خلقها صارت وحشًا يأبى أن يفلته إلا بعد أن تفتك به تمامًا! لكنه لن يسمح بهذا.. لن يسمح أبدًا! لن تلاحقه تلك الصفة المقيتة التي لا يزال يسمع دويها في أذنه..

جبان.. جبان.. جباااان...

لا.. ليس جبانًا.. لن يكون منذ اليوم على الأقل.. ما زالت أمامي فرصة قبل أن ينكشف كل شيء.. لن يرجع لمنزله اليوم من سفرته المزعومة قبل أن يدفن (د. نائل).. للأبد! وسيجد ذاته الحقيقية في الواقع.. بين أصابع كفيّ (يوسف) اللتين تشبهان أصابعه.. وعيني (يوسف) المرسومتين نقلاً عن عينيه.. ذاته الحقيقية التي بحث عنها طويلاً في ركن مظلم كانت أمامه طوال الوقت.. في نور ابتسامة (أميرة) حين يداعبها.. وفرحتها الطفولية بكل ما يحضره لها.. ودفء عناقهما وهما نائمان..

كيف إذن قادته قدماه لمتاهة كهذه؟!

يمكنه أن يجد عشرات النظريات في علم النفس التي تشرح له الأسباب.. نرجسية رجل.. أزمة ثقة بالنفس.. ضعف.. حماقة.. جنون حتى.. كل هذا لا يهم.. ولا يرغب في تحليل الأمر أو الوقوف على أسبابه ودوافعه في ما فعل.. يرغب فقط في إنهاء كل شيء.. كأن لم يكن..

يرغب في أن يستيقظ غدا مطمئنًا.. على قبلة (أميرة).. وقفز (يوسف) فوق بطنه وضحكاتهما تملأ منزلهم.. وطنه الوحيد الذي لا يعرف غيره وطن.. أن يستيقظ على كل ذلك من دون هاجس أنه سيذهب أدراج الرياح يومًا ما..

سقطت من جيب القميص ورقة مطوية.. فضها فوجد فيها رائحة (أميرة).. الخزامي.. وخطها المنمق الجميل كوجهها..

«حين تلتقي عيونك برسالتي تلك.. سأكون بعيدة جدًا وقريبة جدًا.. أعدها حيث وجدتها.. تجدني على بعد خفقة شوق من قلبك..»

.. بلى حبيبتي.. أنت القريبة حتى في بعدك.. أنت من تسكنين قلبي بصدق ولا أحد سواك..

يا إلهي.. ماذا فعلت؟!

أنا ملعون..

ملعون..

ليتك تسامحينني يا (أميرة).. ليتك تسامحينني يا (دنيا) أنت أيضًا.. لم أكن أقصد.. صدقًا لم أقصد إيذاء أي أحد.. غير أني قد فعلت.. ولأجل ذلك سأبقى أسير إحساسي بالندم ما حييت..

تلك لعنتي..

لعنتي الأبدية.

أخرج هاتفه المحمول محاولاً الاتصال بـ(أميرة).. انطلق الجرس عدة مرات لكن لم ترد.. ربما هي مشغولة بـ(يوسف).. كرر المحاولة فوجده مغلقًا..

أتمنى إن عرفتِ يومًا يا (أميرة) بما حدث ألّا أجد قلبك مغلقًا كهاتفك..

زفر زفرة حارة محاولاً استجماع شجاعته وبحث في قائمة الأسماء على ثمانية أرقام يألفها جيدًا.. سجل تحتها هاتف (دنيا) احتياطيًا.. كما حرص بشدة على مسح سجل

المكالمات الهاتفية كلما اتصل أحدهما بالآخر.. والرسائل كذلك.. ابتسم في سخرية تقطر مرارة مفكرًا.. الكذب نوع من الإجرام.. يلزمه الذكاء..

يا لي من غبيّ!!

قبل أن يضغط زر الاتصال فوجئ بها تطلبه.. الثمانية أرقام تظهر جلية على الشاشة.. لسبب لم يعلمه امتقع وجهه وتسرب خوفٌ مبهمٌ لأحشائه فتقلصت معدته.. ليست معتادة على طلبه في مثل هذا الوقت لأنه أخبرها أنه يكون منشغلاً بمرضاه في العيادة.. كذبة صغيرة أخرى لزوم أختها الكبرى.. ماذا تريد يا ترى؟!

ـ آلو.. (دنيا).. سبحان الله كنت حالاً سأط..

قاطعته (دنيا) بغتة..

ـ (نائل).. من (أميرة) يا (نائل)؟! إياك والكذب..

.. لماذا لا ترد..؟!

إذن.. هي حقيقة! أنت متزوج!! وزوجتك اسمها (أميرة)!! لقد أرسلت لي من بريدك تنعتني بأفظع الصفات.. انطق! رد عليّ!

أيها الخائن..

أيها الكاذب.. الأحمق.. الـ

استرسلت (دنيا) في شتائمها التي لم يسمع منها (مصطفى) تقريبًا أي شيء.. فقد انتقل فجأة لعالم مظلم..

عالم صنعه بنفسه والآن تحتم عليه مواجهته..

بكل أشباحه وهواجسه..

عالم لا رحمة فيه..

بعد أن تحققت أشد خيالاته رعبًا..

لقد عرفت (أميرة)..

وسترحل عنه..

للأبد!

(١٦)

٢١يناير ٢٠٠١

كيف يمكنها وأد نبت الغيرة الشيطاني، الذي يتوهج الآن أكثر من أي وقت مضى؟!

انعكس وجه (هدى) الحزين المثخن بالجراح، على سطح الحائط الزجاجي في ردهة المستشفى.. حاولت استشفاف مدى نجاح المساحيق في إخفاء الكدمة الزرقاء أسفل عينها اليمنى، لكن وجهها كله يبدو في انعكاساته أزرق. استجمعت شجاعتها واتجهت للاستقبال تسترشد بأحد العاملين ليدلها على الغرفة التي نزلت بها (أميرة) في انتظار ولادة أول أبنائها..

من كان يظن أن تستأثر (أميرة) حتى بفرحة أول حفيد في العائلة؟!..

بينها وبين نفسها لا تنكر بعض الراحة التي غمرتها، حين حدث الإجهاض الأول لـ(أميرة) وتبعاته من تأخر الحمل.. أو هكذا ظنت وقتها! لم يمض عام واحد على زواج (أميرة) حتى باتت تشكو نفاد صبرها من حدوث حمل.. عام واحد فقط! وأنا التي مضى على زيجتي التعسة ست سنوات أسقى كل يوم فيها ويل الإهانة والمعايرة لتأخر حملي، على رغم تأكدي من عدم وجود مانع صحي من ناحيتي!

لمَ كان يجب أن تسبقها (أميرة) للإنجاب، فتضيف لمعاناتها مزيدًا من غلظة تهكم زوجها عليها ومقارنتها بأختها..؟ هل استكثرت الأقدار أن ترحمها من ذل الإهانة، في كنف رجل لا يتوانى عن رجمها باللفظ واليد وحتى القدم؟!

هي لم تتمن الشر قط لأختها، لكنها عجزت عن أن تسعد لأجلها، من دون أن تستطيع هي أن تحقق سعادة شخصية لنفسها.. دومًا تسبقها (أميرة) إلى ما ترنو إليه.. قلب أبيها.. عطف

زوج.. ابن.. حتى طيف أمها استحوذت عليه!..

آه لو..

لو.. أن (أميرة) لم تولد قط! ألم تكن لتصبح أفضل حالاً من الآن؟!

تلك كانت أكثر أفكارها قتامة.. حتى هي نفسها.. كانت تخاف تلك الأفكار.. هل هي شريرة إلى هذا الحد؟! هل تعاقبها الأقدار بما تضمر في نفسها؟! أم أنها ظلمت من كل من حولها، فحُرِمَت القدرة على الإحساس بما خلت أيامها منه... الرحمة!

ارتقت درج المستشفى وهي تنظر لأسفل كعادتها.. صارت تخشى المصعد منذ..

منذ تلقت أول عقاب جسدي لها على يد زوجها في مصعد منزلهم..

أول صفعة على خدها..

أول التفاف لأصابع كفه الخشن حول رقبتها..

ركلات أقدامه بينما يحكم قبضته على عنقها أكثر.. فأكثر

تنسحب الحياة ببطء من جسدها..

ويحل محلها الخزي والضعف و..

والكره!

الغريب أنها وجهت كرهها لنفسها أولاً.. وبعضًا منه لـ(أميرة).. لأبيها.. للظروف.. لكن ليس له! كأنها تستشعر استحقاقها العقاب لذنب اقترفته، غير أنها لا تدري ما هو..

ترى هل ينال الوليد ـ ابن أختها ـ بعضا من كرهها؟ وما ذنبه؟!

في الردهة المفضية لغرفة أختها بالمستشفى تقع غرفة حديثي الولادة.. نظرت للكائنات الصغيرة التي لا تقوى حتى على فتح عيونها.. لكنهم أقوى منها.. يصرخون مطالبين بحقهم في الحياة..

ترى كم منكم سيحرم أمه.. مثلي؟..

كم شقيًا منكم..؟

وكم سعيدًا..؟

الآن لا تدرون شيئًا.. لكن سرعان ما ستعلمون..

آه كم تمنيت أن تجعلني الأقدار أقوى باحتضان من يماثلكم، بعد أن ينبت في أرضي..

شعرت بالدمع يحاول أن يجد سبيلاً لعينيها الزرقاوين، لكن أرض العين جفت منذ زمن، فلم تعد قادرة حتى على البكاء. عدلت وضع طرحتها بجذبها للأمام لتخفي أكبر قدر من وجهها.

طرقت باب الغرفة ثم دخلت. كان (مصطفى) ينهض من جانب (أميرة) المستلقية على السرير.. قليل من حسد يراودها وهي تتخيله محتضنًا زوجته في حنان.. رسمت على وجهها ابتسامة بريئة تكفلت مع حجابها الأبيض الملائكي وعينيها الزرقاوين بإخفاء أفكارها المظلمة..

ـ السلام عليكم..

وكان (مصطفى) هو الأسبق في رد سلامها..

ـ وعليكم السلام.. أهلاً (هدى).. أستأذن منكما.. (أميرة).. سأذهب لأتأكد متى يأتي طبيبك.. أحبك..

تبتسم (أميرة) في خجل..

ـ أنا أيضًا.. لا تتأخر عليّ..

يغادر (مصطفى) الغرفة بينما تنفض (هدى) عن نفسها امتعاض من حنان حديثهما قبل أن يتسرب لوجهها فتبادر (أميرة) بسؤال لا تعنيها كثيرًا إجابته..

ـ أين أبي؟

ـ في الطريق.. ما بك؟

ترفع (هدى) يدها لتجذب الطرحة في حركة لا إرادية..

ـ لا شيء.. أنا بخير.. المهم أنت.. طمئنيني على الأمور.. قيصرية أليس كذلك؟

ـ بلى.. لكن.. (هدى).. أنت تكذبين.. ما الذي حدث؟.. هل.. هل فعلها مرة أخرى؟؟ هيا أخبريني أنا أختك! والله إن كان قد تطاول عليك سأقف أنا له هذه المرة وسأخبر أبي! سترين ماذا سيفعل به..

ـ لا.. أرجوك يا (أميرة).. لا تخبري أبي شيئًا.. ولا تتدخلي.. تلك مشكلتي وأنا كفيلة بحلها..

ـ لماذا يا (هدى)؟! لماذا تصرين على إقصاء كل من يرغبون في حمايتك ودفع الأذى عنك..؟ لماذا ترضين هذا الهوان لنفسك؟!

ـ أرجوك كفي عن إسماعي تلك الأسطوانة المشروخة! لم أطلب حماية أحد.. وعلى كل حال.. شكرًا!

ـ **(في حزن واستسلام)**.. أنت عنيدة يا (هدى).. حسنًا.. أنت وشأنك.. لا أريد لك إلا السعادة.. أنا أختك يا (هدى).. بل ابنتك!.. أنا (أميرة) يا (هدى).. هل نسيتِ؟؟

ـ **(مطرقة رأسها في خزي)**.. يريد الزواج بأخرى..

ـ ماذا؟!! تبًا له! كيف يجرؤ؟! كـ..

ـ كيف ماذا؟! حقه.. شرعًا من حقه.. مثنى وثلاث ورباع.. إياك وأن تتفوهي بأي شيء في حقه..

ـ (هدى)... هل.. هل جننت؟! ماذا بك؟!.. ماذا فعل لك لتصبحي... هكذا؟!!!

ـ هكذا كيف؟ مستسلمة؟ ضعيفة؟ وهل أملك الخيار؟ هل اخترت قط؟؟ أخبريني يا (أميرة) منذ متى وأنا أختار بملء إرادتي ما يحدث وما لا يحدث... ها؟!

ـ بلى اخترت! اخترته هو! على رغم معارضتي أنا وأبي! والآن تختارين البقاء معه على رغم كل ما يفعل في حقك.. لا تكذبي على نفسك وتصوري الأمر على أنه لا حيلة لك! ارفضي.. اعترضي.. افعلي أي شيء!

جذبت (هدى) طرحتها للوراء في عنف، ومسحت بكفها بعض المساحيق لتشير إلى آثار ضربه على وجهها قائلة في احتداد..

ـ وها قد فعلت.. اعترضت.. لم يكن حتى اعتراضًا كاملاً.. سألته لماذا.. فقط سألته.. فانهال سبًا ولعنًا وضربًا.. أنا عقيم يا (أميرة) ألا تفهمين؟! ألا تدركين معنى ذلك؟! ألم تتذوقي بعضا من مرارة الفشل في أن تكوني أمًا؟!

أعادت وضع حجابها للأمام محاولة تمالك أعصابها.. واستأنفت..

لا تحاكميني يا (أميرة).. كل شخص أدرى بظروفه.. لست محلي لتدركي ما أعانيه.. وكيف أعانيه.. فوفري نصائحك واعتراضك ورفضك لنفسك.. لا تدرين ما تخبئه لك الأيام..

استمعت (أميرة) لكلمات (هدى) الأخيرة في صمت، ومن دون وعي وجدت يدها تحيط التكوير البارز في جسدها كأنها تحميه من مجهول، ثم ما لبثت أن رأت نظرة أختها المصوبة لبطنها فخفضت يدها مسرعة. لم يعد هناك كلام آخر يمكن أن يقال.

في تلك اللحظة شق عباب الصمت صوت (مصطفى) المبتهج لاقتراب استقبال وليده.

ـ هيا يا حبيبتي.. الطبيب جاء وغرفة العمليات جاهزة.. هل تشعرين مثلي؟؟ آه.. اشتقت وصولك يا (يوسف)..

سألته (هدى):

ـ (يوسف)؟

ـ كما جاءني في الحلم منذ سنوات.. صبي يشبهني شكلاً ويشبه أمه طباعًا.. اسمه (يوسف)..

ـ بارك الله لكما فيه..

ـ أشكرك يا (هدى).. نفرح بأولادك قريبًا..

تبعت جملته الأخيرة لحظة صمت ثقيلة، جرت في أذيالها هواء الغرفة لأسفل، حتى شعر ثلاثتهم بالاختناق، وسط نظرات (هدى) الدامية وحيرة (مصطفى) ومحاولة (أميرة) لتجاهل الموقف. كان أسرعهم في تجاوز الموقف (مصطفى) الذي طلب من (أميرة) الوقوف لكي يأخذ لها صورة أخيرة مع (يوسف) جسدًا واحدًا. وافقت (أميرة) على مضض وهي تسترق النظرات إلى (هدى) المنزوية في ركن تتظاهر بالانشغال بالبحث عن شيء في حقيبتها. رغم أن (أميرة) لم تستطع سبر أغوار أختها تمامًا لكن حدسها أنبأها ببعض مما تخفيه.. مزيج من الإشفاق على (هدى) يسبقه خوف غريزي على (يوسف) جعلاها لا تقوى على الابتسام للصورة.. غامت عيناها بالتعاسة وهي تضع يدها فوق بطنها. التقط

(مصطفى) الصورة وساعدها على التمدد على السرير، في اللحظة التي أتت الممرضات لنقلها لغرفة العمليات..

تعلقت يد (أميرة) بيد (مصطفى) في خوف..

اختلقت ذاكرتها مشهدًا مماثلاً جرت أحداثه منذ ثلاثين عامًا..

تخيلت نفس وجوه الممرضات اللاتي يحاولن بث الطمأنينة في قلبها..

نفس الجدران البيضاء..

صرير عجلات (الترولي) المدفوع..

الأضواء «النيون» الضاربة في عينيها..

البطن المستدير الأملس أمامها تمامًا..

لكنها ليست المرأة الراقدة..

هي بالداخل.. لا ترى شيئًا مما حولها بعد..

لا الممرضات ولا الأضواء ولا بياض الحائط..

كل تلك الأشياء تحيط بأمها..

التي على وشك أن تهب أنفاسها الأخيرة قربانًا لمجيئها..

تشبثت أكثر بيد (يوسف)..

وأغمضت عينيها..

في سرّها ترجت خلاصًا سريعًا..

لها..

ولأختها..

أما ما لم تتخيله، هو أن نفس المشهد كان يجري في مخيلة (هدى) الواقفة على بعد خطوات منها بتفاصيل أقرب للحقيقة.. تسمرت مكانها مع دخول (أميرة) غرفة الولادة..

الغرفة التي ابتلعت أمها في الماضي..

ماتت..

تدرك (هدى) الآن أنها أيضًا ماتت بشكل ما في ذاك اليوم..

ابتلعت الغرفة أحلامها وابتسامتها مثلما ابتلعت أمها..

بشرتهما يومئذ الممرضة بوصول الرضيعة سليمة معافاة لا عيب فيها

لكنها لم تخبر أحدًا أن (هدى) التي بقيت على قيد الحياة.. خرجت مسخًا لا روح فيها..

هي ذاتها (هدى) التي تقف الآن تتساءل في مرارة، إن كانت (أميرة) ستنجو..

إن كان (يوسف) سيأتي..

وإن كان آتون حياتها سيستعر أكثر وأكثر بعدهما..

(١٧)

١١ نوفمبر ١٩٩٠

جلست (أميرة) القرفصاء على سطح السور المجاور للكلية، تحاول فك طلاسم الخط العشوائي في الأوراق، التي تعمل على إعادة نقلها بخطها في دفتر محاضرتها... أحكمت بعض الخصلات المنسابة كشلال على وجهها للوراء.. اقتربت أكثر من الورق مقتصدة في اتساع عينيها البنيّتين اجتهادًا لقراءة ما لا يقرأ.. إلا أن الطلسم لم ينفك! خفضت إحدى قدميها وأخذت تهزها أعلى فأسفل وهي تنفخ في الهواء البارد حولها زفراتها المشتعلة بالإحباط. «أين أنتِ يا (نور)؟!».. نظرت في ساعة معصمها تحسب كم من الوقت تأخرت عليها صديقتها، فلما أدركت أنها جاوزت نصف الساعة تأففت بصوت مسموع. فكرت في الرحيل.. ألقت نظرة عتاب على الأوراق التي كانت تود تفسير ما بها، ثم نظرة أخرى على عقارب الساعة، ونظرة أطول على نقطة بعيدة في الهواء تتوقع أن تبزغ منها (نور) في أي لحظة.

على الجانب الآخر من السور جلس الشاب الوسيم، لافت النظر لأكمام قميصه المثنية لأعلى وساعديه المكشوفين على رغم برودة الجو، يتشاغل بقراءة كتاب ما في يده بينما يراقب الفاتنة ذات الأمواج العسلية المنسدلة، والعيون الواسعة في براءة محفوفة بالمخاطر، ويزيدها حنقها وثورتها شبه الصامتة على بضع أوراق، جمالاً فوق جمال. حاول عدة مرات جذب أنظاره بعيدًا عنها ومعاودة قراءة كتابه جدّيًا، لكن قراءة انفعالاتها المكتوبة بلغة جسدها الممشوق كان أكثر إمتاعًا من أشد الروايات إثارة.

قررت (أميرة) مد انتظارها عشر دقائق أخرى، وأخرجت من حقيبتها سماعات الأذن المتصلة بالـ«وكمان».. وضعتها على رأسها وداست الزر الفضي أعلى الجهاز، ثم استأنفت

محاولة نقل المحاضرات التي فاتتها من أوراق العبقري ذي الخط المبهم على أنغام «السِّت»..

«.....

.. أين من عيني حبيب ساحر..

فيه عز وجلال وحياء..

واثق الخطوة يمشي ملكا..

ظالم الحسن شهي الكبرياء

عبق السحر كأنفاس الربى

ساهم الطرف كأحلام المساء..»

استمتع هو بالتبدل في ملامح وجهها من الحيرة والغضب للّين والانسجام.. أخيرًا ميز بين أركان الغمازتين طيف ابتسامة ألقت بتعويذة سحرية في قلبه، فجعلته يغلق كتابه أخيرًا ويسير إليها كما لو كانت منتهى رحلته الطويلة في الحياة. وقف أمامها وبادرها..

ـ صباح الخير..

قطبت (أميرة) حاجبيها انزعاجا من الظل الذي حجب النور، ليزداد الخط الماكر غموضًا.. رفعت وجهها لأعلى كثيرًا.. فإذا بعينين عسليتين تسلبان نظرها عن متابعة حركة الشفاه المتكلمة، التي تبدو كما لو كانت تخاطبها! ظلت تنظر له في بلاهة لم تعتدها في نفسها كما لم تعتد التأثر لمرأى شاب بهذه الجاذبية.. على الأقل ليس علنًا.. لكن.. تكاد تجزم أنه يختلف عن كل من قابلتهم سابقًا، وكل من ستقابلهم في مستقبلها.. بل تكاد تستشعر له وجودًا في مستقبلها!..

ما زالت الموسيقى تصدح في أذنيها بصوت عال..

«هل رأى الحب سكارى...

سكارى...

مثلنا؟!..»

أدركت أنه بينما شلّت أوهامها رزانتها المعتادة، كانت الشفاه قد توقفت عن الكلام..

في هدوء مد يده ليرفع السماعات عن رأسها..

ابتسم نصف ابتسامة أظهرت عظام فكه الذكورية..

انتابتها رعشة خوف من انجذابها نحوه بهذا الشكل..

اتسعت ابتسامته قليلاً..

ـ كنت أقول... صباح الخير..

ـ آه.. آسفة.. لم أسمع..

توقفت قليلاً لتغضب من نفسها في صمت.. يا لبلاهتي! علام أعتذر؟! ثم استطردت..

ـ .. أقصد.. صباح النور.. أيّ خدمة؟

ابتسم مرة أخرى.. ارتبكت من جديد بعد أن كاد جنونها يستقر وينزوي.. تبًا لتلك الابتسامة الغامضة غير المكتملة.. لها أثر القمر على جنون أمواج البحر! قبل أن تستوعب ما يحدث كانت يده قد امتدت مرة أخرى جاذبًا الأوراق من بين يديها.. اكتملت ابتسامته تلك المرة

كاكتمال البدر في ليلة حالكة السواد وأتبعها بضحكة عالية.. ثم سكت فجأة لترتسم أمارات الجدية على وجهه وتشرق عظام فكه من جديد..

ـ أنا جد آسف..

قبل أن تبادره (أميرة) بالاستفسار عن سبب اعتذاره ـ وإن كان قد راقها بعد اعتذارها الذي أنفقته هباءً ـ اعترض المشهد صوت مألوف كانت تنتظره منذ برهة.. كانت صديقتها (نور) وتبدو على وجهها كما في صوتها الدهشة..

ـ (كامل)؟!!.. ما الذي أتى بك هنا؟!

تغمغم (أميرة) كالمشدوهة بينما تحول نظرها بين صديقتها والغريب..

ـ (كامل)؟!

ـ منذ متى تعرفينه يا (أميرة)؟

ـ أعرفه؟!

يقاطع (كامل) حديثهما..

ـ أنتما أصدقاء إذن.. يا للصدف السعيدة..

تعود (نور) لمخاطبة (كامل)..

ـ هل تلك كليتك؟! أتصدق أنني لم أعلم حتى الآن.. لمَ لم تخبريني يا (أميرة)؟!

وتظل (أميرة) على دهشتها وتكرارها لتساؤلات صديقتها..

ـ أُخبرك؟!

ويعود (كامل) لمقاطعتهما..

ـ منذ متى وأنتن صديقات؟

تصرخ (أميرة) في وجهيهما..

ـ كفى !!!!!!!!!!!!!!!! أنت.. اصمت قليلاً.. أنتِ.. (نور).. بهدوء.. من هذا؟!!

تنظر (نور) لهما في استغراب..

ـ ألا تعرفان بعضكما؟!.. ألستما في نفس الكلية؟

يزيح (كامل) (نور) للوراء خطوة في رفق ليتقدم المشهد ويوجه كلامه لـ(أميرة)..

ـ اسمحي لي يا... (أميرة).. أليس كذلك؟.. اسمي (كامل)... تجدينه في مقدمة الأوراق المصورة معك.. محاضراتي.. غير أنها غالبًا لا تقرأ.. آسف لذلك.. لسبب ما كانت تبدو واضحة وأنا أكتبها.. أليس مدهشًا كيف يألف الإنسان خطه، بينما يبدو بتلك الغرابة في عيون الآخرين؟!.. إذن.. نحن دفعة واحدة غير أنني لا أعلم كيف لم نلتق سابقًا.. إلا عبر محاضراتي التي يبدو أنني أدين لها بغير النجاح...

نظرت (أميرة) للخط الذي كان يكدر صفو يومها منذ دقائق بإعجاب غير مفهوم.. لا يبدو سيئًا جدًا الآن.. بل إن غموضه يزيده جمالاً.. الخط طبعًا!.. تذكرت الجانب الآخر المبهم من الموقف، فنظرت نحو (نور) ترجو منها توضيح لمعرفتها المسبقة بـ(كامل) وهي التي لم تحدثها قط عنه، على رغم تشاركهما كل شيء، وبخاصة حين يتعلق الأمر بشاب وسيم كـ(كامل)! ارتبكت (نور) ولم تعلم إذا كان دورها قد جاء في التوضيح، أو سيتولى عنها (كامل) ذلك.

أنقذها (كامل) من حيرتها ليستطرد..

ـ أنا و(نور) أصدقاء.. وبالأحرى ذوينا هم الأصدقاء.. لذا فرضوا عليها تحمل ثقل ظلي في مناسبات عدة، لكن رحمة الله أنقذتها من السويعات المملة التي كانت تقضيها بصحبتي مضطرة، بعد سفر أهلي لإحدى الدول العربية.. أليس كذلك يا (نور)؟

لكزها بمرفقه مازحًا فردت في غيظ مخرجة لسانها في طفولة، كي لا يلحظا تورد وجنتيها..

ـ أرى أنك احتفظت بثقل الظل بعد كل تلك السنوات..

فأضافت (أميرة) لمزاح صديقتها...

ـ وزاد عليه خطًا لا يقرأ!

رفعت (أميرة) كفها لتقابل كف (نور) علامة اتحادهما كفريق، فابتسم (كامل) ابتسامته الغامضة..

ـ هكذا إذن.. أرى أنني يجب أن أعلن هزيمتي أمام هذا الثنائي المرح..

ضحكا بصوتٍ عالٍ..

لم تطل المشهد أي غرابة للناظرين.. غير أنه في جزء من الثانية وبينما هم مستغرقون في الضحكات والحديث سرت شحنة كهربائية في محيط (أميرة) و(نور). نظرت (نور) لـ(أميرة) تحاول استشفاف رد فعلها إزاء هذا التعارف الجديد، وفي نفس تلك اللحظة كانت (أميرة) لا تزال على نفس تساؤلها الصامت.. لمَ لم تخبريني عنه قبلاً؟... كلتاهما فهمت في عين الأخرى سؤالها.. وكلتاهما آثرت الصمت، فسرت شحنة القلق تلك لأول مرة بينهما.. لأول مرة يعكر صراحتهما سر.. سر لا ترغب (نور) في البوح به.. وكذلك تخشاه (أميرة).. صمتتا وكان في صمتهما مسمار ينغرز بألم في قلبيهما.

دعاهما (كامل) للجلوس في «الكافيتريا» وقد عرض على (أميرة) خدمة الترجمة الفورية للمحاضرات حتى تنتهي منها. شعرت (نور) بإحساس غريب كأنه دنو الأجل.. أو انتهاء الدور الصغير الذي تلعبه في مسرحية ما، لتفسح المجال لبطلة العمل، ونشوتها بتصفيق الجمهور لم تكتمل بعد.. إحساس الممثل الثانوي.. «الكومبارس».. ويا له من إحساس مقيت! أرادت الانسحاب سريعًا لكن في هدوء.. لن تتحمل.. هي تبدو قوية من الخارج... الكل يمدحون قوتها تلك.. وحدها تعلم الضعف الذي أصاب قلبها منذ سنوات عدة..

(كامل).. افتتان الطفولة الذى نمى بحذر داخل قلبها اليافع يومًا بعد يوم.. لم تر الأمر يحدث، لذا لم تحدث به أحدًا عمرها.. ولا هي!.. كان السر الذي احتفظت به بعيدًا حتى عن نفسها. تذكر الآن كل محاولتها لإظهار امتعاضها وكرهها لوجودها في محيط يوجد هو به.. حتى مشاجرتها مع أمها مدعية عدم رغبتها في حضور تلك المناسبات العائلية ثقيلة الظل، وهي تتوق لها سرًا.. ماذا كان عساها تفعل غير هذا! الشاب الوسيم وأهله وأهلها وسرب الفتيات المحلق حوله والجيران والأصدقاء.. والجميع! الجميع يتوقعون أن تقع في غرامه الفتاة الحالمة البلهاء! لكنها ليست كذلك! تعلم قدر نفسها جيدًا، ولن تسمح لتكهنات المحيطين أن تملي عليها أحداث حياتها، حتى وإن صادفت توقعاتهم هواها! لا.. ليست هي تلك الفتاة!.. لكن...

ماذا الآن؟!.. ماذا تفعل وهي تلمح بوضوح بذرة إعجاب تنمو بين (أميرة).. أعز صديقاتها.. و(كامل).. حبيبها! آن أن تعترف لنفسها على الأقل بتلك الحقيقة! لقد أحبته على رغم كل محاولتها لتجنب ذلك.. الحياة ليست قاسية في مجرياتها، بقدر ما هي قاسية في توقيتاتها! لماذا تدرك هذا الآن؟! الآن.. وأخرى على وشك أن تأخذه منها.. كبرت تشاهد هذا الموقف يحدث مرارًا وتكرارًا.. (كامل).. المبهر في كل شيء.. تدور في فلكه الكثيرات ممن يجدن في أنفسهن القدرة على إيقاعه في حبائلهن.. لكنه أبدًا لا يفعل.. لا ينجذب لأي منهن فتزداد جاذبيته أكثر فأكثر.. وتستمر محاولتهن التي لم تكن تقلقها كثيرًا حتى الآن.. فـ«الأخرى» ليست سوى (أميرة).. وهي تعلم جيدًا أنها لا تحلق مع السرب.. ولا تصطنع محيطًا من الجاذبية.. ولا تفترض قدرتها على إيقاع كل الذكور بحبائلها حتى وإن فعلت..

هي ببساطة لا تهتم.. هي الجميلة التي لا تدرك حقًا أبعاد جمالها ومواطنه.. تتصرف بتلقائية تزيد من منابع فتنتها.. هي كالحياة تمامًا.. لا تملك سوى أن تهواها!

كل هذا لم يكن ليطفئ أملاً عاشت به كل تلك السنوات.. لكن..

نظرته هو لها..

لا تعلم من أين تحديدًا اكتسبت تلك الخبرة في فهم لغة العيون.. وبخاصة الرجال.. لكنه حدث..

وهي تعلم أن تلك نظرة تشي بشيء أكبر من انجذاب رجل لجمال فتاة.. هي ليست نظرة غرام.. بل أعمق..

نظرة إجلال!

والرجل إذا أجلّ امرأة.. وقع في هواها وقوعًا لا قيام منه..

هكذا كانت نظرة (كامل) لـ(أميرة)..

هكذا أدركت (نور) أن انسحابها بات حتميًا..

فهي لن تخوض معركة خاسرة أبدًا.. ولن تستجدي حبًا لم يسع إليها منذ البداية.. لن تبحث عن حب لا يبحث عنها..

والأهم..

أنها لن تخسر صديقة باسم الحب..

لأول مرة تدرك (نور) أنها بالفعل قوية كما يراها الجميع..

قوية لأنها ضعيفة تملك زمام ضعفها.. تملك حق الاختيار.. حتى في الحب!

قررت يومها أن صفحة (كامل) قد انطوت للأبد.. وقد كان..

ليس إيثارًا لصديقتها..

ولا وفاء لها..

ولكن وفاء لنفسها..

لذاتها التي حصنتها بالمبدأ وتعهدتها بالرعاية..

تعلم جيدًا الآن أن ثمة أشياء لا يمكن المقامرة بها..

لأنك حين تخسرها..

تخسر معها نفسك..

للأبد!

(١٨)

١٢ إبريل ٢٠٠٥

- (أميرة).. أرجوك..

قالها (مصطفى) مغالبًا رغبته في البكاء، إزاء عناد (أميرة) الشديد وصمتها حتى الآن.. لقد أخبرها كل ما يمكن أن يخبرها به، وعلى رغم ذلك جاء ما حدثها به مخالفًا للحقيقة المجردة.. ذلك أنه إمّا لا يدركها تمامًا وإما أنها أقسى مما يتحمل. كيف يخبرها عن ماضيه الطويل وعذاباته حين صارت مفاهيم الأشياء مختلطة.. أمه كانت تحبه؟ لا شك! لكنها آذته في نفس الوقت... ما هو الحب؟! ما الذي يلهمنا تصرفًا جيدًا يقابله تصرف سيء، وبأي معايير يمكن أن نحكم؟ الكل يملك ضميرًا.. لكن الكل ليسوا شرفاء بنفس الدرجة.. إن كان الضمير مختلفًا لهذه الدرجة، فهذا يعني أن كل شيء نسبي.. حتى الكذب.. حتى الخيانة.. فهل يمكن أن يحاكم ضمير ضميرًا آخر يختلف عنه؟!

يدرك أنه ليس محقًا تمامًا، وأن كل أفكاره تتكاثر من حيث التقى استيعابه أنه أخطأ التصرف، بإحساسه بأنه ليس على خطأ تمامًا.. ليس على النحو الذي تعتقده (أميرة).. هي لا تستطيع رؤية الأمر إلا بعين الزوجة والحبيبة الغيور، التي طعنت كرامتها وانتهك إحساسها بالأمان مع الزوج الخائن.. لو أن الأمر بتلك البساطة لارتمى على قدميها طالبًا العفو، من دون شرح أو مقدمات أو صياغة ما حدث.. لكنه ليس كذلك!

حدثته أفكاره..

أنا لست الزوج الخائن الذي لا يقيم لمشاعر زوجته وكرامتها وزنًا! يبدو تصرفي كذلك لكنه ليس ما انطوى عليه قلبي وضميري أيضًا! غير أنني لا أعلم كيف أصب مكنوناتهما أمامك يا (أميرة).. كيف أجعلك تفهمين ما بداخلي وأنا ما زلت أحاول فهمه! ولا أقدر على صياغته

بشكل رصين منطقي كما تطلبين مني الآن! وبخاصة وشرر الغضب المتطاير من عينيك الجميلتين يحرق كل دفاعاتي..

أعطته أفكاره تلك إشارة البدء من جديد فعاود رجائه..

ـ أرجوك يا (أميرة).. اسمعيني..

ـ أسمعك فوق الساعة الآن.. ولم أجد في كلامك أي منطق.. أي شيء يمكنني أن أفهمه أو ألتمس لك به عذرًا..

ـ لكن هذا تحديدًا ما أحاول قوله لكِ! انسي المنطق لأن الأمر غير منطقي.. انسي الفهم لأنني أنا نفسي لا أفهم.. والتمسي لي العذر على رغم كل شيء... لأنني أحبك.. يا (أميرة).. يجب أن يكون لديك القدرة على استشعار صدق كلامي، وإلا.. ما معنى ما بيننا!

ـ حقًا... ما معناه؟! لم لا تخبرني أنت عن معنى ما بيننا وعن قدسيته التي دنستها على عتبات عاهرة من عاهراتك!

ـ (أميرة).. من فضلك.. لا..

ـ لا ماذا؟! هل ستغضب لأجلها الآن؟ أم لأجلك أنت.. هل آلمت كرامتك حين قلت لك الحقيقة العارية بلا مجاملة أو مواربة؟.. هل طعنتك الكلمة؟ هل تدرك كم من كلامك لها.. أثخن جراحي؟!

ـ (أميرة).. أفهم مشاعرك.. لكن..

ـ لا!! لا تفهم!! لا تفهم أي شيء.. لو كانت لديك ذرة إدراك لما أشعر به الآن، لم تكن لتحاول أن تكسب عفوي بكلمة حب جوفاء، أنت من حطم كل معانيها.. الحب ليس كلامًا.. أبدًا لن يكون.. الحب هو ما تبرهن عليه تصرفاتنا.. تفكيرنا.. اهتمامنا.. الحب لا يغرد منفردًا.. الحب

سرب من ثقة وأمان واحترام وإخلاص.. أين أنت من كلك تلك الأشياء لتأتي وتقول إنني أحبك!

تنهد (مصطفى) في استسلام..

ـ ماذا تريدين إذن؟

ـ قبل كل شيء.. أريد الحقيقة.. أريد ما حدث كاملاً.. من هي؟ كيف عرفتها؟ ولماذا حدث ما حدث؟

صمت (مصطفى) وقد أعياه الحديث.. ليت صمتها طال.. الآن لا يعرف ما الأفضل.. أن تعذبه بصمتها، أم بمنطقها الصلب الذي يهزم مشاعره ويحوله لخاسر في معركة من جمل وكلمات.. تبًا للنساء جميعًا! الحب ليس كلامًا! هه! ثم يشكون الرجل إذا لم يحدثهن بكلمات عشق! الحب ليس كلامًا! لكن كل ما ترجوه (أميرة) الآن هو كلمة واحدة.. أن أقر بذنبي وأخضع لمنطق حديثها من دون اعتراض! الحب ليس كلامًا.. تقولها وتنسى أنني إنما أحاول بكلامي أن أتصرف التصرف الصحيح.. أستعيدها وأبدأ معها من جديد! ما المشكلة في أن تسامحني من دون كل تلك المهاترات! ما بيننا أكبر من أي شيء حدث! يكفي (يوسف)...

عاود (مصطفى) الحديث..

ـ (أميرة)... اسمعيني جيدًا أرجوك.. لا تبحثي عن حقيقة واحدة.. حقيقة لقيطة داخل صفائح قمامة من «لماذا؟» و«كيف؟» و«متى؟».. صدقيني.. لن ينالك منها سوى الأذى والرائحة الكريهة.. الحقيقة الوحيدة التي تعنينا تعيش دومًا بداخلنا وليس فيما يحدث حولنا.. من فعل ماذا.. غير مهم! الحقيقة الوحيدة هي أنا.. وأنتِ.. وما بيننا.. ولا أعني (يوسف) فقط يا (أميرة).. ما بيننا من سنوات من الحب والتفاهم والمودة.. حضنك الذي لا أرتاح إلا بداخله.. كتفي التي لا تنعسين إلا فوقها... (أميرة).. لا أنكر أنني في مجمل

الأحداث أخطأت التصرف، لكن الأمر معقد للغاية ولا أعلم كيف أقنعك أن على رغم كل شيء، هي ليست بعاهرة وأنا لست بخائن.. هذا يغضبك كثيرًا.. أعلم.. وتفضلين أن أنهار وأبكي على قدميك وأخبرك أنها كذلك.. وأنني كذلك.. لكني لن أفعل لأسباب تخصني ولست أملك زمامها تماما، حتى أستطيع توضيحها لك.. كما أخبرتك... الأمر معقد.. وأنا كل ما أرجوه منك بصدق لا يقبل التشكيك أن تسامحيني يا (أميرة).. أحبك.. مهما أرهقتني بفلسفاتك الخاصة.. وتقطيبة جبينك تلك.. فلتستخدمي كل أجهزة كشف الكذب في العالم على قلبي، وعذبيه بكل وسائل القمع لديك، لن ينطق إلا بحقيقة واحدة.. لا يعرف غيرها..

ولدت يوم وجدتك..

وأعيش بين يديك طفلًا عابثًا.. يرتكب الأخطاء.. ويتعلم.. ولا يعود إلا لكِ.. مهما عاقبته..

لأجلكِ خلقت..

وعلى صدرك أموت.. وبينهما أعيش عمرًا من الخطايا أستغفر عنها في محرابك..

محرابك أنتِ يا (أميرة)..

ولا أحد سواك..

(أميرة).. أرجوكِ..

تنهدت (أميرة) وقد هدأت ثورتها قليلاً بفعل كلماته وأجابته..

ـ في الماضي كان كلامك كله صدقا لا يحتمل الكذب.. أما الآن أخشى أنه كذب يحتمل بعض الصدق.. ولست أدري إن سامحتك فقط بناء على فرضية صدق أنك تحبني ـ وإن كنت لا أجد أثرًا لقولك في تصرفك ـ هل أكون قد سامحتك حقًا؟! أم أعيش معك على كذبة جديدة فقط لشدة خوفي من افتراقنا.. ولأنني.. ما زلت أحبك..

قالتها ثم لم تتمالك عن أن تجهش بالبكاء.. جاء التصريح على غير توقعها.. من بين كل الكلام الذي حضرته لتلك اللحظة، لم تخف كلمة «أحبك» في جعبتها! ولماذا تفعل؟! الآن هو يعلم كم هي ضعيفة.. والأمرّ.. أنها تعلم كم هي ضعيفة.. تجاهه.

في الماضي حين أحبت (كامل) كانت تدرك لسبب ما، أنه افتتان لم يكتمل بعد لتصيره الأيام حبًا.. كانت مأخوذة به شكلاً وموضوعًا لكنهما لم يكونا ملائمين.. أخبرته بهذا وانتظرت أن يقنعها بعكس ما تظن لكنه كان مستسلمًا لها لدرجة ألّا يعارضها في الفراق!.. ومن انبهاره الشديد بها نبتت رغبتها في الانسحاب من حياته... لم تشعر قط أنه يكمل تلك القطعة الناقصة داخل قلبها.. (مصطفى) هو من فعل.. حبها له نضج على مهلٍ.. كانت في أوج شبابها ونجاحها وانطلاقها نحو الحياة حين قابلته.. لم تكن حتى تفتقد ذلك الجزء الخاوي في قلبها.. لكنه حين أتى شعرت بذلك الجزء يمتلئ بسيل من عاطفة لم تخبرها قبلاً.. يمتلئ حتى فاض على سائر قلبها وروحها وعقلها.. اكتمل حبه كجنين ينمو في أحشائها.. سألت نفسها كثيرًا.. لمَ هو؟.. الآن يجيب هو بعبارة لم يقلها قبل تلك اللحظة...

«خُلقت لأجلك»..

هي كذلك تدرك بداخلها أنها خلقت لأجله..

السؤال الذي يجب أن تجيب عليه الآن..

هل يستحق؟.. هل يستحق حبهما فرصة ثانية؟!

هل يمكنها أن تنسى كل ما عرفته في أيام قليلة، ولا تتركه يهدم ما بنته في سنوات؟!

لو يعلم كم امتدت جذور ثقتها بذاتها داخل ثقتها به مذ أحبته..

جرمه أكبر من مجرد خيانة.. وفعلته أكثر من تفاهة نزوة.. ومع ذلك يصعب كثيرًا أن تتركه.. تتخلى عنه.. عن أحلامها معه.. عن الكيان الجديد الذي توّجه (يوسف) وأوثق

رباطه..

يصعب أن تفارق من تدين له بتحطيم أساور الوحدة..

أعادتها لمسة يده على يدها المرتعشة إلى الواقع..

ـ (أميرة).. يحزنني بكاؤك.. وبشكل ما يسعدني أيضًا..

أجابته في استنكار:

ـ يسعدك؟!

ـ افهميني يا (أميرة).. أريدك أن تبكي ليبين لي ضعفك.. تلك هي قوتك عندي.. لا تتظاهري بما ليس في قلبك.. لا تصديني كما كنت تفعلين كلما مررت بأزمة، مدعية أنك ستتخطين الأمر بمفردك أو أنني لا أفهمك.. يا (أميرة).. لست أقدم مبررات لما فعلت.. لكني أحتاجك.. وأحتاج لاحتياجك لي.. لا تخشي قولة عشق حتى في موقف كالذي نحن فيه.. لا تخشي لجوءًا لصدري حتى وإن كنت جارحك.. صدقيني.. لم أخطط لحدوث أي شيء مما حدث.. وغالية هي دموعك التي تذرفين.. لكنها تثبت مدى حبك لي من دون افتعال.. شيء ربما كنت أحتاجه منذ زمن.. لا تدرين حبيبتي.. كل شيء يحدث بقدَر رغم أنف تخطيطنا وربما للأفضل.. إن تخطى هوانا هذا الاختبار الصعب، لربما يخرج منه أكثر صلابة من ذي قبل..

تنظر له (أميرة) بريبة.. وتشعر بتشويش يملأ كل جنبات عقلها، ويتحول تدريجيًا لصداع قاس..

ـ هل تعدني بـ..

ـ أعدك.. بل أقسم لكِ.. (أميرة) لن أكون سوى مصدر سعادتك منذ الآن.. فقط سامحيني ولا تهدي ما بنيناه معًا..

ـ لا تتعجل القسم.. فإن قسمًا لم تفِ به في الماضي يشهد الآن على زور قسمك الجديد.. عدني فقط بما في إمكانك الآن.. ستنتهي تلك القصة.. ولن أجد لها أي ذيول في أيامنا المقبلة.. وستتحرى الصدق في كل ما تقول وتفعل.. هل تعد بذلك على الأقل؟

ـ أعدك..

ـ أمر آخر..

ـ أي شيء لأجلك..

ـ سأذهب مع (يوسف) عدة أيام لمنزل والدي.. أحتاج بعض الوقت كي أرتاح.. وأنت أيضًا..

ـ لا تحددي رغباتي بالنيابة عني يا (أميرة) أرجوك... لا أرغب إلا في أن أمضي الوقت معك ومع (يوسف) ونصلح معًا ما أفسدناه..

ـ أفسدناه؟!

ـ حسنًا.. أفسدته أنا.. (أميرة) توقفي عن دور الجلّاد ذلك، ولا تقفي لي على كل كلمة.. تجاوزي.. وطالما ارتضيت التسامح فاسمحي للين والرحمة أن يقفا بجانبنا.. لا تذهبي لوالدك من فضلك..

ـ .. لا أدري ما أقول حقًا! كيف استطعت أن تقلب الأدوار هكذا فتصيرني جلّادًا مانعًا للرحمة!! أنت ضحية أفعالي إذن..

ـ .. لم أقصد.. آ..

ـ أو قصدت.. لا يهم.. سأذهب لوالدي.. ولا بديل..

ـ أنتِ تبدأين صلحًا بمعركة جديدة!.. كيف هذا؟!.. **(يتنهد في استسلام)**.. عامة يا (أميرة) إن كان لا بد حادثًا سأرحل أنا.. يومان في شقتي القديمة.. أعود بعدهما.. اتفقنا؟

ـ أسبوع..

كاتمًا غيظه تجاهل مطلبها الأخير، مكتفيًا بما حققه من مراد.. على الأقل لم تنهر حياته بأكملها.. ليكن ممتنًا لذلك وليرحل الآن في هدوء..

خرج من غرفتهما ليجد (يوسف) أمامه يبدو الحزن والتعب في عينيه..

ـ (يوسف)! ما بك حبيبي؟..

ـ لست بخير أبي.. أريد أن أنام.. بطني يؤلمني..

هرعت (أميرة) إلى الخارج على صوت ابنها، وبتلقائية وضعت يدها على جبهته.. نظرت في هلع مستنجدة بـ(مصطفى)..

ـ حرارته مرتفعة للغاية!

ما أن قالتها حتى بدأ (يوسف) في إفراغ ما في معدته..

ـ (مصطفى) أرجوك.. انس كل ما قلته.. لا ترحل الآن.. يجب أن نذهب بـ(يوسف) للمستشفى..

ولم تكن بحاجة لإعادة رجائها فقد كان (مصطفى) يحمل (يوسف) بين ذراعيه بالفعل متجهًا للحمام ليغسل له وجهه، بينما يأمرها في قلق بالغ..

ـ ارتدي ملابسك حالاً.. وغيري لـ(يوسف) ملابسه.. لا تخافي سيكون بخير..

قالها وقلبه يرتعش من الخوف..

يمكنه تحمل أي شيء.. أي شيء على الإطلاق..

إلا مكروها يصيب ولده..

أيتها السماء..

سامحيني..

ولا تعاقبي الصغير بإثمي..

الآن أرى بوضوح أن ما كان يبدو رماديًا..

ما ظننته يقع في مكان ما بين الخطأ والصواب..

هو خطأ بيّن..

وسواد حالك..

غير أني أخشى على نفسي الضعيفة قسوة اعترافي بما اقترفت..

اللّهم رحمتك أرجو..

وعفوك أسأل..

(١٩)

٢٣ أغسطس ٢٠٠٧

رنّت (هدى) جرس باب والدها في نفاد صبر، على رغم توقعها ما يستغرقه الأمر من وقت في مثل سنه.

في غلظة نهرت ابنيها التوأمين اللذين لا يتجاوزان الخمس سنوات.

ـ كفى اااااااااااااا.. امكثا بجانبي! كفى لهوًا أيها الشقيان!.. إن لم تسكتا ستريان عقابًا لم ترياه من قبل..

كل مرة يكون عقابًا «لم يرياه من قبل».. غير أنهما على رغم حداثة سنهما أدركا بالتجربة أن العقاب لا يكون مبتكرًا لهذا الحد.. تنتقل القرصة من الأذن للذراع.. تنتقل الصفعة من الخد الأيمن للأيسر... وأحيانًا شدة شعر.. تلك هي أكثرها إيلامًا بالنسبة لهما، لأنها لا تفلتهما سريعًا كما يحدث مع الوسائل الأخرى.. أدركا سريعًا أن لحظات قليلة من الألم لا تساوي تنازلهما عن المرح، فازدادت شقاوتهما.. باتت رؤيتهما لأمهما في تلك الحالة الغاضبة أمرًا مضحكًا.. لا يعلمان لماذا صار مضحكًا بعد أن كان يؤرقهما كثيرًا.. لكنه ما حدث.. هي تحبهما على كل حال.. عكس (يوسف).. ابن خالتهما الذي لا يحبانه كثيرًا هم أيضًا.. لا يلعب معهما أبدًا.. ولا يشاركهما شقاوتهما.. دائمًا منزو.. وحيد.. ليس ممتعًا على الإطلاق.. يحب التجهم كالكبار تمامًا.. كأمهم وخالتهم.. هما يحبان إغاظته كثيرًا.. يضحكان لبكائه وهو الأكبر منهما.. لكنهما يستاءان من مصالحة جدهما له.. المحظوظ! يأخذ أكبر قدر من الحلوى.. إلى أن يأخذاها منه!

من خلف الباب سأل (يوسف) في حذر تلقاه سابقًا، من أوامر أمه حول التعامل مع الغرباء..

ـ مَن؟ مَن بالباب؟؟

أجابته خالته..

ـ أووووف.. افتح حالاً.. افتح وإلا أخبرت أمك..

ـ لن أفتح قبل أن تجيبي.. من أنتِ؟

ـ الويل لك أيها الشقي.. فقط لو طلت رقبتك..!

ـ لماذا لا تقولين إنك (هدى)..؟؟

ـ (هدى)!! اسمها خالتي يا عديم الأدب والتربية! الحق على أمك! افتح حالاً وإلا...

انطلق التوأمان يضربان الباب بأرجلهما وكفوفهما، بعنف لا يتناسب مع حجمهما، وهما يصيحان.. «افتح.. افتح.. افتح..»

لوهلة فكر (يوسف) أن يتجاهلهم ويعود إلى غرفته التي هي غرفة أمه، لكنه تذكر أن جده وأمه سرعان ما يسمعان الطرق ويهرعان لفتح الباب.. إذا كان الباب سَيُفتَح في النهاية فليفتحه هو وأمره إلى الله. ما أن فعل حتى هجم عليه التوأمان وحاولت خالته شد أذنه، إلا أنه تملص منهم ليختبئ تحت طاولة السفرة..

جالت (هدى) بعينيها تبحث عن أثر أختها ووالدها، حتى وجدت باب غرفة (أميرة) مغلق ففهمت أنهما كالعادة يتحدثان في أسرارهما التي يخفيانها عنها.. حتى الآن هي لا تعلم سر مكوث (أميرة) مع والدها.. ولا تبتلع قصة اهتمامها المفاجئ بصحته ورعايته.. و(مصطفى) الذي لا تتحدث عنه أبدًا.. هل طلقها يا ترى؟! أم أنها طمعت في الشقة فجاءت تدعي رعاية الوالد، حتى إذا ما اقتنصه الموت اقتنصت هي الشقة لنفسها ولابنها.. «على جثتي!» همست لنفسها وهي تسترق السمع من وراء الباب الموصد من دون طرقه.. ميّزت صوت والدها..

ـ لست أجبرك على البوح لي بما حدث.. لكن يا (أميرة) لا أقوى على رؤيتك تذبلين هكذا أمامي.. و(يوسف).. لا تنسي أبدًا أنه أبوه وأيًّا كان ما فعله فهو لا يستحق حرمانه من ولده.. بل لا يستحق (يوسف) أن يحرم من أبيه!

ـ ومن قال إنني أحرمه إياه! هو الذي لا يجسر على أن يأتي هنا في وجودك يا أبي.. يريد تجنب اللوم والتقريع!.. صدقني لم أقل مطلقًا ألّا يأتي ليرى (يوسف)..

ـ ربما لم تخبريه كلامًا بهذا المعنى، لكن فكرتك بإدخاله مدرسة داخلية وأسلوبك... قد... لا أعلم يا (أميرة) ماذا أقول... أنا والدك ويغضبني كثيرًا أن أراك تجرحين، حتى لو لم أعلم كيف ولماذا.. وتكفيني خيبة أملي في زيجة أختك... لكن في نفس الوقت.. مذ صرت جدًّا أصبح (يوسف) وأولاد (هدى) هم من يشغلون فؤادي ويشعلون قلقي.. أخشى أن في قراراتك ظلمًا لـ(يوسف).. أنتِ تحرمينه الأب والأم يا (أميرة) وسيأتي اليوم الذي يكبر فيه ويرد لكِ الصاع صاعين ويتخلى عنك... صدقيني.. إذا كان في تدخلي وسيلة لحل مشكلتك مع (مصطفى) دعيني.. وصدقيني سأحيد مشاعري تمامًا ولن أرضى بأي ظلم لكليكما.. آفتك هي عنادك ابنتي.. لا تلقي بكلام العجوز وراء ظهرك.. ستندمين يا (أميرة).. يومًا ما ستندمين على عنادك هذا! أنا واثق أن (مصطفى) يحبك وباقٍ عليك ويعشق (يوسف).. لا تجعلي غضبتك لكرامتك تفسد عليك رؤية ما نراه جميعًا بوضوح..

ـ أرجووووك يا أبي.. وفر على نفسك هذا الكلام فلا طائل منه.. إذا كان وجودي هنا يسبب أيّ مشكلة لأيّ أحد فأنا...

ـ أنتِ ماذا؟! هل جننتِ يا (أميرة)؟! أنا والدك! وهذا بيتك أبد الدهر! في حياتي وبعد رحيلي.. وإذا كان هذا هو ما فهمت من كلامي، فإن خيبة أملي فيك كبيرة.. كأختك تمامًا!

لم تتحمل (هدى) ما تتلقاه من إهانة في غيبتها إضافة إلى أن جملة «هذا بيتك أبد الدهر» أكدت ظنونها السابقة، ففتحت الباب من دون استئذان في حدة..

ـ ما لها أختها؟! وما لي ومشكلة (أميرة) مع أستاذ (مصطفى)؟!

تفاجأ (نبيل) و(أميرة) لمرأى (هدى).. ليس لدخولها المفاجئ ولكن لمظهرها المفاجئ لهما.. بادرتها (أميرة)..

ـ هدى؟!! أهذه أنتِ؟! لمَ.. لمَ تتشحين بالسواد هكذا؟! هل حدث شيء؟! أزوجك بخير؟

تذكرت (هدى) أنها المرة الأولى التي يرونها بالنقاب، وأنها لم تحسره عن وجهها مذ دخلت المنزل.. الحقيقة لم يكن لديها رغبة لكشف وجهها.. كان قرار زوجها بعد أن انتقبت زوجته الثانية، أن تفعل هي كذلك حتى يكون قد حقق العدل بينهما. أذعنت فورًا لأن القرار وجد صدى في رغبتها بالاختفاء والذوبان في عالم لم يشعر بوجودها قط! كان مريحًا للغاية أن تخفي عن أعين البشر آثار صفعات وأكثر على وجهها، لم تختف تمامًا وتركته محملا بسنوات أكثر بكثير من عمرها الحقيقي.. نعم كان مريحًا جدًا جدًا أن تتحول لتلك البقعة السوداء الباهتة.. كما كانت تشعر دومًا...

أجابتهما في سخرية من دون أن تزيح ساتر وجهها..

ـ نعم (هدى) يا (أميرة).. هذا نقاب يا أختي إن كنت لم تسمعي عنه قبلاً.. وزوجي بخير الحمد لله.. لكن يبدو أن زوجك ليس كذلك.. هل ما زال زوجك بالمناسبة؟ أم طلقك وجئت تعيشين في خير أبي من جديد؟

وقفت (أميرة) في حدة إزاء عبارة أختها الأخيرة وقالت غاضبة..

ـ (هدى).. قلتها لي قبلاً.. وأقولها لك الآن.. لا شأن لك بحياتي أو زوجي أو ابني.. أنفصل.. أُطَلَق.. آتي هنا.. أمكث هناك.. الأمر لا يعنيك من بعيد ولا قريب.. فاحتفظي بآرائك لنفسك وطبقيها على حياتك كيفما شئت..

ـ كيف لا شأن لي؟! هذا منزلي أيضًا!! أم نسيت؟! هل أظلم لأنني مستقرة في حياتي الزوجية.؟! أليس لولديّ حق في هذا المنزل مثل ابنك تمامًا!

لم تصدق (أميرة) أذنيها! أتلك أختها؟! أتلك أخت أصلاً؟! تتشاجر في حضرة أبيهما على ما يحدث عند موته! أيّ سواد هذا الذي غلفها من الداخل كما أحاطها من الخارج!..

قبل أن تفكر في نهرها بقوة، كانت أنفاس والدها المتقطعة ويده التي تمسك بذراعه اليسرى قد أفزعتها، فجرت تحاول أن تدلك له صدره بينما وقفت (هدى) متجمدة في مكانها لا تدري ماذا تفعل، ولا يبين من ملامحها المختفية أي انفعال.. في غضب أمرتها أختها..

ـ لا تقفي هكذا! اذهبي فورًا اطلبي الطبيب!

من بين أنفاسه المتقطعة حاول (نبيل) طمأنة ابنته..

ـ أنا بخير يا (أميرة).. لا تفزعي.. أظن الأمر مر بسلام هذه المرة..

انهارت (أميرة) عند أقدام والدها في البكاء..

ـ آآآه يا أبي.. هذه المرة.. وماذا عن المرة المقبلة والتي تليها.. ماذا أفعل من دون أنفاسك في تلك الحياة يا سندي الوحيد.. من لي بعدك يا أبي إن أنت تركتني.. أموت... أموت يا أبي من بعدك.. لا تتركني أرجووووووك.. لا تتركني لقمة سائغة في فم أناس لا يعرفون الرحمة.. لا تفهم الحب... لا تتركني يا أبي.. آآآه...

ربت (نبيل) على رأس (أميرة) في حنو..

ـ كفى ولولة يا (أميرة).. تعالي.. تعالي يا (هدى) هنا.. اجلسي بجانب (أميرة)..

كآلي لا إرادة له تحركت (هدى) نحو كرسي أبيها لتجلس على الأرض عند ساقه الأخرى.. شعرت بغرابة شديدة وهي تفعل ذلك، لكنها قررت الاستسلام لعطف حرمتها منه الأقدار منذ سنوات بعيدة... نظرت لـ(أميرة).. فإذا بعينيها الزرقاوين اللتين جفتا منذ أمد تفيضان بالدمع.. لأول مرة منذ أتت تشعر برغبة في رفع النقاب عن وجهها وقلبها... تأخذها رجفة فتتعلق بكلتا يديها بساق والدها الواهنة.. تسند رأسها على فخذه وتترك لجام دموعها فَتُذرَف في تتابع وصمت..

ـ أعلم أنكما حرمتما من القلب الوحيد الذي يسع كلتيكما بلا انتقاص.. بمشكلاتكم وعواطفكم ورغباتكم.. قلب أمكما.. أما أنا.. فقد بذلت قصارى جهدي... عزفت عن الزواج ليس لأجلكما فقط، ولكن لأنني لم أجد من تملأ قلبي وروحي كأمكما.. كانت ملهمتي الوحيدة... بعدها توقفت ريشتي عن الاستجابة لأناملي كما كانت تفعل في حضرتها.. كانت حركتها آلية لا روح فيها... باتت لوحاتي لا تختلف كثيرًا عن الصور الفوتوغرافية الجامدة.. كم رغبت في الرحيل معها وإليها.. لكن لأقدارنا خطة لا تستجيب لرغباتنا.. رضيت.. واستمريت بالعيش.. كنتما تشبهانها كثيرًا ووجدت فيكما العوض عنها.. لكنّي أعترف بتقصيري.. لم أستطع منحكما كل ما أردته لكما..

وأنتِ يا (هدى).. أعلم أنك تحملت الكثير.. أعلم أنك ظُلِمت لكن كان أملي أن تتخطي كل هذا.. فأنت قوية كأمك.. لم أكن أظن أن تظلمي نفسك لهذا الحد... عودي لذاتك الأصيلة يا (هدى) ولا تتركي نفسك فريسة لشياطينك..

وأنتِ يا (أميرة).. يا أميرتي.. أمك كانت عنيدة مثلك.. لكنها كانت دومًا تحتكم لعقلها وقلبها معًا.. وأنا لم أكن ملاكًا.. كنت فنانًا.. وللفنان أنانية خاصة جدًا، لا يدركها سوى من يرى بروحه ويشعر بعقله قبل قلبه.. كثيرًا ما أغضبتها.. لكنها لم تستسلم يومًا لعندٍ يدمرنا.. في كل مشكلة كانت تذهب لغرفتنا لأجدها تضع الخزامي.. فأتعجب من فعلها.. كانت تخبرني أن عطره يهدئ من نفسها الثائرة.. حتى تستطيع مسامحتي.. سخرت عندها في إنجاح حياتنا على رغم العقبات والمشكلات، فاستحقت خلودها الأبدي داخل روحي.. كوني مثلها

يا (أميرة).. لا يكفي أن تضعي مثل عطرها.. كوني قوية وعنيدة في بناء سعادات من حولك وسعادتك أيضًا لا هدمها.. لا توجد مشكلة بلا حل.. ولا تعتقدي أبدًا أن ما يكسر لا إصلاح له... في اليابان يوجد فن يسمى «كنتسوجي».. به يتم لصق الأجزاء المكسورة بالذهب الخالص فتصير أقوى بل وأجمل... هكذا الإنسان بنيتي.. لا تتركي نفسك قطعًا مكسورة متناثرة على أرض العمر.. تجرح من يقترب منها.. واعلمي أن الانسحاب إن لم يكن كفرًا فهو أضعف الإيمان!..

لست باقٍ للأبد ولا أود ذلك.. أرغب في اكتمال روحي بنصفها الذي سبقني إلى السماء.. ولكني أخشى تركككما على ما أنتما فيه من حيرة وابتعاد عن الحق.. لن تجدا عضدًا إلا في أخوّتكما.. ارجعا طفلتيّ اللتين تحبان بعضهما.. تخافان على بعضهما.. تدافعان عن بعضهما.. كونا نورًا لا نارًا.. امنحاني السلام عند الرحيل.. أرجوكما.. (هدى)... (أميرة)

قبّلت (أميرة) جبين أبيها، ومسحت عنه الدموع التي تلألأت داخل مقلتيه في كبرياء وضعف، وقبّلت (هدى) يده بعد أن ربتت على كتفه مطمئنة إياه..

ـ والآن أريد أن أغفو قليلاً في غرفتي لأتفرغ للعب مع العفاريت الصغار.. (أميرة).. أرجو أن تعيدي النظر في مسألة تدخلي بينك وبين (مصطفى)..

ابتسمت (أميرة) ابتسامة شاحبة من دون أن تعارض أو تؤيد والدها، وأعطت ذراعها لوالدها لكي يتكئ عليها في طريقه لغرفته. شيعتهما (هدى) بنظرة لاح فيها غضبها القديم الذي توارى منذ برهة...

لمَ يصر على تجاهلي حين يحتاج شيئًا؟! يتكئ على ذراع ابنته المفضلة.. آه طبعًا.. (هدى) هي السوداء.. الظالمة! التي تسيطر عليها شياطينها.. ألم يقل هذا؟! لماذا يا أبي تصر على أن تكون عليّ.. لا معي؟ لماذا عرض على (أميرة) التدخل لحل مشكلتها التي هي يقينًا مشكلة تافهة كعادة المدللات أمثالها!.. هل أوسعها يومًا ضربًا لمجرد أنها تأخرت في تحضير الغداء؟! هل رماها بحذائه وأجبرها أن تعود به إليه وتلبسه إياه، حتى إذا ما فعلت جذبها

من شعرها ولم يفلتها، إلا بعد أن تخر على قدمه راجية متوسلة أن يتركها! ماذا عساها تكون مشكلات (أميرة) التي تركت من أجلها المنزل؟! هل أذل نفسها وكسرها مئات المرات بضرّة لا تعدو إلا وصمة عار في جبين أنوثتها.. فهي امرأة غير مكتملة.. حتى بعد أن أنجبت ولديها! هل يتركها بالأسابيع مهملة في بيت لم تشعر قط أنه مملكتها ككل النساء.. لا يسأل عن ولديه حتى يحتاجان لنقود، فتدفعهما لمحادثته كي يطلبا منه مالاً!! هل جربت طلب الطلاق فأشبعها إيذاء وهددها بالحرمان من ابنها؟! هل أهانها أمام (يوسف) حتى فقد الصبي الصغير احترامه لها فاضطرت لضربه وتعنيفه ليل نهار لإحكام سيطرتها عليه من دون فائدة!! ماذا؟! ماذا؟! ماذا؟!.. ما هي مشكلة (أميرة) الشنيعة التي سيتوسط فيها والدها الذي لم يحاول يومًا أن يتدخل لإنقاذها من براثن الوحش الآدمي الذي تزوجته! لماذا لا يشعر أحد بها وبعذابها وبضعفها! لماذا لا يرون منها سوى المرأة القوية المتسلطة الحقودة... وهي ليست كذلك... يقينًا ليست كذلك.. أو على الأقل.. لم ترغب يومًا في أن تكون كذلك.. هي ضعيفة هشة للغاية.. أضعف مما يظنون..

ليس صحيحًا يا أبي ما تظنه فيّ..

لست قوية كأمي...

ولا عنيدة مثلها..

لست شيئًا على الإطلاق..

لست إلا مجرد بقعة سوداء في حيواتكم جميعًا..

ليتها تختفي للأبد!

(٢٠)

٢ سبتمبر ٢٠١٩

«عزيزي (مصطفى)...

هل أخبرتك كم أحببتك قبلاً؟

لا.. لا أظنني فعلت.. أخبرتك كثيرًا أني أحبك لكنّي لم أحطك علمًا بمدى هذا الحب..

أتعلم لماذا؟!

لأنني أنا نفسي لم أكن أدري أني أحبك لهذه الدرجة.. إلا بعد أن اكتشفت ما اكتشفت..

لا تخف لست بصدد فتح أيّ أبواب مؤصدة منذ سنوات..

(دنيا).. البنت الغجرية المجنونة..

الروح التائهة التي تعثرت بها في طريقك يومًا ما..

كبرت كثيرًا..

وتغيرت كثيرًا..

بعد أن وجدت في صدق أحزانها وطنًا..

(مصطفى).. تلك رسالتي الأخيرة لك..

ترددت كثيرًا قبل أن أبعثها لك، لما أعلم من مراقبة زوجتك لبريدك الشخصي، وآخر ما أرغبه هو أن تطأ قدماي مرة أخرى على أرض لا تخصني، فتدهس في طريقها ما لم تحط به علمًا..

أكتب إليك رسالتي تلك وأنا على بعد آلاف الأميال منك.. أتذكر رغبتي في أن أعيش بـ(كندا)؟ كذبتي الأولى؟؟ لقد حققتها أخيرًا..

رحلت بعيدًا عن أمي وأبي..

بعيدًا عن ذكرى افتراقنا..

وبعيدًا عن قبر أخي... أتذكر أخي؟ يا (مصطفى)..

لقد مات..

سمعتهم يلومونه وهو ميت.. كما كانوا يلومونني دائمًا.. يقولون إن استهتاره أودى به..

الحادثة نشرت في الجرائد بسبب شهرة والدي.. «ابن الطبيب المشهور يقود سيارته بسرعة جنونية وهو تحت تأثير المخدرات فيودي بحياة سائق موتوسيكل وابنته ذات الأعوام الأربعة ليتضرج خبز عشائهم بدمائهم...»

لقد تجاهل الخبر كلية وفاته هو...

كما تجاهل أنه حصل على المخدرات من غرفتي..

وأنه تشاجر مع والدي ليلتها..

وأن أمًا غير مسؤولة غضت الطرف عن كل ما يحدث، حرصًا على موعدها في جمعية تترأسها..

الكل تعاطفوا مع ابنة الأربعة أعوام التي أزهقت روحها بغير ذنب.. وأمها المكلومة التي فقدت زوجًا وابنة في ليلة واحدة..

لم يسألوا عن الأخت التي ليس لها في هذا العالم سوى أخيها.. ذاك الذي رحل.. للأبد..

لم يتعاطف معي أحد يا (مصطفى).. وأنت..

أنت لم تكن موجودًا حتى..

كنت مشغولاً بتبرير موقفك معي أمام زوجتك، حرصًا على ألّا تفقدها..

أخبرني يا (مصطفى).. هل فقدتها؟ هل فقدت حياتك مثلما فقدت أنا حياتي؟ هل نفذت زوجتك تهديدها بترك المنزل في النهاية؟ أم تراك تعيش الآن هانئًا في أحضانها، بعد أن سامحتك للمرة الثانية أو الثالثة.. أو الرابعة.. لا أذكر..

لماذا كنت تعود لي دومًا يا (مصطفى) على رغم اعترافك أمامي وأنت تبكي كم تحب زوجتك؟!

لم كنت تصر على العودة لحذاء (د. نائل) وأنت تعلم جيدًا أنك لست هو.. وهو لست أنت..

لم أخبرتني أصلاً عن حبك لها؟!

هل أحببتني أنا.. قط؟

لا تجب.. أنا لا أبحث عن إجابات.. فالإجابة موجودة منذ البداية.. أنا التي أغفلتها..

بل أنا التي ركضت خلفها.. خلف مصيري المحتوم..

أنا التي ارتضيت أنصاف الأشياء في حياتي.. نصف ابنة.. نصف موهوبة.. نصف حبيبة..

نصف أخت...

أتذكر جملتك الأولى التي علقتني بك.. «أنا أبحث عني»..

أنا أيضًا.. كنت أبحث عني..

ولم يكن من المفترض أن يتعلق غريقان ببعضهما..

الأرواح الحائرة تتلاقى..

لكنها تجذب بعضها لأسفل.. فتغرق..

ما زالت تلك الروح الحائرة.. لكن هذه المرة رحلت لأبحث عن نفسي من دون زيف..

من دون استسلام للظروف والأقدار.. من دون ضعف.. وكذلك من دون تمرد أحمق..

أبحث عن نفسٍ مكتملة.. ليست نصفًا لأحد..

أنا الآن أكمل دراستي العليا في تأثير بيئة السكن على الحالة النفسية، وأتقدم بتفوق..
نصف تخصصي.. نصف تخصص أبي..

رحمة الله عليه..

ألم أخبرك؟

لقد توفى بعد أن تدهورت صحته في غضون شهور.. سقط فريسة اكتئاب حاد حزنًا على وفاة ابنه.. أخي.. ثم رحل..

رحل من دون أن أستطيع توديعه..

من دون أن أخبره كم كنت أحتاجه بجانبي.. وفي حياتي..

رحل الرجل الوحيد الذي كنت أهرب من انتمائي له، وأبحث عنه في غيره..

أنا آسفة يا (مصطفى)..

لم أكتب لألومك على أيّ شيء.. بل لأعتذر منك..

على رغم أن ما حدث لم يكن ذنبي منذ البداية.. لكني أشعر أن اختياراتي طوال حياتي حتى قبل أن ألقاك، لعبت دورًا هامًا في مأساتي..

مأساتنا..

أنا.. وأنت..

وأبي..

الذي هو أبوك..

أخفيت عليّ من تكون..

أخفيت زوجة.. ثم أخفيت ابنًا..

لكن الأخطر قبل كل هؤلاء..

أخفيت أبًا!

لكن الماضي لا هروب منه يا (مصطفى).. يا نصف شقيقي..

لا أعلم إن كنت قد حضرت العزاء أم لا.. فأنت ابنه الوحيد الآن بعد رحيل أخونا.. لكني واثقة أنك لم تدرك بعد ما للقدر من قوة، في السخرية من مخططاتنا جميعًا وأهوائنا كذلك...

أعذرني يا (مصطفى) لأنني سأتخلى عن صلة الدم التي تربطني بك.. الأمر ازداد تعقيدًا عن قدرتي على التصور أو التعامل..

وأنا قد أرهقتني الأمور المعقدة للغاية..

لا تحاول البحث عني أبدًا.. أخي الحبيب..

ابحث عن نفسك مع (أميرة).. و(يوسف)..

أخبرها أن ترتاح وتهدأ..

فلم تكن القوة المغناطيسية التي تجذبنا مرارًا وتكرارًا لنفس الدائرة

إلا لزوجة الدم الواحد..

وداعًا.. (مصطفى)

وداعًا.. أخي..»

((دنيا نائل))

(٢١)

١٦ يونيو ٢٠٠٦

«اسأل روحك.. اسأل قلبك..

قبل ما تسأل إيه غيرني..

أنا غيرني عذابي في حبك..

بعد ما كان أملي مصبَّرني

غدرك بيّا.. أثر فيّا..

واتغيرت شوية.. شوية..

اتغيرت ومش بإديّا..

وبديت أطوي حنيني إليك..

واكره ضعفي وصبري عليك....»

غاب عقلها وراء كلمات الأغنية يستشعر عذابًا فوق عذاب الواقع.

مرّ فوق العام بقليل على حياتها الجديدة مع (مصطفى) بعد أن تعاهدا على الثقة والصدق... لكن بذرة الشك لا تحتاج إلا تربة الخوف.. كالحشائش الضارة.. تنمو وتزدهر من دون استئذان، وبصرف النظر عن أي قرارات.. والثقة التي تقتلع من جذورها لا تستطيع أن تنمو من جديد.. إلا بجهد بالغ..

أما الصدق.. فسلاح ذو حدين.. حدٌ يقتل الخوف.. وحدٌ يقتل الوهم..

والحب من دون قليل من الوهم لا إبهار فيه ولا راحة في كنفه..

الدائرة تزداد ضيقًا حولها.. حتى تكاد تشنقها..

الشك ينمو في كل مكان داخلها، حتى طالت جذوره الآثمة زهرة المغفرة..

هل سامحته حقًا؟

هل كذبت وهي تعاهده على ثقة تعلم جيدًا أنها لم تعد موجودة؟

وخزة ألم تعتصر ضميرها كلما راودتها نفسها عن أن تفتش في أشيائه.. هاتفه.. حاسبه الشخصي.. عينيه.. حتى ياقة قميصه تتشممها.. علّها تعثر على قربان تقدمه في محراب الشك، فيرحمها من أفكارها التي تتسلط عليها كل ليلة..

كل ليلة وهي تنام إلى جواره.. جسد بلا طاقة حب.. مثقل بهموم لا طاقة لها بها..

هل تصدقه حقًا؟

حين تتلمس أصابعه طريقها إلى جسدها يحاول إيقاظ رغبة يحتجزها شكها فيه... حين يحتضنها.. حين يقبّلها.. حين يبتسم لها وعينه ملؤها الحزن؟

هل تصدقه؟

أيقنت أنها كانت من الحماقة بما جعلها اعتقدت أن مسامحتها إياه، كان قرارًا تملك زمامه فاتخذته..

هي لم تفعل..

فقط كذبت عليه.. وعلى نفسها.. واستمرت تمثل دور المتفضلة بالعفو، وهي حتمًا دون ذلك منزلة...

العافون حقًا...

وبصدق..

لا يتفضلون..

لا يستمرون في الإحساس بأنهم ضحايا..

وهو أيضًا يكذب.. يحاول بث الطمأنينة لقلبي ويستميت في إرضائي، للدرجة التي تزكي نار الشك.. لا تطفئها.. يعلم أنني تغيرت.. ويعلم ما الذي غيّرني ولا ينفك يسأل... «لماذا تغيرت؟!»

فهل أتحرى الصدق في إجابتي وأقذفه بكل ما يعتمل في صدري.. كل ظنوني وشكوكي التي أوجدها، كي تتغذى على روحي كل دقيقة من عمري حتى أموت.. حيّة..

«واتغيرت شوية.. شوية..

اتغيرت ومش بإديّا..»

آه من هذا العذاب الذي لا أعلم كيف أتخلص منه، حتى إنني كثيرًا ما صارعتني رغبتان.. واحدة في الاطمئنان إلى صدقه، وأخرى لإثبات صدق ظني! أن أكتشف شيئًا جديدًا فأهدم المعبد وأرتاح.. وأريحه..

هو أيضًا يتعذب..

و(يوسف) يستشعر بفطرته أن ثمة تغيرا في أجواء المنزل...

هل تعود الأمور أبدًا إلى ما كانت عليه؟

لو قدر لأغانيها المفضلة أن تجيب لأجابتها فورًا «فات الميعاد»..

«وعايزنا نرجع زى زمان.. قول للزمان ارجع يا زمان

وهاتلى قلب لا داب ولا حب.. ولا انجرح ولا شاف حرمان..»

داهمها (مصطفى) في غفلتها..

ـ حبيبتي..

ـ ها؟

ـ أحبك..

تبتسم غصبًا ولا تبادله بكلمة حب.. تكتفي فقط بسؤاله..

ـ ماذا تخفي خلفك..؟

ـ لم أعد أخفي شيئًا عليكِ حبيبتي..

ـ لم أقصد هذا..

ـ أعلم.. أمزح معك.. كل عام ونحن معًا..

ـ ها؟

ـ لا يمكن أن تكوني قد نسيتِ!..

ـ نسيت ماذا؟! هل اليوم..

ـ عيد زواجنا..! كيف تنسين؟!

لو قدر لها أن تجيبه فورًا من دون إعمال عقلها وحواجزه، لتهكمت من جملته وأخبرته أنه لا يجوز أن يعاتبها على نسيان عيد زواجهما، وهو الذي نسيَ زواجهما نفسه كلية!.. لكنها لم تفعل... فقط غممت باعتذار.. ثم استأنف (مصطفى) الكشف عن هديته..

ـ ألا ترغبين في معرفة ما أحضرت لك؟

ـ ماذا؟

من وراء ظهره، مد يده بأصيص زهور يحوي نبتة، تبدو كشجيرة صغيرة في طور النمو، ذات سيقان عديدة تتخللها أوراق رفيعة خضراء قاتمة تميل للرصاصي..

ـ ستزهر قريبًا جدًا.. ما بين هذا الشهر والشهر المقبل.. ما بك؟.. ألا تعجبك؟!

ـ بلى.. شكرًا.. جميلة.. أنا فقط لا أفهم.. لماذا؟.. لماذا نبتة؟

ـ ليست أي نبتة يا (أميرة).. إنها الخزامي.. زهرتك المفضلة.. كنت أفكر في الأسابيع الماضية ماذا أحضر لك.. أردتها هدية مميزة.. في البداية كنت أبحث على صفحات الإنترنت عن عطر خزامي فريد.. قادني البحث إلى نبتة الخزامي ذاتها ووقعت في هواها مذ رأيتها.. مثلما وقعت في هواك..

ابتسمت (أميرة) تلك المرة بصدق.. إنها حقًا لفتة تبرهن صدق اهتمامه بها.. استطرد (مصطفى)..

ـ هل تعلمين أن اللافندر ـ أي الخزامي ـ اسمه مشتق من الفعل اللاتيني «يغسل»؟ وأنه نبتة الحب في العصور الوسطى؟ هل تعلمين أنها نبتة قوية تستطيع التكيف مع مختلف الظروف وكلما شذبت أغصانها تتكاثر زهورها أكثر فأكثر؟

ـ أنت تهوى الرمز يا (مصطفى).. أفضِ بما لديك من دون ألغاز..

ـ الرمز واضح حبيبتي لا يستعصى على ذكائك... أعلم أننا مررنا بوقت عصيب.. كل ما نحتاجه هو القليل من الخزامي في حياتنا.. أن نغتسل ونتطهر كما في اللافندر.. أن تنمو جذور حبنا قوية ممتدة ولا يهم إن جفت بعض الأغصان أو ذبلت بعض الزهور.. سنشذبها معًا أنا وأنت.. سنعتني بها حتى تتكاثر زهورها ويفوح عطرها الذي يؤخذ به الجميع.. أنا وأنت يا (أميرة) حبنا هو خزامينا.. نبتة متجددة النمو.. لا تموت.. إلا لو استسلمنا تمامًا.. لا تستسلمي يا (أميرة).. أحبك.. صدقيني..

ـ لطالما كان حظي سيئًا مع النباتات.. لا أملك أصابع خضراء كما يقولون.. أخشى.. أخشى أن تموت تلك كما مات غيرها من قبل..

ـ يبقى هناك أمل إذا ظلت الجذور حية..

ـ وإذا ماتت الجذور أيضًا..؟؟

يزفر (مصطفى) في حنق..

ـ ماذا تريدين يا (أميرة)؟ هل ترغبين بالحكم على كل شيء بالفشل من دون محاولة!

ـ ليس من دون محاولة يا (مصطفى) وأنت تعلم جيدًا!! وأنا.. لم أحكم بفشل أي شيء.. فقط أتساءل..

ـ أسئلتك موصومة باليأس.. محفوفة بالافتراضات والشكوك والظنون التي لا طائل منها يا (أميرة) صدقيني! اسمعي حبيبتي.. سأجاريك هذه المرة في افتراضك.. حتى إن ماتت النبتة تمامًا.. لديك التربة.. التربة لا تموت.. ازرعي نبتة جديدة تمامًا.. المشاعر جميعها.. غضب أو حزن أو سعادة أو ألم.. أيًا كانت.. كالنباتات.. لها دورة حياة.. تحيا قليلاً.. تذبل لأي سبب.. تموت.. فقط لتفسح المجال لنبتة جديدة.. التربة الجيدة هي الضامن الوحيد

لحدوث ذلك.. إن شئت الافتراض بهذه الكيفية فافترضي أن ما بيننا هو أعمق من الجذور.. هو الأرض التي ترعى بين ذرّاتها مشاعرنا كلها.. حتى المؤلم منها.. لقد تعبت يا (أميرة) وسئمت نظرة اللوم المستمرة في عينيك.. حتى إذا لم تتكلمي.. أنا أفهم ما يدور بعقلك.. ولكن محاربة أفكار كتلك التي تسيطر عليك هو أشبه بمحاربة طواحين الهواء.. يا (أميرة) حتى وإن شئت اعتبار ما حدث هو خطئي كاملاً ولا ذنب لكِ على الإطلاق فيما حدث.. ما زال هذا لا يعفيك من واجبك اتجاه حياتنا معًا.. الشركاء يتحملون الخسارة معًا ويتقاسمون الأرباح معًا.. وأنت شريكتي.. وأنا جد آسف لما اعترى شركتنا من خسائر.. لكن كل شيء قابل للتعويض.. كل شيء قابل للإصلاح.. إن ساعدتني!

ـ ليس كل شيء قابل للإصلاح يا (مصطفى)..

قبل أن يدرك ما الذي تحاول (أميرة) فعله، ارتطم بإذنه صوت تهشم طبق من الصيني قذفته (أميرة) على أرض المطبخ. رجع (مصطفى) خطوتان للخلف في فزع من تصرفها غير المتوقع..

ـ ماذا فعلت!؟ لقد جننت يا (أميرة) ولا شك!

ـ أثبت لك.. ها هو الطبق قد تحول إلى عشرات القطع المتناثرة على أرض المطبخ.. ليس مهم كيف حدث هذا.. أليس هذا ما تقول؟.. حسنًا.. هيا.. أعد لي الطبق كما كان يا (مصطفى).. هيا.. أعده كما كان..

انفعالها مع كلماتها الأخيرة جعلها ترتعش فاستجابت دموعها لتلك الرعشة واحتشدت عند أبواب عينيها البنيّتين. ولأن هذا الانفعال كان غير متوقع بالنسبة لـ(مصطفى) فقد استجاب له حنانه بشكل عفويّ فأخذها بين ذراعه محاولاً تهدئتها..

ـ شششش... شششششش.. كفى يا (أميرة).. لماذا تفعلين كل هذا بنفسك؟.. اهدئي حبيبتي...

تمالكت نفسها ودفعته برفق عنها..

ـ أنا بخير..

ـ لا لست كذلك...

قالها وهو ينحني للم الأجزاء المكسورة من الطبق..

ـ اتركها لي.. سأقوم بلمها... ستجرح يدك..

مقاومًا الألم والغضب الذي بات يعتصر قلبه الآن أخبرها:

ـ لا يهم يا (أميرة).. لا يهمني الجرح إن كانت قطرات دمائي هي الثمن الوحيد الذي ترتضينه لتصدقي حبي لك.. لم يعد يهمني أي شيء.. ما دمت غير قادر على إسعادك يا (أميرة) أو جعلك تنسين الألم الذي تسببت لك به.. ماذا يضيرني الجرح؟....

(أميرة)...

ـ نعم؟

أخذ (مصطفى) نفسًا عميقًا قبل أن يستأنف..

ـ أتعلمين ما هو أسوأ شعور في الوجود..؟

ـ الإحساس بالغدر..

ـ كلا... الإحساس بالعجز يا (أميرة) هو الأسوأ على الإطلاق.. وهو تمامًا ما أشعر به الآن.. أكثر من أي وقت مضى..

اسمعيني..

لا أعلم إلى أين ستأخذنا الحياة بعد الآن، ولم أعد واثقًا حتى في قدرتي على إصلاح أي شيء أو الوفاء بأي عهد.. أشعر كما لو كنت منعدم الإرادة..

كما لو كنت مبتور الأطراف..

أشعر بالعجز..

لكنّي لأول مرة لن أخجل وأداريه عن أقرب الناس لي.. أنتِ يا (أميرة)..

ليس الزواج ألّا نخجل من تعري أجسادنا كل ليلة..

بل ألّا نخجل من أن تتعرى أرواحنا..

أنا يا أميرة قلبي أمامك الآن.. عارٍ.. ضعيف.. عاجز..

أطلب رفقك بي.. أطلب عونك لانتشالي من ضعفي..

أطلب عشقًا كاملاً لا تنتقصه آثامي وعيوبي..

أطلب غفرانًا حقيقيًا لا تدعيه ولا تزيفي من أجله مشاعر أو كلاما..

بحثت عن الحقيقة في عالم الزيف..

فوجدت الزيف في العالم الحقيقي..

ومن وسط كل ذلك أعلم أن حبك الخالص هو ضالتي الوحيدة..

هو ترياقي من عجزي..

عديني فقط يا (أميرة)..

أنك ستمنحيني أمنيتي الأخيرة..

أن أموت على صدرك..

بعد أن أكمل ستين عامًا بين أحضانك..

عديني يا (أميرة)..

.....

(٢٢)

١ مارس ٢٠١٦

أدار (يوسف) مؤشر الصوت في السماعات «الاستريو» لأعلى، فارتفع صوت المقرئ بالقرآن المنبعث من جهاز الـ«Mp3» الضئيل..

كانت محاولة سلمية منه، للتعبير عن اشمئزازه من صخب أصوات النسوة بملابسهن التي يندى سوادها من الخجل، لفرط تزينهن وثرثرتهن الضاحكة التي انتهكت هيبة الأسود وجلال الموت..

فكر في حزن..

مات صديقي ومعلمي الوحيد في العالم.. رحل جدّي لأتيتم للمرة الثانية.. انطفأ نور العينين الزرقاوين للأبد...

زوج مختلف من العيون الزرقاء كان يراقب (يوسف).. كانت (هدى).. خالته..

شعر ببرودة نظراتها تتسلط عليه فالتفت ناحيتها لتلقي عيونهما..

لم يألف بعد مظهرها الجديد، والذي كان من دون شك مدعاة لغمز ولمز من حولها.. فستانها الأسود عاري الأكمام، الذي تحاول أطرافه بلوغ شاطئ ركبتيها بالكاد.. صندلها الأسود ذو الكعب العال في نهاية الساقين الملتفين حول بعضهما كشمعدانين من المرمر الأبيض.. شعرها الناعم القصير المصبوغ بعناية بلون حبات الكرز.. حتى أظفارها.. كانت مطلية بنفس العناية ونفس اللون..

ازدرد (يوسف) ريقه.. كان مظهر خالته الجديد يخيفه أكثر ما يعجبه.. يذكره بإحدى الشخصيات الكارتونية الشريرة التي كان يخشاها في طفولته.. أشاح بنظره عنها وهو يتساءل عن مغزى نظرتها له..

هم بترك المكان المكتظ بالمعزيات أكثر من المعزين، لكنه فوجئ بأنامل رقيقة تحط على كتفه.. فهتف بها:

ـ طنط (نور)!

أخذته (نور) بين أحضانها في حنان أموميّ وهي تربت على ظهره. وعلى الرغم من رغبته في الاستسلام لدفء مشاعرها والحنين لذرف دموعه على أكتافها، فإنه استشعر حرجًا وخطرًا من معانقتها إياه بهذا الشكل.. فـ«طنط» (نور) على رغم كونها كأمه.. أنثى جميلة بحق! ولا يأمن هو تلاعب جسد ابن السادسة عشر به.. لا يفهم كيف لم يقع في هواها مئات الرجال! إن قدر له أن يقع في حب امرأة يومًا، ستكون بل شك تشبه طنط (نور) كثيرًا..

تملص برفق من بين ذراعيّ (نور) مرشدًا إياها إلى المطبخ حيث تعد أمه القهوة للمعزيين..

ـ (أمييييرة)..

انتزع صوت (نور) (أميرة) من طقوس الحزن، التي كانت تمارسها في صمت على صوت دقات الملعقة الفضية الصغيرة، وهي ترتطم بجنبات «كنكة» القهوة محدثة دوامة لا تنتهي.. تشبه كثيرًا ما يحدث داخل أعماق (أميرة) الآن. تركت المعلقة من يدها وألقت بنفسها داخل أحضان صديقتها باكية..

ـ ذهب يا (نور).. رحل عني.. تركني وحدي في الدنيا.. بلا سند.. بلا أمان.. كيف أعيش يا (نور)؟.. كيف؟

ـ البقاء لله يا (أميرة).. أشعر بكِ حبيبتي.. لا تحزني.. الدوام لله.. وسنلحق به جميعًا إن آجلاً أو عاجلاً.. لا تحزني يا (أميرة).. لست وحيدة.. أنا ها هنا معك.. (يوسف) معك.. و(هدى) أختك.. آ.. أين هي بالمناسبة لأعزيها؟.. لم ألمحها عند دخولي.. هل هي بخير..

جاوبتها في تهكم مرّ:

ـ بخير.. نعم بخير.. تجلس بالخارج أول كرسي على اليمين..

اشرأب عنق (نور) خارج المطبخ تحاول لمحها..

ـ أين؟؟.. لا آراها.. آآه..

ـ ها قد رأيتها..

ـ لكن.. كيف؟ لماذا؟! ما الذي حدث لها؟ هل قررت خلع النقاب يوم العزاء؟!

ـ لا.. منذ طلقها زوجها المأفون..

ـ طلقها؟! هل طلبت منه الطلاق أخيرًا؟ وكيف وافق؟!

ـ لا.. لم تطلب شيئًا.. إنما أجبرته زوجته الثانية على ذلك.. ولا أدري أكثر من هذا.. لم تتحدث عن الأمر معي ولا مع أبي رحمه الله.. فوجئنا بها هكذا.. مثل الجميع..

ـ آسفة.. لم أقصد محاصرتك بالأسئلة.. فقط استغربت.. سامحيني.. أظن حديثًا كهذا ليس مناسبًا في هذا الوقت..

ـ لا بأس يا (نور).. ما ترينه هو أبسط ما في الموضوع.. لقد كدت أصاب بانهيار عصبي صباحًا بعد أن انتهينا من الدفن، فوجئت بها وقد أحضرت حقائبها استعدادًا للمكوث هنا بضعة أيام، بدعوى ألّا تتركني وحدي، فإذا بها تتشاجر مع (يوسف) لاحتلاله غرفتها..

تصوري يا (نور)!.. تتشاجر مع ابن أختها في ظرف كهذا! توقفت عن فهمها منذ وقت طويل، لكن لم أعد مستعدة لتلقي أي صفعات جديدة.. لا منها ولا من غيرها.. أنا متعبة جدًا يا (نور).. وأشعر..

ـ أنك.. ربما.. أخطأت؟..

أجفلت (أميرة) لسماعها ما يعتمل في صدرها يصاغ بهذا الشكل..

ـ لم أقل هذا.. ليس تمامًا.. افهميني يا (نور) أشعر بالضياع التام... لم أعد أبصر طريقي.. في البداية كان الأمر أكثر وضوحًا.. سأنشغل بـ(يوسف) وبرعاية أبي وتستمر حياتي.. كنت أرى ماذا ينتظرني في المستقبل القريب.. تحمل تصرفات (هدى) ووحدتي كانا هينين.. أما الآن.. لا أدري كيف أتحمل.. وماذا أفعل غدًا.. أبي مات.. و(يوسف) كبر وصار مشغولاً بمستقبله.. لم يعد لي أحد..

ـ .. و.. (مصطفى)؟؟

ـ (مصطفى)؟

ـ نعم.. ألا تفكرين في..

ـ مستحيل! بعد أن تركنا وهاجر لإنجلترا! أتريدين أن أترجاه يعود.. لو كان ما زال يذكرنا أو يذكر أن له ابنًا.. لما تركنا.. مهما طالت الأيام.. لا أستبعد أن يكون قد تزوج هناك..

ـ (أميرة).. لن أعيد على مسامعك ما قلته لك مرارًا.. أنا سأكتفي هذه المرة بقول إنك يجب أن تعيدي حساباتك مرة أخرى.. ربما.. ربما لم يفت الوقت..

قاطعهم (يوسف) بدخول المطبخ..

ـ لم يفت الوقت على ماذا؟!

أجابته أمه:

ـ لا شيء حبيبي.. حديث كبار..

ـ حديث ماذا؟! كبار؟! لا تضحكيني يا أمي.. لم أعد طفلاً.. تعلمين أليس كذلك؟ وها أنا الرجل الوحيد في العائلة الذي يتلقى العزاء في جده.. وبالمناسبة.. هل انتهيت من القهوة؟

ـ القهوة.. نسيت تمامًا!

ـ آه طبعًا.. إذا حضرت طنط (نور).. على كلٍ.. هل تحتاجين مساعدة؟ أنا أعلم أنك لست بخير.. وسعيد لأن طنط (نور) هي الوحيدة التي يمكنها التخفيف عنك..

ـ كبرت فعلاً يا (يوسف)..

ـ كفي عن التفاجئ بهذا الأمر.. سأقوم بإخراج بضع زجاجات مياه ريثما تنتهين من القهوة اتفقنا؟

ـ حسنًا ولكن العدد محدود.. انزل اشتر صندوقا آخر وكيس سكر.. ستزداد أعداد المعزين بعد العشاء..

ـ حسنًا.. هل تريدين شيئًا آخر؟

ـ سلامتك يا حبيبي..

تدخلت (نور) لعرض المساعدة بدورها..

ـ اخرجي أنتِ يا (أميرة) للناس وأنا سأتكفل بإعداد القهوة..

نظرت لها (أميرة) في امتنان ولم تقو على الاعتراض، على رغم أنها كانت تفضل مكوثها في المطبخ عن مجالسة أي أغراب.. وعلى رأسهم.. (هدى)..

خرجت على مضض وجلست في الطرف البعيد عن (هدى) بعد أن سلمت على الوجوه الجديدة وتقبلت منهم العزاء. خفضت عينيها للأرض تناجي تفاصيل نقوش السجادة التي ألفتها منذ نعومة أظفارها، والتي تذكرها بابتسامة أبيها.. «آه.. ماذا سأفعل من بعدك أبي؟».. أنهكها الحزن لدرجة أنها لم تجد دموعًا تذرفها..

ـ البقاء لله يا (أميرة)..

كذبت أذنها! ليس معقولاً أن يكون هو.. في بطء رفعت عينيها لتواجهه.. هو.. كان هو!

ـ أنت!!

أجابها (مصطفى) في هدوء..

ـ البقاء لله..

ـ ونعم بالله.. شكرًا.. تفضل من هنا..

قادته إلى حيث يجلس الرجال، وساقاها بالكاد تحملانها من هول المفاجأة.. حاولت تجنب النظر إليه لكنها شعرت بعينيه من خلفها تخترقانها.. تعرّيان روحها المكلومة. أجلسته واتجهت من فورها إلى المطبخ تحتمي بأي جدران تعزلها عنه.. نسيت تمامًا وجود (نور) في الداخل. استندت بكفيها على رخام طاولة المطبخ تقي نفسها من السقوط.. كانت تشعر بالدوار يكتنفها وداخل عقلها لم تسمع غير صوت طقطقة الملعقة الفضية في «كنكة» القهوة ولم تر غير دوامة بنية اللون. فزعت (نور) لمرأى صديقتها على هذا النحو..

ـ (أميرة)!! ما بك؟! ماذا حدث؟؟

ولم تكن بحاجة لانتظار إجابة من صديقتها، فقد أتتها الإجابة على قدمي الرجل ذي القامة الطويلة الذي دخل توًا للمطبخ..

(مصطفى)..

أحاطت (نور) كتفي (أميرة) بيدها وربتت عليها. أومأت (أميرة) برأسها علامة أنها ستكون بخير. أسرعت (نور) بالخروج بعد أن سلمت على (مصطفى) باقتضاب يشوبه القليل من الخوف.. الخوف على صديقتها.

بادرها (مصطفى) في قلق...

ـ ... (أميرة).. انظري إليّ أرجوك... هل أنتِ بخير؟

لا يلقى منها غير الصمت فيقترب بحذر منها.. تحط يده على كتفها كعصفور تاق إلى عُشه. تأخذ (أميرة) في الارتعاش بشكل متكرر، وقبل أن توشك على السقوط أرضًا يديرها (مصطفى) ببطء نحوه ممسكًا إياها من كتفيها. يرفع ذقنها لأعلى كي تلتقي عيونهما من دون حاجز. أخبرها في حزن بالغ..

ـ .. مات.. مات من دون أن أودعه.. الأب الوحيد الذي عرفته في حياتي..

كأنما أتت جملته كآخر ضربة فأس في بئر ظنتها قد جفت، فتفجرت الدموع من جوف مقلتيها ولم تشعر بشيء بعدها، إلا بذراعيه تلتفان حول جسدها النحيل، وسيل من دموعها يروي صدره الظمآن. تحول بكاؤها إلى نشيج، وندت عنها آهة تنطق بلوعة الحرمان.. حرمانها من أبيها.. وحرمانها من (مصطفى). مرت عدة دقائق تركها تخرج كل ما في جوفها من أحزان كانت تتصارع داخلها قبل مجيئه.. كان ينقصها شاطئ ترسو فيه.. وقد أتى ميناؤها الوحيد.

تذكرت فجأة الوضع بينهما.. وأن شيئًا لم يتغير.. وأنها استسلمت للحظة ضعف، فسحبت نفسها ببطء من حضنه، كأنها لم تكن ترغب في التذكر ولا الانسحاب، إلا أنها فعلت. ناولها منديلاً فمسحت به عينيها ثم سألته..

ـ متى عدت؟

ـ حالاً.. جئت من المطار إلى هنا مباشرة.. أخبرتني (هدى) منذ يومين أن الأمور ليست على ما يرام..

ـ (هدى)؟!

ـ بلى.. حجزت بعدها أول طائرة.. كم كنت أود أن أراه.. ولو لمرة أخيرة..

ـ هو أيضًا.. كان يود أن يراك..

ـ (أميرة)..

ـ نعم..

ـ لم أحجز تذكرة ذهاب بعد..

ـ تعني تذكرة عودة..

ـ العودة لا تكون سوى للوطن.. يا وطني

ـ (مصطفى) أرجوك! دعنا نتكلم لاحقًا.. الوقت ليس مناسبا..

ـ الوقت لن يكون مناسبًا أبدًا إلا لو جعلناه نحن كذلك.. لقد مات.. ألا تفهمين معنى ذلك.. العمر له نهاية وبعد الموت تبدو كل المواقف وكل أسباب غضبنا وتعاستنا وحزننا.. ضئيلة للغاية يا (أميرة).. لا يمكن ألّا يكون كل هذا الوقت كفيلا بأن تنسي وتسامحيني.. (أميرة) مر ستة عشر عامًا من عمر ولدي! ولست واثقًا إن رأيته أني سأعرفه! ماذا يلزمك من عقاب أقسى كي تسامحيني!

ـ لم تتغير يا (مصطفى).. عالمك يدور حول نفسك فقط.. بعد كل تلك السنوات لم تفهم أن المشكلة ليست في مسامحتي إياك.. بل في أن أسامح نفسي..

ـ نفسك؟!

ـ نعم.. نفسي.. ذلك المكان الذي تركته خربًا كأنما أتت عليه حربًا مدمرة، ولم أقو أنا على إعماره وحدي! نعم نفسي!.. ذلك الكائن المخلوق من هوى ومكسو بالفطرة.. نفسي التي حاولت التصالح معها كثيرًا لكنها أبت.. وحكمت عليّ بالمنفى..

ـ أنتِ على حق.. ما زلت كما أنا.. لا أفهم الكثير من كلامك.. وما زلت كما أنتِ أيضًا.. تتكلمين كثيرًا وتفكرين كثيرًا، ثم تتركين مشاعر الألم فقط لتتحدث وتخرسين باقي الأصوات..

ـ صوت الألم هو الأعلى دومًا.. صراخه يملأ ما بداخلي من فراغ..

ـ ليس صحيحًا.. الصوت لا يحيا في فراغ.. إن كنتِ حقًا تسمعين صوت الألم بداخلك، فذلك لأنه يعيش في حيز من مشاعر أخرى.. ربما تكون السعادة التي شعرت بها يومًا ما.. معي..

ـ ما زلت تحول مشاعري لمعارك كلامية تكسبها لتخرسني.. والأولى بك أن تخرس ذلك الألم الذي يعيش بداخلي..

ـ لا فائدة.. حسنًا.. سأخرس أنا وأودعك من جديد..

ـ **(في تهكم)** كالعادة..

جحظت قليلاً عيناه الحمراوان من أثر الأرق والغضب معًا.. أمسك ذراعها بعنف آلمها..

ـ ماذا قلتِ؟!

لم تره (أميرة) في مثل تلك الحالة قبلاً، لذا أصابها الخوف فآثرت التراجع عمّا قالت..

ـ لا شيء.. لم أقل شيئا.. آه.. إنك تؤلمني..

ـ ليس بقدر ما تؤلمينني.. إياك يا (أميرة) أن تتهميني بأنني السبب في البعد وأني تركتك.. على كل منّا أن يتحمل نصيبه من الخطأ! أنتِ طلبت الطلاق وأصررت عليه.. أنا من رفض.. أنا من ترجاك مئات المرات للرجوع عن موقفك ولم ترضي.. أنتِ من حرمني (يوسف).. أنتِ يا (أميرة).. وليس أنا..

تذكرت لدى ذكره اسم (يوسف) أنه أوشك على الرجوع، وخافت أن تُحدِث مواجهته مع أبيه الآن عواقب وخيمة.. له.. ولها أيضًا.. لقد كبر (يوسف) ولديه إحساس أن أباه هو الذي تخلى عنه.. والحقيقة أنها لم تحاول قط تغيير تلك الصورة في ذهنه.. كيف كانت ستشرح له أنها هي من تحرمه من أبيه لأسباب تتعلق بمشاعرها.. لو أخبره الآن.. وبعد أن فقد جده ربما.. ربما يصدقه.. ربما يكرهها.. ولدها الوحيد! أفاقت على صوت (مصطفى) الذي ما زال يمسك بذراعها ويضغط أكثر.. بينما صوته يعلو..

ـ أين (يوسف) يا (أميرة)؟.. يجب أن أراه.. لن أسمح لجنونك بأن يدمر كل شيء.. أين (يوسف)؟!

جاءت (نور) على صوت (مصطفى) وحاولت فصل قبضته المحكمة على ذراع (أميرة) التي تقف في ذهول من دون حركة.. أجابته (نور):

ـ (يوسف) ليس هنا على الإطلاق يا (مصطفى).. أرجوك ارحل الآن.. لأجل خاطري.. الناس بالخارج بدأوا يسمعون شجاركما.. لأجل الرجل الذي أحبك كولده.. والذي مات منذ ساعات.. أنت في بيته.. (مصطفى).. أرجوك..

استجاب (مصطفى) لرجاء (نور).. أفلت (أميرة) ورحل مع (نور) في طريقه للباب..

بالداخل كانت (أميرة) تشعر بالإعياء الشديد.. وغضب.. وحزن.. ومن بين عينين غائمتين رأت أختها (هدى) تقف عند باب المطبخ.. عيناها الزرقاوان باردتان كالثلج.. على وجهها شبح ابتسامة غير مفهومة..

وبكل ما أُوتيت (أميرة) من قوة، وجدت نفسها تقذف بفنجان القهوة في اتجاه (هدى) ليخطئها ويصيب حاجب القادمة توًا..

(نور)..

تحسست (نور) خيط الدماء السائل على وجهها، بينما تملك الفزع من (أميرة) عدة ثوان قبل أن تسقط..

مغشيًا عليها..

وسط تساؤلات (يوسف)..

عمّا حدث...

(٢٣)

٢٣ إبريل ٢٠٣٣

أشرف اليوم على الانتهاء واقتربت عقارب الساعة من الثانية عشر..

تمدد (مصطفى) على الأريكة بعد أن أنهكه الحديث المتواصل، الذي لم يتخلله إلا بعض رشفات من كوب الماء الموضوع بجواره على الطاولة. خرج (يوسف) من غرفة خالته يحمل حقيبة سفر متوسطة الحجم..

ـ لقد انتهيت يا أبي.. لكن.. أواثق أنت من رغبتك في العودة لمنزلنا الليلة؟ أرى أنك مرهق للغاية.. لنبت الليلة هنا ونتحرك في الصباح الباكر..

ـ لا يا (يوسف).. لن أبيت ليلة واحدة في أي مكان غير المنزل.. بيتي..

ـ حسنًا.. كما تشاء.. هيا بنا نذهب..

عاونه (يوسف) على النهوض وتأبط ذراعه العجوز، حتى نزلا إلى حيث سيارة (يوسف).. أجلسه في المقعد المجاور له ثم احتل مقعد السائق.. قام بلمس بعض الأزرار على اللوحة التي أمامه، فبدأت السيارة في التحرك.. ابتسم له (مصطفى)..

ـ كل شيء في أيامكم هذه صار باللمس.. الكثير من اللمس بين البشر والأجهزة... والقليل من اللمس بين البشر وبعضهم.. حتى إني لأتساءل.. هل ما زالت القبل والأحضان مسموحة في زمنكم هذا؟

ـ **(ضاحكًا)** بلى مسموحة.. لكن بحذر.. الناس هم من صاروا يخافونها.. لا تنس أن الأوبئة التي اجتاحت البلاد منذ عدة أعوام انتشرت بالقبل والأحضان!

ـ حمقى..

ـ **(مبتسمًا)** بلا شك.. أخبرني يا أبي..

ـ مرة أخرى من فضلك..

ـ ماذا؟

ـ أعد على مسامعي طلبك..

ـ أخبرني يا أبي..

ـ نعم.. لا تتكاسل عنها أرجوك.. «أبي».. أريد أن أسمعها طوال الوقت.. ابدأ بها كلامك وأنهه بها.. هي دوائي الوحيد الآن..

ـ لا تقلق.. سأصيبك بالملل منها.. يا.. «أبي».. وقريبًا أتزوج لأحضر لك من تناديك «أبي» ثم أنجب أطفالاً ينادونك يا «جدّي».. حينها سينعدم تأثير «أبي» وستطلب بنفسك ألّا تسمعها ثانية..

ـ مستحيل يا (يوسف).. يا ولدي..

ـ أبي.. لا أريد إرهاقك بمزيد من الأسئلة، فبين ما حكيته لي وبين ما قرأته في مذكرات أمي.. اكتملت إلى حد بعيد الصورة.. لكن بعض الثغرات لا أجد لها إجابة..

ـ صدقني يا (يوسف) لقد أخبرتك بالحقيقة كاملة..

ـ لا توجد حقيقة كاملة يا أبي.. أنا أصدقك.. لكنك أخبرتني بالحقيقة كما رأيتها أنت.. وأمي أخبرت بالحقيقة أيضًا كما رأتها.. تطابقت أحداثكما عن الرواية وإن اختلفت تفاصيلها.. الحقيقة الكاملة وهم.. حتى بوضع تلك الأجزاء من روايتك وروايتها معًا.. ستتناقض.. أنت

مثلاً حكيت بصدق عن محاولات عدة للم شمل أسرتنا من جديد، وهي في مذكراتها لم تنف تلك المحاولات لكنها أضافت لها تفاصيل جعلت رغبتك في استرجاعنا غير جدية بالقدر الكافي.. المهم أن أقرب نقطة للحقيقة الكاملة ستقع بين منتصف المسافة من روايتكما... لكني أسأل عما أغفل كلاكما ذكره.. مثلاً.. ماذا حدث حين اكتشفت أن (دنيا) هي أختك! وهل أخبرت أمي بذلك؟.. ألم يشفع لك ذلك في إنهاء الفراق؟!

ـ في الحقيقة لقد علمت بعلاقة الأخوة بيني وبين (دنيا) قبل أن ترسل لي خطابها الأخير.. في فترة وفاة جدك (نائل).. كنت آنذاك في إنجلترا ولم أتمكن من حضور العزاء لكن زوجة أبي ـ أم (دنيا) ـ تمكنت من الوصول لرقم هاتفي وأخبرتني عن وفاته بصفتي الابن الوحيد له الآن بعد وفاة ابنها وهروب (دنيا) إلى كندا.. قصدتني في محاولة الوصول لـ(دنيا) والتحدث معها لإقناعها بالرجوع.. كان في حديثها تفاصيل كثيرة عن (دنيا) التي أعرفها.. وتذكرت كلامها المقتضب عن والدها الطبيب النفسي المشهور.. وكلام أمي في السابق عن زيجة أبي وبنت أنجبها تدعى (دنيا).. واستنتجت ما حدث.. كانت صدمة قوية يا (يوسف).. ربما أفقدتني حتى القدرة على اتخاذ أي قرارات.. لم أتحدث إلى (دنيا) ولم أرد على خطابها.. لكني حاولت إخبار أمك بالطبع، إلا أنها أغلقت في وجهي كل أبواب الاتصال بها.. في النهاية أطلعت (هدى) خالتك على الأمر، ورجوتها أن تتحدث إلى (أميرة) بالعقل لكنها لم تتواصل معي بعدها..

ـ خالتي! كانت تعلم؟!

قالها بغلٍ وأسى جعلت (مصطفى) يندم على ما قاله..

ـ اسمع يا (يوسف).. أعلم ما كان بين أمك وخالتك من علاقة متوترة ومعقدة.. لكن صدقني.. لم تكن (هدى) بهذا السوء.. تصرفاتها الغريبة تلك لم تكن أكثر من استنجاد بكم.. تلك كانت طريقتها.. لكن لم يسمعها أحد.. لا تلمها أرجوك.. كلنا مخطئون بشكل أو آخر.. وكل منّا يجد خيطًا طويلًا من المبررات لتصرفاته.. غير أن هذا الخيط يلتف حول رقابنا من دون أن نشعر.. كل منّا يشنق نفسه بأفعاله فأعفها من لومك..

ـ لا يا أبي.. صحيح أن كل إنسان رهن تصرفاته، لكنه لا يؤثر بها في حياته فقط.. كل ما نفعل يؤثر في حيوات أخرى ربما لا نضعها في حسباننا.. وقد آذت خالتي جدي وأمي وأنا وحتى ولديها!.. اعتقدت في الماضي أنها فقدت عقلها تمامًا! تتشاجر من أجل غرفة في منزل، ثم من أجل المنزل ذاته، وروح جدي لم يمر على مفارقتها جسده ساعات! حجاب فنقاب ثم من دون تمامًا! لم أفهمها قط! أعتقد أنها هي نفسها لم تفهم ذاتها! وازداد جنونها بعد أن علمت أن جدّي رحمه الله قد كتب الشقة باسم أمي، التي لا مأوى لها سواها، بينما تملك خالتي شقة باسمها تركها لها زوجها بعد الطلاق.. ولم يغبنها جدّي في حقها في الميراث، بل ترك لها نصيبا أوفر من المال في مقابل نصيبها في الشقة.. أعتقد أنها ما تواصلت معك إلا لتضمن بقاءنا بعيدا عنك.. والأكيد أنها لم تخبر أمي عن حقيقة عمتي.. (دنيا)..

ـ يا ولدي.. لا تنس أنك أيضًا ترى من الحقيقة ما تستطيع رؤيته.. وروايتي ورواية أمك عن الأحداث، لا يمكن الحكم من خلالهما على تصرفات خالتك، إلا لو سمعت حقيقة ثالثة من خلالها هي..

ـ أنت على حق..

تذكر (يوسف) حينئذ أمرًا هامًا.. فأراد أن يتأكد من بعض الشكوك التي راودته منذ بدأ حديثهما..

ـ أبي.. هل تذكر (سعيدة)؟ الممرضة التي كانت تعتني بأمي والتي أخبرتك من خلال ما رويته لي، عن أخيك الذي توفي في حادث، أنه نفس الحادث الذي أودى بزوج وابنة (سعيدة).. أتذكرها؟

ـ (سعيدة)؟.. بلى أعتقد أنني أتذكر اسمها..

ـ لقد أعطتني ورقة صغيرة قالت إن أمي أوصت بأن أسلمها لك.. وحين وجدت آخر صفحة من المذكرات مقطوعة أيقنت أنها تلك الورقة المطوية معي.. لم أتمكن من منع فضولي لقراءتها منذ استلمتها، لكني لم أفهم ما بها إلا بعد حديثنا.. هي لك الآن..

ـ هات.. على كل حال لن أقرأها الآن.. أوشكنا على الوصول لمنزلنا.. وسأذهب في الصباح لأمك وأعيدها للمنزل رغمًا عنها.. حتى لو اضطررت لحملها!! سأجعلها تقرأ علي بنفسها خطابها أو مذكراتها تلك.. حتى نتشاجر ثانية..

أخذ يضحك في انفعال طفولي بينما الحيرة تمزق قلب (يوسف).. ماذا يفعل الآن؟.. لا بد من استشارة طبيب ولا شك.. لكن هل يؤذيه لو أخبره؟..

ـ أبي.. أنت تعلم أن أمي.. ماتت.. أليس كذلك؟ مر على وفاتها أكثر من عام الآن..

ـ ماذا تقول؟؟ ما هذا الهراء يا (يوسف)؟.. (أميرة) ماتت! كلا! لماذا تقول هذا الكلام الفظيع عن أمك! أكثر من عام؟! في أي عام نحن؟!.. لا ليس صحيحًا ما تقول.. لقد وعدتني (أميرة).. سأموت أنا أولاً على صدرها حين أبلغ الستين.. وأنا لم أبلغ الستين بعد.. أليس كذلك يا (يوسف)؟؟.. لماذا تقول هذا الكلام..؟؟ هل تبكي؟ أما زلت غضبان مني يا (يوسف)؟ لقد أخبرتك ما جرى.. لا تحزن يا (يوسف).. أنا آسف.. آسف..

ـ أبي.. اهدأ.. أبي.. لست غضبان.. ولا حزينا.. أنا آسف يا أبي.. أرجوك اهدأ الآن.. لقد وصلنا المنزل.. منزلنا.. معك نصف الميدالية أليس كذلك؟.. هاتها..

أخرج (يوسف) النصف الذي معه ووضعهما بجوار بعضهما، فتشكل قلب كامل نقشت عليه العبارة التي تساءل عنها (يوسف) كثيرًا..

«ليس أجمل من منزلنا»

ابتسم (مصطفى) وهدأت روحه تمامًا..

الآن يمكنه الصعود لمنزل تسكنه أرواح حقيقية لا أشباح..

الآن يرتاح جسده على سريره..

لكنه لن يرقد على جانبه..

بل على جانب حبيبته من السرير..

علّه إذا لم يستيقظ في الصباح يكون قد فارق الحياة على صدر وسادتها..

الآن ترتاح روحه..

(٢٤)

٢٧ إبريل ٢٠٣٣

دلفت (هبة) إلى المقهى الصغير تفتش عن طاولة خاوية لتنتظر (يوسف) إلا أنها ابتسمت في سعادة طفولية حين وجدته بانتظارها.. قاطعت تأمله لخيارات الطاولة وسحبت كرسيها للوراء لتجلس..

ـ هل تنتظر أحدًا؟!

ـ أنتِ.. انتظرتك عمر كاملاً..

ـ الله! يا سلاااام.. ما كل هذا التغيير؟.. هل وقعت على رأسك صباحًا؟ أم اختطفك بعض الفضائيون في أثناء الفترة التي اختفيت فيها، وأعادوا تركيب مخك؟؟!

ـ احترت معك.. إن تأخرت وصمت قلتِ لا تحبني.. وإن جئت مبكرًا وأسمعتك ما في قلبي قلتِ مجنون.. ماذا أنا فاعل معك أيتها المجنونة الجميلة؟

ـ مجنونة؟؟

ـ وجميلة.. لماذا تسمعن نصف الكلام فقط يا (هبة).. النساء جمعيهن مخبولات ولا شك، هذا ما تأكد لي!

ـ مخبولات بالقدر الكافي لنحبكم معشر الرجال..!.. المهم.. لا تحاول الهروب.. أين كنت الفترة الماضية؟ لم تكن ترد عليّ حتى إنني ظننت أنك تراجعت عن الزواج وتركتني.. لم أصدق حين طلبتني صباحًا لنلتقي.. ماذا حدث..

ـ حدث أن عمرًا بأكمله فاتني وكنت أعوضه الأيام السابقة.. سأحكي لك كل شيء بالتفصيل لكن ليس الآن... بعد أن نتزوج.. في أسرع وقت يا (هبة)..

ـ هل أنت (يوسف)؟ يا (يووووسف).. أين أنت؟؟

تلفتت يمينًا ويسارًا كأنما تبحث عن (يوسف) آخر بشكل هزلي آثار ضحكه..

ـ هنا يا حبيبتي.. أمامك.. ملء عينيك ورهن إشارتك..

ـ **(في خجل)** كفى يا (يوسف).. سيغشى عليّ..

ـ لن أتوقف يا (هبة) عن حبك وعن إمدادك بالسعادة ما حييت.. تعلمت الكثير عن الحب والحياة والسعادة في الأيام السابقة.. تعلمت أن لا شيء يستحق أن تضيع لأجله أعمارنا هباءً.. لا حسابات تبرمجنا ولا مشاعر تقودنا.. يجب أن ننال حريتنا من داخلنا.. من داخل القيود التي تأسر نفوسنا.. يجب ألا نستمع إلا لصوت الخير والجمال والحق.. حينها يصبح الحب نعمة وتصبح الحياة بسيطة، بلا تعقيدات زائفة تجعلنا نتوه عن ذاتنا الحقيقية..

ـ الخير.. الجمال.. الحق.. أصبحت فيلسوفًا يا (يوسف).. تحدث.. تحدث أكثر.. أريد أن أسمعك عمرًا بأكمله..

ـ كلا يا (هبة) سنتحدث أنا وأنت كثيرًا، لكن ليس أكثر من اللازم..

الكثير من الكلام يقتل الحب..

والكثير من الصمت يقتل الحب أيضًا..

أما الكثير من التفكير فيقتلنا نحن!

عديني يا (هبة) ألا تتحول حياتنا لمعارك كلامية وتحليلات وانتقادات واستنتاجات..

عديني أن الأمر سيكون أبسط وأنقى من ذلك..

مودة.. ورحمة..

روحان تتعريان أمام بعضهما وتنفذان إلى مسام بعضهما فتستحيلان أقرب ما يكون إلى الكيان الواحد.. والعقل الواحد.. والقلب الواحد..

عديني يا (هبة)..

ـ أعدك..

ـ سأطلب منك شيئًا آخر.. هل لديك مانع أن نسكن مع والدي؟

ـ والدك؟! هل رجع؟ لم تخبرني! مـ..

ـ لا أسئلة الآن يا (هبة) أرجوك.. فقط فكري في الأمر من حيث المبدأ.. لا أقوى على تركه وحيدًا، وليس بي رغبة أن أعيد خطأي مع أمي رحمها الله بتركه في مشفى، وهو يرفض تمامًا ترك شقتنا القديمة.. فإذا كان الأ..

ـ بالطبع..

ـ بالطبع ماذا؟

ـ موافقة.. سنذهب نحن لنعيش معه.. ونرعاه معًا..

ـ لا توافقي بهذه السرعة.. فهو مريض.. لدينا موعد مع أحد الأطباء النفسيين بعد قليل.. حين أخبرته طنط (نور) بوفاة أمي لم يتحمل الصدمة.. تشوش عقله بشكل ما بحيث يقيه الحزن الشديد عليها.. إحساسه بالزمن مختلف عن الواقع.. عقله يعي كل شيء إلا وفاتها.. إلا أنه تنتابه كل حين حالة من الصمت والحزن المفاجئ، كأنه أدرك ما حدث، لكنه لا يتكلم

عن وفاتها أبدًا.. جلسات العلاج الغرض منها تهدئة نفسه، حتى لا يصاب عقله بتشوش زائد في اتجاه آخر.. هل تستطيعين تحمل ذلك معي؟ فكري أو..

قاطعته (هبة):

ـ الكثير من التفكير يقتلنا!.. الحق.. الخير.. الجمال.. أنا معك ومنك وإليك.. أنا أحبك حبًا يسمو على الكلام ويرقى إلى الفعل.. سأذهب معك أيضًا لموعد الطبيب.. إذا لم يكن لديك مانع..

ـ أنتِ تساندينني لدرجة أنني بدأت التفكير في اصطحابك لزيارة خالتي في المشفى الذي تقيم به..

ـ خالتك؟! لك خالة أيضًا.. آ.. حسنًا.. لا أسئلة الآن.. لكن يجب أن تعدني بأن تحكي لي كل شيء..

ـ أعدك بأكثر من هذا..

تناول يدها وقربها إلى وجهه، ثم قبّل أطراف أناملها واحدا تلو الآخر، بينما أطرقت (هبة) إلى الأرض خجلاً.. ثم خلل أصابعه في أصابعها لتتشابك.. نظرت له بحب وسعادة. سحب يده لينزل بجزعه لأسفل محضرًا صندوق هدايا مربعًا أبيض اللون..

ـ كدت أنسى.. أحضرت لك هدية..

ابتسمت (هبة) في سعادة وأخذت تفك الشريط الأبيض في عناية..

ـ ما هي؟ هدية زواج؟

ـ افتحيها.. هدية زواج.. هدية حب.. هدية عمر.. لا فرق.. لا يجب أن نسمي مناسبتنا ولا هدايانا.. هي هدية وحسب.. أتمنى أن تعجبك..

أمسكت (هبة) الطبق الأبيض ذا النقوش الزرقاء والذي تخللته جداول من الذهب بين حنايا أجزائه المكسورة... ندت عنها آهة إعجاب بجماله..

ـ أمعقول؟! أن تتحول قطع مكسورة لشيء بهذا الجمال والروعة..؟؟ هل هذا ذهب حقًا؟؟ من أين أتيت به؟؟

ـ وجدت الأجزاء المكسورة كلها مجمعة داخل صندوق ذكريات والدتي في منزلنا، وتذكرت ما أخبرني به جدّي يومًا عن فن الـ«كنتسوجي» في اليابان.. إذا انكسر لهم طبق لم يتخلصوا منه، بل لصقوا الأجزاء المكسورة بالذهب الخالص، لتذكرهم دومًا أن ما يكسرنا يصيرنا أقوى وأجمل...

ـ كالماضي..

ـ تمامًا.. الآن أفهم تعلقك بالماضي.. لكن لا تجعليه تعلقًا يجرك لأسفل.. فالماضي انتهى.. وما له في الحاضر رهن إرادتنا نحن وقراراتنا نحن.. سنصبح أقوى، ما لم ننس من ماضينا ما نتعلم منه ما يجعل حاضرنا أجمل، ونواري ما دون ذلك..

ـ هيا بنا إذن..

قالتها وهي تعيد الطبق بعناية لصندوقه وتحمله، بينما تنهض من كرسيّها..

ـ لم العجلة؟!

ـ أريد أن أقابل والدك قبل موعد الطبيب..

أريدك أن تحكي لي قليلاً عن أمك في طريقنا..

أريد أن أعبر معك سياج الماضي..

إلى أرض الحاضر..

والمستقبل..

الآن!

(٢٥)

الرسالة الأخيرة

«أعلم أنك حين تقرأ تلك الرسالة أكون قد عجزت عن الوفاء عهدي معك..

لم نبلغ الستين معًا..

ولم تمت على صدري..

لأنني سبقتك بالرحيل عن هذا العالم الذي عجزت عن فهمه والذي خلا منك..

ما أقبحها من دنيا..

وما أكثر العهود التي لم نستطع أن نوفي بها بعضنا لبعض..

سامحني يا (مصطفى)..

أنا سامحتك.. وسامحت نفسي.. ولست أرجو سوى أن يسامح (يوسف) كلينا..

حاول أن توفِي بعهدك لـ(يوسف) قبل أن تلحق بي..

أوصيك به.. وأوصيه بك..

تعلمت الدرس يا (مصطفى) لكني دفعت ثمنه غاليا..

تعلمت أننا كلنا مخطئون.. كلنا كاذبون.. حتى لو كان كذبًا لا نمارسه إلا على أنفسنا..

لذا.. لا يحق لأحدنا أن يحاسب الآخر..

ودفعت الثمن عمرًا كاملاً من الحرمان..

الحرمان من راحة البال..

ودفء الحب..

وطمأنينة الروح..

هل ستطمئن روحي بعد موتي؟..

لا أدري.. لكن أظنها ستحوم حولكما برهة مثلما حدث مع روح أمي..

حتى تطمئن إلى حالكما.. أنت و(يوسف)..

ستشعر بها مع نسمات الفجر..

مع دفقات من أريج الخزامي تملأ المكان فجأة..

وفي أحلامك..

حسنًا فعلت أن أبقيتني زوجتك كل تلك السنوات..

الآن سألقى خالقي وأنا معلقة بك.. حتى لو بخيط واه.. حبر على ورق.. فهو ميثاق غليظ..

سأحاسب عليه.. وستحاسب أنت أيضًا..

فما لي عندك سامحني فيه..

وما لك عندي.. أُشهد من إليه تعود الروح.. وأشهدك.. وأشهد كل من عاشوا قصتنا..

أنني قد سامحتك..

ولست أكن لك إلا كل عشق..

كل مودة..

وكل رحمة

كانت بيننا يومًا ما..

وأنجبت لنا (يوسف)..

أيها الـ(مصطفى) لي من بين ملايين الأرواح..

أيها الحبيب الغالي..

سأنتظرك..

حتى يعود ضلعك الأعوج إلى صدرك..

حتى لو بين رفات التراب...

أوصي بأن أدفن إلى جوارك وتدفن إلى جواري..

لست أجد موطنًا أرحم من هذا..

ولا مبعثَ أكرم منه..

جوارك في القبر..

وجوارك في ما بعد الحياة..

بعد أن تدركنا رحمة الخالق..

العدل..»

رفيقتك للأبد

أميرة...

تمت

شكر واجب

إلى معنى الحياة... أمي

إلى السند... أبي

إلى الزوج والحبيب والصديق والمعلم

د/محمد نجيب عبد الله

كلمات الشكر لن تفيكم حقكم

شكر خاص لـ

أ.أحمـد عبـد المجيـد

أ.محـمـد الصـفـتـي

أ.أحمـد القرمـلاوي

أ.محـمـد البـوهـي

أ.أميـر عاطـف

أ. شريف عبـد الهـادي

أ.حـازم البـيـومـي

أ.محـمـد متـولي (تيتـو)

أ.نانســـي بـــــدر

أ.محمد عبد القوي مصيلحي

أ. هبـــة يـوســف

أ.رانـــــا عـمـــر

أ.وليـــد جـــلال

إلى آخرين في حياتي، هم مرآتي الحقيقية في حياة كثر زيفها...

شكرًا

1. الغلاف
2. ١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر
3. إهداء
4. (١)
5. (٢)
6. (٣)
7. (٤)
8. (٥)
9. (٦)
10. (٧)
11. (٨)
12. (٩)
13. (١٠)
14. (١١)
15. (١٢)
16. (١٣)
17. (١٤)
18. (١٥)
19. (١٦)
20. (١٧)
21. (١٨)
22. (١٩)
23. (٢٠)
24. (٢١)

25. (٢٢)
26. (٢٣)
27. (٢٤)
28. (٢٥)
29. شكر واجب